١٩٦٧

مكتبة نوبل

ميغل أنخل أستورياس

الريح القوية



الريح القوية

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : ميغل أنخل أستورياس
عنوان الكتاب : الريح القوية
ترجمة : صالح علماني
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٠

Author : Miguel Angel Astúrias
Title: Viento Fuerte
Translator: Saleh Almani
Al- Mada : P. C.
First Edition 2000

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ – ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٦٧
مكتبة نوبل

ميغل آنخل أستورياس

الريح القوية

ترجمة
صالح علماني

هناك لحظتان في مغامرة الغواص

واحدة، يكون فيها متسولاً وهو يستعد للغطس،

وواحدة، يكون فيها أميراً حين يطفو حاملاً لؤلؤته؟

براونينغ

الفصل الأول

لم تعد إشارات السعادة التي يظهرونها دليل قوة . فالحشود المؤرقة كانت خامدة كلها ، متوحدة ، مبعثرة ، بعد أن أمضت أياماً وليالي في العمل . الأرض التي كان بعضهم يجلس وبعضهم يستلقي عليها ، بدت خاضعة تماماً لإرادتهم . كل شيء تحت السيطرة ، باستثناء حر الساحل الرطب الثابت والمبهر . لقد فرضت إرادة الإنسان نفسها . فالأيدي والمعدات الآلية غيّرت الأرض . تبديل في المسار الطبيعي للأنهار ، وإقامة تركيبات دروب حديدية بين جبال مقطوعة أو جسور أو أعمال ردم ، من أجل أن تمر آلات نهمة تلتهم الأشجار المتحولة إلى جذوع مخضوضرة ، وتنقل رجالاً ومحاصيل ، جوعاً وأغذية . تسقط الأشجار ، بينما يطلع الصباح على أشجار أخرى مزروعة تصد عصف الريح عن حقول مهيأة لزراعات معينة ، وفي الوهاد ، مثلما في أحشاء الوحش الخرافي البائس ، المقهور ، المحطم ، والباقي دوماً على قيد الحياة ، يجري العمل في قلب الصخور ، ونقل أطنان من الأحجار الموجودة هناك أو استغلال اختلالات طبوغرافية من أجل إطلاق الثِقل الجذل لتيارات مياه عكرة ، وسخة ، تستعيد نظافتها في الأسفل وتنساب في أودية ذات لون أخضر مشع .

استنشق آديلايدو لوثيرو برئتين في وجنتيه كل هواء الساحل . كان عارياً حتى الخصر ، ببنطال أقرب لأن يكون خرقة مهلهلة ، وتحت عينيه المتجولتين في الاتساع الفسيح ، بقي أقل عدد من جماعة الناس المشتغلين الذين جاؤوا من كل الأنحاء جائعين ، يرتدون ما يشبه الأسمال ، ناشزي العظام ، بشعور غير حليقة ، ولحى تلطخ وجوههم الخشنة ، آي ، رباه!...

يداه الخشنتان المتعرقتان اللتان صلبهما الشغل ، واصلتا العمل برشاقة رجل متحمس . انحناء ، نهوض ، انحناء ، نهوض... كل فقرات الظهر بارزة ، مثل سلسلة فقرية لأفعى نحاسية... انحناء ، نهوض ، إغلاق مفصلة الخصر وفتحها لحمل الأحجار والكتل وملء العربات المسطحة في القطار الذي تقوده قاطرة مستخدمة منذ ألف سنة ، ليحملها من ذلك التفرع القصي للخط الحديدي ، إلى آلة طحن تتقيأ كل الأحجار التي تلتهمها محولة إياها إلى وابل من الحصى .

البحر ، وهو هنا أكثر هياجاً مما في الضفة الأخرى ، يشكل خلفية كل شيء بصدى صخبه . إنه أفق سماعي يصبح خط نار أزرق مرئياً عندما يصعد أحدهم ليلمحه من بعيد جداً أو من مكان أكثر قرباً ؛ فالقادمون الجدد الذين يشعرون بالفضول لمعرفة كيف هو البحر الباسفيكي ، يرتقون الجذوع العالية ويرونه بلونه الكريولين الحليبي المخضوضر في الصباح ، أما في المساء فيكون مثل ثمرة اغواكاتي مقسومة تتوسطها البذرة الكبيرة الحمراء .

الشاطئ غانية خطرة . الخضرة السامقة المتشابكة تغطيه بالكامل ، وفي هذه الشبكة العنكبوتية الخضراء من أوبار متشابكة ، كانت الإشارة الوحيدة إلى وجود حياة حيوانية حرة هي أسراب طيور ذات تدرجات لونية صارخة كأنها مقتطعة من قوس قزح ، على خلاف البواشق الآبنوسية وطيور الرخمة

ذات اللون الأسود الكهرماني ، وجميعها تبرز في عمق الفضاء لتشكل مع الخضرة إبهاراً واحداً ساخناً .

ـ سخونة ، يا كوتشو! ـ قال آديلايدو لوثيرو لزميل أحدب ، قريب منه ، بين الستة والثلاثين شاباً الذين يرفعون الأحجار إلى سلسلة العربات المسطحةِ لقطارٍ يئن ؛ فقد كان الحديد يئِّن تحت ثقل الصخور المفتتة بالديناميت والمدانات .

ـ سخونة ، يا لوثيرو!

كان أفراد زمر العمال يمرون واحداً وراء الآخر أو في جماعات من خمسة أو عشرة أشخاص ، حاملين كل أنواع الأدوات ، يقودهم عريف نحو المنخفضات حيث يبتلعهم الصمت فيها ، الصمت والفوران المحسوس لأجناس حيوانات دنيا ، غير مرئية ، ولكنها تكون نابضة ، أوركسترالية ، محتدمة ، كلما أطلت الشمس فوق مواقد الخضرة وبخار المستنقعات في قيظ الظهيرة .

لهاث العمال الذين يشتغلون مع آديلايدو كان يبدو وكأنه يحيط الأحجار التي تنتقل من الأرض إلى العربات ، بمادة مخملية من الإنهاك البشري تخفف حدة الصدمة .

ولكن لم يكن الأمر كذلك . فما كان يحدث ، وكوتشو يعرف ذلك جيداً ، هو أنهم كانوا يصلون إلى حد الصمم بعد ساعات وساعات في ذلك الانحناء والنهوض ، وكان اللهاث الآن أقرب إلى عظام الرأس ، فإنهم ما كانوا يسمعون سوى انفتاح الصدر وانغلاقه ، نزول الأذرع والأيدي وارتفاعها ، عند غرس الأصابع والأظفار في الأرض الرخوة لالتقاط الأحجار وإلقائها إلى كل عربة ، تحت ، فوق ، تحت ، فوق ، توالي فتح وإغلاق مُفصَّلة الخصر .

أصماء عن كل ما هو غير لهاثهم ، عميان بسبب الغبار الذي يتعالى ، دبقون بالعرق ، ويأتي صفير الرئيس المختبئ في كوخ مرتجل من القصب وسقف من القش ليشير إلى استراحة الغداء .

النساء كن كاذبات قاسيات ، يضحكن ويضحكن ، بينما هن يبعن لهم أقراص العجة والجبن والسجق والمورونغا ، والغويسكيل المطبوخ ، واليكة ، وفطائر الموز ، والفاصولياء . وبعد أن يشرب الرجال الماء من صنبور ، دون أن يلصقوا أفواههم به لأن الشمس كانت تجعله مثل طرف سفود الشواء ، كانوا يغسلون وجوههم ، ويسكبون ماء بارداً على رؤوسهم ، وبعد أن يجففوا أنفسهم بالأوراق القريبة ، محاذرين من أن تكون أوراق قُراص ، يلتفتون بوجوههم النهمة نحو الطعام الذي أحضروه للغداء .

كانت تسيل من أرغفة الذرة صلصات فلفل أخضر ، وفاصولياء ، وقطع لحم سميكة ، بطاطا صفراء ، قطع اغواكاتي ، جبن وأقراص عجة مع صلصات لاذعة ودهنية . وبأوان صفيحية كانت تستخدم كفناجين يُستخرج من الخوابي حليب مع قهوة ، ماء حليب فيه آلاف النقاط الصغيرة السوداء ، مثل فتات البن المطحون نفسه ، وفي الفناجين المملوءة حتى الحواف ، تُغمس بكل شيء وبالأصابع ، بكل شيء وبالأظفار ، قطع العجة أو كسرات الخبز ، لرفعها بعد ذلك إلى الشفتين ، وقد تحولت إلى ما يشبه الحساء ، ودسها في الفم ، ما بين اللحى والشوارب .

رائحة النساء كانت بارزة إلى حد أن الرجال كانوا يقتربون منهن وفي نيتهم طرحهن هناك بالذات ، مثلما يلقون بالأحجار إلى العربات ، بإرادة العمل نفسها في الخصور وبالحموضة نفسها في الأنوف ؛ لكن النساء كن يشكلن عقدة عمياء من المآكل ، والضفائر ، والأثداء الدافئة في القمصان

الوسخة ، وحِزم الإليات ، ويتفلتن منهم ما بين وعود وموافقات حاضر غامضة ، ولكنها تُنجز دائماً لأن كثيرات منهن كن حبلاوات تماماً .

صفارة الرئيس تعطي إشارة تجدد العمل . حتى وهم ما يزالون يتذوقون الطعام ؛ ومهما أكلوا دائماً كانوا يبقون جائعين ؛ وينطلقون مجدداً إلى مواصلة ما كانوا عليه .

صرخ أحدهم متألماً . فقد سقط حجر يزن مئتي ليبرة وأصاب طرف قدمه . لقد بتر له إصبعين تقريباً . جاء الرئيس ، بعد أن ذهبوا لاستدعائه ، وهو يضع الغليون في فمه ، والنظارة تنزلق نحو طرف أنفه الأحمر في وجهه الأبيض ، وأمر بأن ينقلوه إلى العنبر المرتجل القريب حيث تُحفظ أدوات العمل والملابس وأنابيب قصب الخيزران المملوءة بالماء التي يستخدمها العمال بدل القرع المجوف . وهناك وضعوه فوق بطانية ، بينما هم ينقلون الخبر بعيداً .

كان الألم يطبق عينيه لوقت طويل طويل... كل رجولته كانت تتحول مع الألم الذي يخنقه إلى صبيانية ، إلى طفولة . كان بانتاليون لوبيث يئن مثل صبي . بللوا شفتيه الجافتين . تناوم من أثر الألم أكثر مما هو من أثر النعاس . خشي الآخرون أن يكون قد مات . ولكن لا ، لم يمت . وحلّت القناعة في حر الأصيل بأنه لن يشفى تماماً على الإطلاق .

ـ كم يكلف ترويض الأرض يا كوتشو!

أخرج آديلايدو لوثيرو وجهه إلى الليل القاتم برطوبة العتمة التي دون قمر ، دون نجوم ، حيث يلمع قنديل هنا أو هناك في المخيمات .

ـ أترون . اليوم كان بانتاليون ، وغداً سيكون واحد آخر منا! فليحمنا الرب!

ـ إذا كنا سنحصي عدد الإصابات يا كوتشو فلن نتوصل أبداً إلى وضع خط لحساب المجموع . إنهم كثيرون إلى حد لا يعرف معه أحدنا كيف ما يزال حياً ويتحرك . إنها مسألة حظ . من يدري . ولكن ما يقتنع به المرء في هذه الأعمال هو أن من يأتي دوره . . يأتي دوره . أقول لك إنني كنت مع ليون لوسيو ، الصيني ، عندما قتلته ذات الأجراس . لقد مرت أولاً فوق قدمي ولم تفعل بي شيئاً . وكان أن لدغته هو الطيب . يا للمسكين . لقد تورم . والمستر الذي يرعى المعسكر لاحظ أن كل ما فيه يتجعد . ذلك العجوز المسكين ذو الإليتين الممصوصتين أصيب بالجنون . وأنت نفسك يا كوتشو ، لدغك عنكبوت من تلك التي تسبب حمى قوية وعنيفة إلى حد أنها تداهم الدماغ في ثوانٍ . وخوبالدو أيضاً كاد يموت ، بعد الانهيار الأرضي الذي أصاب كل أولئك الذين جاؤوا معه من خالباتاغوا . ثلاثة منهم انسحقوا تحت تلك الأتربة التي انهارت على رؤوسهم ، بينما كانوا يعملون على تثبيتها من أسفل .

وقال كوتشو الذي كان يتكلم حيث تظهر جمرة سيجارة :

ـ ولكن هذا العمل يُنجز . إنهم رجال ذوو إرادة ، يعرفون ما يفعلونه ، ولا يضيعون الوقت مع النساء...

ـ يعملون من أجل الحصول على المال ، هذا ما يجب أن تقوله ، لأنه دون هذا السيد الذهبي لن يُنجز أي شيء حتى لو أراد أحدنا إنجازه . الإرادة... يمكنك امتلاك الكثير منها ، ولكنك إذا لم تملك المال ، فستذهب جهودك في القليل الذي تستطيع الحصول عليه!

ـ ويعرفون ما الذي يفعلونه...

ـ لستُ أنكر ذلك . ثم إن ...

ـ إنهم ينجزون الأشياء بضخامة . أهذا ما كنت ستقوله ؟ فهذا فقط ما يمكن عمله ، عندما يتوجب انتزاع الأرض من جائحة النباتات الخبيثة من أجل زراعات يمكن للناس أن يعيشوا عليها .

من بعيد كانت تصل مع الريح دفقات من القطران ، الرائحة النفاذة وحسب ، وعلى الخطوط الحديدية ، في البعيد ، تمر أضواء عربات قطار . إنها لا تهدأ في النهار ولا في الليل . التحطيب يلتهم الأشجار من أجل أفران القاطرة ، وآلة طحن الأحجار والآلات الأخرى التي تُسخَّن بنار الحطب ؛ الشغل يلتهم أناساً ومزيداً من الناس ، معدات ومزيداً من المعدات . صخور تلين كالإسفنج في نار الأفران ، متحولة إلى كلس أبيض ، وفي أعمال البناء تلتهم الأساسات والجدران أحجاراً ومزيداً من الأحجار ، ومن أجل الحشوات ، والجسور والسدود التي تحتجز الماء الذي يواصل حركته برفق مثل حلم عميق إلى أن يسقط على التوربينات ، ليولد الطاقة الكهربائية التي بدأ توزيعها في أسلاك معدنية في كل الجهات على شكل نور ، وعلى شكل إبرة دبور ناري ما بين شرر وهالات زرقاء تَثقبُ قضباناً حديدية ، وتشق صفائح فولاذية أو تَلحم أطرافاً معدنية في اتحاد أبدي .

تَقَدُم الشركة يوزع سعادة الانتصار بين الجميع . فالكبار والصغار ، في تراتبية العمل ، يشاركون في تلك السعادة . . سعادة الرجل الذي يهزم العدو ، لأن الجميع يشعرون بالتساوي بأنهم مساهمون في ذلك الانتصار المتحقق ، مثلما في أي صراع حربي ، مقابل تضحيات كثيرة ، وجرحى وقتلى ، دون عدّ المبتورين . ومثلما في أي جيش كان هناك منشقون ، ما أن يصلوا إلى ميدان المعركة حتى يديرون ظهرهم متخاذلين ، شاعرين بأنهم غير قادرين على اجتياز الملحمة وهم أحياء جسدياً .

آديلايدو لوثيـرو يلتـصق بكوتـشـو ، ويهـتـزان كـلاهـمـا بنوبـة برداء الملاريا ، يتشـمـمان بأنفيـهـما ، مثل كلبين ملتصقين ، مستقصيين إلى أين يأخذونهما بين كل أولئك المرضى المكدسين في عربة أُلقيت على أرضيتـها بضع حزم من القش لتكون فراشاً لهم .

وأخيراً وصلوا إلى بناء مرتجل من خشب مطلي بالاسبيداج ، أبيض من الخـارج ، وبلون الخـشب من الداخل ، حـيث يتنقل بعض الرجـال ذوي الأرواب ، دسوا في أفواههم أنابيب زجاجية صغيـرة لها طعم خمرة القصب ـ إنه الكحول الذي يعقمونها به ـ ؛ وأمسكوا وريد أذرعهم ليسحبوا منه دماً ، كل هذا دون أن يفحصوهم جيداً ؛ لقد رأوا مرضى كثيرين فكيف سيدققون في كل واحد منهم ، وأعطوهم في علب صغيرة مدورة ، بعض الأقراص قائلين إنها جيدة للسخونة .

بعـد تناول الأقـراص الأولى ، أحس كـوتـشـو بـالبلل في ظهـره وأحس لوثيـرو كـذلك بأن ظهـره يقطر مطراً . يا للداء الغـريـب . إنه يسـبب برودة سـاخنة وسـخونة مـثلجـة . بـاردون ، دون ألم في الرأس ، دون طفـرات في الحواس ، متحمسون ، بهم رغبة في النهوض ، في عمل شيء ما . اصطدم وجهاهما . وبسبب عدم وجود مرآة كـان يمكن لكل منهما أن يخبر الآخر كيف كـان شـاحباً ، وكيف كـانت وجنتاه بـارزتين من النحول ، والأذنان إلى الوراء دون دم ، والعينان زجاجيتين ، والشفتان جافتين ونحيلتين واللثة مائلة إلى الصفرة .

انفصلت دروبهما . بدأ كوتشو يسعل . ليس هو وحده ، بل كثيرون ، وكل هؤلاء الكثيرين أخذوهم بعيداً ، لينقلوهم إلى العاصمة ، حيث المناخ أكثر لطفاً ، وربما يحسّن حالهم كما قالوا لهم . آديلايدو لوثيرو ، وقد صار

وحيداً ، يتذكر ذراعي زميله المعروقتين حين عانقه ليودعه . لقد كان ميتاً يقول له وداعاً .

ـ إنني نادم يا كوتشو ، لأنني أنا الذي جئت بك إلى هنا...

ـ ما هي إلا ترهات منك ، أنا جئت برغبتي ، وهل أنا صبي صغير لكي تُحضرني بالقوة . لم يصبني شيء خطير ، ففي الطقس البارد ، سأتخلص من هذه السخونة الشيطانية ، سأقف على قدمي من جديد ، سترى كيف سأرجع... لا تجازف كثيراً... انتبه لنفسك...

القطار سيمضي . قطار توقف قبالة محطة تبدو وكأنها لم تكن قائمة على الأرض وإنما معلقة على أشجار الكاكاو ، على أشجار الغواروموا ، على القصب ، على الأغصان الكثيفة . كانت الأرضية كلها مغطاة بقشور وبأوراق اوكاليبتوس شبه جافة . دوت ومضات كهرباء سماوي في الأسفل ، من جهة الشاطئ . هيكلان أو ثلاثة هياكل مرتعشة راحت تعرج راكضة بين النائمين حيث تمتد قضبان سكة الحديد التي تختفي عند الوصول إلى المنعطف ، وهناك يوجد جسر تغطيه نباتات متسلقة ذات أزهار زرقاء وبيضاء ، تسمح للنهر بالمرور من تحتها ، مثل سكة من ماء تمضي بسرعة أكبر لدى الاقتراب من البحر الذي هو حنينها .

تمطى آديلايدو بأقصى ما استطاع ، وأمال القبعة ، وسحب الماتشيتي من حزامه وحمله معلقاً بيده ، يجره من رأسه على الأرض ، إلى القرية الصغيرة التي تشكلت غير بعيد عن المحطة .

قام بالمشتريات الضرورية ، وألقى بها في كيسه ، توقف ليلف سيجارة ، أشعلها ، ومضى . كل شيء كان مرتباً على امتداد هذا العالم الجديد الأخضر الذي ليس فيه شيء ناشز ، فدروبه مرسومة بدقة تحت آلاف

الأوراق التي تتدلى من جذوع لحمية ، بعضها مثل حراشف ولحى أسماك جافة ، وأخرى لها لون لحم المامون ، تبدو في الغصن الطويل مثل مجذاف وكأنها تفقد كيانها اللحمي الذي يولد من الجذع وتنحف أوراقها لتصبح مثل أجنحة الفراش . ومع التوغل في الهواء الساخن ، تثير كل ورقة في حقل الموز فوق رأس لوثيرو إحساساً بأنها مجذاف موجود خارج البحر . عند تقاطع طرقٍ ، التقى برجل متورم القدمين ، له قدمان متورمتان جداً ، يلقبونه نيغوينتو[1] . يلف قدميه بخرق تبدو أشبه بالقشور ، وتظهر منها أطراف الأصابع مثل حبات بطاطا متعفنة . وقف يتأمله بعينيه . . بعيني شيخ حزين ، وسأله إن كان قد التقى بفتاة هربت منه للتو . إنها ابنته . فرد عليه لوثيرو بأنه لا وجود لها حتى المحطة .

قال له نيغوينتو :

ـ ربما تصنع لي معروفاً بالبحث عنها ؛ وإذا وجدتها فقل لها إنني قد متُّ .

ـ إذا ما رأيتها في طريقي سأقول لها ذلك ، ومن الأفضل أن ترجع إلى بيتك ، فمن المضر أن تمضي هنا بمفردك ، قد يصيبك تشنج سيئ ، وأنت لست بحاجة للمزيد .

ـ تشنج أكبر من الذي في قدميّ . أشعر منذ سنوات طويلة بأن قدمي مخدرتان ، وكأنهم قد وضعوا لي قطعتي حجر بدل القدمين . انظر إذا كنت تجدها...

وراء مجموعة من الأشجار سمع لوثيرو حفيف تنانير ، وحين التفت

---

(١) نيغوينتو : المصاب بالنيغوا Niguas ، وهي حشرات أصغر حجماً من البراغيث ، تدخل في القدمين وتسبب فيهما تآكلاً والتهاباً .

التقى بالوجه الأسمر لفتاة تشير له بأن يصمت واضعة أصابعها على شفتيها .

ـ إذا رأيتها سأنقل إليها رسالتك . ـ شدد لوثيرو على الكلمات متواطئاً مع الفتاة .

واصل نيغوينتو جرجرة وسادتي قدميه ، وهو يئن ويشكو ، ما بين أوراق أشجار الظل أو التشيشيغوا . وتوجه آديلايدو إلى حيث تختبئ الفتاة .

قال لها حين اقترب :

ـ هذا سلوك خبيث . وليس بالأمر الحسن أن تكوني خبيثة ولك هذا الوجه الجميل . فهو أبوك على حد قوله .

أطرقت الزهرة السمراء رأسها أمام التأنيب ، مع أن وجهها بكامله راح يتململ بأكثر التكشيرات ظرافة ، وكأنها تريد أن تقول إن رأي لوثيرو لا يهمها كثيراً . وانطلقت ماشية دون أن تنطق بكلمة واحدة ، مجرجرة قدميها أولاً ، لكي تثير الغبار ، ثم خفيفاً ، خفيفاً بعد ذلك .

تأملها آديلايدو من خصرها إلى رأسها ببلوزتها الوردية ، ومن خصرها إلى قدميها بتنورتها الصفراء ؛ ورأى ضفيرتيها السوداوين على ظهرها تحت الشال ، وتركها تنصرف دون أن يقول شيئاً . ولأنه كان يراقبها ، فقد أُفلت منه منجل الماتشيتي ، وبالكاد وجد الوقت لأبعاد قدمه ، وإلا كان قطعها .

ـ أي شيء إلا سقوطك حين أكون ساهياً . إنك خبيث جداً ـ قال ذلك للماتشيتي وهو ينحني لالتقاطه ـ تريد أن تقول لي إن إفلات الماتشيتي يعني أنني ميت .

حقول الموز التي في هذا الجانب تنتظر حملة تنظيف جيدة ، لا بد من قطع كل ما هو يابس وما يزال ملتصقاً بها ، مع أنها كانت تبدو شجيرات

مريضة مثل كوتشو الذي مضى نحيلاً وكأن وجهه مجرد أذنين ، مريضة مثل كوتشو ، لأن الأوراق مثله ، تسعل مع هبوب الريح .

بقي لوثيرو يفكر بكل هذا بينما الفتاة تبتعد . وكان سيبقى هناك لو لم يميل القبعة ، ويُطلق بصقة ويقول كما لو أنه يتكلم إلى شخص آخر :

ـ آه ، يا لي من أحمق ، سألحق بها وإلا سيفوت الأوان!

خرج أمامها من طريق فسيح ، مخصص لمرور الآليات التي ترش أدوية حامضة حلوة ذات لون أزرق على حقول الموز لكي لا تمرض . كانت هناك آلة غارقة في سباتها ، ترش الحقل بمطر خدر . وظهرت فراشات لعوبة ، وبين فينة وأخرى كان يأتي من مكان سحيق تغريد طيور الثينثونتل ليسلو المسامع .

ـ لو كنتُ أباكِ لجلدتك...

فردت عليه :

ـ لو كنتَ... ولكنك لست أبي...

ـ وإلى أين تذهبين...

ـ ألا ترى ، إلى حيث أتوجه بوجهي ، والآن سأمضي إذا شئت دون أن أرى ، سأمشي إلى الوراء... ـ وانطلقت تمشي القهقرى ، بينما هي تقول له بأكثر إيماءات الدنيا سعادة :ـ الآن أمضي إلى حيث يتوجه وجهك!

ـ خبيثة!

كانت الفتاة تمشي إلى الوراء بسرعة وتبتعد كأنها تطير . وكان لوثيرو يلحقها دون أن يتمكن من إدراكها . وقطعا مسافة لا بأس بها على هذه

الحال ، هي تمضي إلى الوراء ، إلى الوراء ، إلى الوراء ، وهو يلحق بها .

ـ لن تقولي لي إنه لا يناسبك الحصول على زوج طيب...

ـ ولكن ، بما أنه لا وجود له...

فقال لوثيرو وهو يحث الخطى :

ـ بل هو موجود ، فمن أجلك هناك زوج...

ـ ولكن أبي لا يريدني أن أتزوج...

ـ وما الذي يعرفه أبوك عن هذه الأشياء... ووسع خطاه أكثر .

ـ وكيف لا يعرف إذا كان قد تزوج من أمي بعد أن كان متزوجاً وترمل ؛ لقد تزوج مرتين ، إنه يعرف!

ـ إنه يعرف ما يخص الرجل ، ولكنه لا يعرف ما يخص المرأة ، وهو ما يهمك... ـ وكان يمضي بسرعة لا يمكن معها فهم ما يقوله .

ـ ولكن أمي لا تريدني أن أتزوج كذلك . وهي تعرف السبب .

ـ لأنك لم تجدي الرجل الذي يناسبك .

ـ ولن أجده ، فأنا أريد رجلاً جيداً ، ومثل هذا الرجل لا وجود له .

ـ كيف تقولين لا وجود له ؟... ـ لقد صار مشيه ركضاً ؛ وبعد لحظة من ذلك توقف آديلايدو وتوقفت هي أيضاً على مسافة حذرة منه .

ـ ما اسمك ؟

ـ آديلايدو لوثيرو ، لماذا...

ـ لكي أعرف ، وأنا أسمي روسيليا دي ليون ، في خدمتك .

ـ وهذا ما أقوله أنا ، لأخدمك في كل ما هو مفروض وغير مفروض ، أريد أن أخدمك في التفكير... ـ دنا آديلايدو خطوات فتراجعت هي مثلها .

ـ لا بد أنك تقول الكلام نفسه لجميع النساء!

ـ لكثيرات ، ولكنني أقوله لك الآن .

ـ أريدك أن تكون عرابي ، فعما قريب سياتي الأسقف .

ـ عراب... ـ كان قد تمكن من إمساك معصمها وأوقفها لكي لا تواصل الابتعاد متراجعة .

ـ أفلتني...

ـ سأفلتك إذا توقفت للتكلم معي...

ـ من الأفضل عدم التكلم... من الأفضل أن تواصل طريقك...

الصراخ الذي أثارته امرأة لها وجه بومة عندما وجدتهما ، بينما هو يمسك بذراعها وتجاهد هي لتفلت منه ، كان لا يطاق . ومع المرأة ذات وجه البومة خرج أناس آخرون ، معظمهم نساء وصبية وكلاب تنبح . وكأنهم قد نبتوا جميعهم من الأرض . أفلتها آديلايدو على الفور ، ولكن ذلك لم ينفعه في شيء ، لأن المرأة العجوز والنساء الأخريات واصلن الصراخ وواصلت الكلاب النباح .

اتهمته العجوز البومة ونيغونيتو الذي جاء يدب على وسادتيه ، دون أن يُحدث ضجة ، وكأنه يسبح ، اتهماه بعمل كل شيء بابنتهما . إنها قاصر! إنها قاصر! إنها قاصر! كان العجوزان يصرخان وهما يريلان شيئاً يشبه اللعاب ، ولكنه كان أقرب إلى ماء الغضب .

كان منجل الماتشيتي هو أول ما انتزعه منه العسكريون الذين نزلوا مستنفرين من مركزهم . وسار معهم لوثيرو بالحسنى . وفي الخلف كان أبوا الفتاة يثيران مصاعب جديدة برفضهما أن تتولى الدورية اقتيادها لتدلي بأقوالها للقاضي . ولكن لم يكن ثمة مخرج . ووراء الفتاة ، مضى نيغونيتو وهو يعرج بينما العجوز البومة تطلق رائحة براز ودهن ، وصعدوا الربوة الصغيرة ، ما بين أشجار نخيل ، حيث كان مركز الشرطة والمحكمة .

مَنْ كان يقوم بعمل قاضي الصلح ، وهو السلطة العليا في ذلك المكان ، أنهى القضية في الحال .

ـ آديلايدو لوثيرو ، إما أن تتزوج المرأة التي اغتصبتها أو تقضي ما تبقى من حياتك في السجن .

فدافع لوثيرو عن نفسه :

ـ لم أفعل لها شيئاً ، فلتقل هي إذا كنت قد لمستها ولو مجرد لمس .

وكانت العجوز ترتعش :

ـ يقول إنه لم يفعل لها شيئاً... لقد دمرها .

ويرفع نيغوينتو جذوة غضبه :

ـ عديم الحياء! قاطع طريق! عرفَ أنني أبحث عنها ، طلبت منه أن يجدها ، وحين عثر عليها ، فـ . . فـ . . فـ . . . ـ من العينين الضائعتين وسط التجاعيد وشعر اللحية والحواجب ، كان يتدفق بكاء أب مهان . وكانت البومة العجوز ترضي نفسها كذلك بالبكاء صراخاً .

وكانت روسيليا دي ليون ، تحت وطأة الخجل ، قد فقدت إرادتها ، لقد كانت بهيمة صغيرة لها عينا بشر ، فمها جاف ، ولسانها كما لو أن عقرباً

قد لدغه . ودون أن تتمكن من جمع دمعتين ، على الرغم من كثرة ما رمشت بعينيها وتلفتت في كل الاتجاهات ، وكادت أن تمزق بيديها الشال لكثرة ما فتلته وكأنها تريد أن تفتح فيه ثقوباً .

ـ سواء أنلت منها قبل أم بعد ، فإنكما الآن في أشد لحظات حياتيكما مهابة ، إنها اللحظة التي نعقد فيها قراننا هذا ـ كان الموظف يتكلم وكأنه هو من سيتزوج .

ـ ... لا يمكن لأحد أن يعرف . فأنا خرجت لوداع صديق مريض ذاهب إلى العاصمة واستيقظت في اليوم التالي وأنا مع روسيليا ـ هكذا كان آديلايدو لوثيرو يروي القصة بعد عدة سنوات ، عندما يدور الحديث عن الزواج . والحقيقة أن كل أصدقائه تقريباً تزوجوا وهم تحت وطأة خمرة القصب ـ أما أنا فكنت على الأقل بكامل وعيي عندما خوزقوني .

بناء بيت آديلايدو لوثيرو كان يتقدم بقوة الآجر ، مدماكاً فوق مدماك ، في كل أيام الآحاد وأيام العطل وساعات الحر الخفيف ، عند العصر ، كان خليط المواد يتحول إلى بناء . أساس جيد وجدران بوزن الرصاص . وكان السقف متعباً أكثر . ولكنه أُنجز . وفي يوم طيب لم تر عينا روسيليا الفراغ فوق البيت ، وإنما قتامة الآجر فوق العوارض الأساسية والفرعية . كان ذلك الغمام كما لو أن للبيت جدائل تظهر من الداخل . جدائل تنبعث منها رائحة الخشب المقطوع حديثاً ، والتراب ، والكرنب الطازج .

كان لوثيرو يخفق الدهان في علب صفيحية لكي يطلي البيت . وأوضح لزوجته : الجزء العلوي من الجدار وردي ، والسفلي أصفر . فردت عليه بأن ذلك سيكون قبيحاً . ووافقها في الرأي على أنه قبيح ، وأضاف :

ـ ولكنك كنتِ تلبسين هكذا يا روسيليا دي ليون يوم رأيتُكِ أول مرة .

وكم من العذوبة وضع حينئذ في ضربات الفرشاة التي كانت تلحس ظمأ الجدران حتى تبقى ذات لون جميل متماثل . باركوا البيت . ولأنه لم يكن هناك خوري ، فقد قام أحدهم برش الماء المقدس . إذ لم يكن من السهل العثور على كاهن هناك . جرت المباركة في حفلة صغيرة . جاء الأصدقاء . وزُين البيت بسلاسل ورقية ، زرقاء وخضراء ، ووضعت على الأعمدة باقات من القصب مربوطة بفروع نباتات متسلقة مزهرة ؛ وجرى رش ماء الصنوبر على الأرضية المبلطة بطوب جديد ، ولكي تكمل روسيليا الحفلة ، ظهرت مرتدية التنورة الصفراء والبلوزة الوردية ، ولأنها لم تعد على مقاسها ، فقد كان لا بد من توسيعها من الأمام ، لأنها كانت حبلى .

الفصل الثاني

من كل البوم ، من كل الهام ، من كل الطيور الليلية استخلصت مَنْ كانت حماته قبحها . هذا ما قدره لوثيرو يوم حفلة رش الماء المقدس على البيت ، وكان يصعب عليه أن تكون تلك السيدة هي أم ضلعه الرائعة التي لم تضر شهور الحمل بجسدها ، بل أظهرته أفضل بكثير .

عند انصراف المدعوين ، وبقائهما وحيدين ، اقتربت من زوجها بما يشبه التقديس ، ليس لأنها كانت قد تناولت كأسين من خمرة جيدة ، وإنما لأنها أحست بأنه مولود من الابن الذي تحمله في بطنها ، مرت بيدها على ظهره ، بينما لوثيرو جالس على مقعد عالٍ يلعب بقدميه مثل صبي أنهى صنع دميته بعد الانتهاء من بناء البيت .

كان التراب الذي هو حياة صافية على الشاطئ يلتصق بباطن قدمي المرأة ، مثل لسان ملتهب في سماء هذه الأفواه التي في أسفل القدمين ، ويلحسها ببطء إلى أن ينقل إليها نوعاً من الدغدغة تنتشر في كل جسدها ، دغدغة لا تنطفئ إلا عندما يمر آديلايدو بيده على نهديها ، على بطنها ، على ساقيها ، وكأنه لا وجود لخطر الموت في الخطوة التي تنتظره... آه ،

أجل!... وكأن الموت لا ينتشر جنباً إلى جنب مع الحياة مالئاً أجواء الشاطئ ، ولا يكشف عن حضوره عند أقل سهو من جانب الكائن البشري الأعزل والضئيل جداً في إطار تلك الطبيعة الهائلة ، والتافه جداً إلى حد لا يتجاوز أن يكون معه ورقة من آلاف الأوراق المؤلفة التي تسقط ميتة وتحل محلها أوراق أخرى .

إنهما زوج وزوجة يتذوقان الوسن الذي يعكر أعينهما مثل استراحة وسط الحر ، وكأنهما يخرجان في ظلال الحلم من الساحل ويذهبان في نزهة إلى مناخ الجبال الطيب ؛ مع أن المكان الذي شيد فيه لوثيرو بيته ، في «سميرأميس» ، يتعرض لهبوب هواء شبه بارد طوال الليل . أما إلى أسفل قليلاً ، باتجاه البحر ، فإن النوم يصير اختناقاً مع كل ما يرافق مصاب الربو من آلام ، بانتظار بزوغ الفجر الذي يستمر فيه الحر على حاله . لقد كان ذراعها يتدلى عند الفجر من السرير القابل للطي ، وكانت تئن وهي نائمة ، بينما رأس لوثيرو يميل وقد غطى الشعر وجهه .

أيقظتهما الحماة من نومهما . كانت تمسد ملابسها ، فهي تنام بثيابها ، وتمر بيدها على شعرها وكأنها تحمل حشوة الفرشة ملتصقة برأسها . لم تكن رابية «سميرأميس» قريبة منها ، ولكن خروج زوجها منذ الفجر ، أتاح لها الوصول إلى بيت لوثيرو قبل أن يستيقظ الزوجان .

ـ وهذه العجوز... ـ قال الصهر وهو يعي الواقع الذي بدأ يصطبغ باللون الوردي على ضوءالنهار ، ما بين صياح الديكة المتلصلصة وأصداء الآلات البعيدة التي بدأت العمل .

ـ آي ، يا أمي! ـ تذمرت روسيليا ، منزعجة من قلة تبصر أمها .

ـ لم أكن أرغب في أن أخبركما بأي شيء من قبل ، ولكنني حسمت

أمري الآن ، فمن الأفضل رغم كل شيء أن تعرفا . أبوكِ ـ قالت ذلك متوجهة إلى روسيليا التي رفعت رأسها مستندة إلى إحدى ذراعيها ـ أبوكِ ركب القطار ، وقال إنهم سيوفرون له عملاً في مستشفى سان خوان دي ديوس .

ـ وأين هو هذا يا أماه ؟

ـ المستشفى العام ، فهو يسمى أيضاً مستشفى سان خوان دي ديوس .

ـ وأي عمل هذا... ـ سأل لوثيرو بينما هو يرتدي بنطاله أمام حماته دون وقار . فالغضب الذي سببته له أفقده وقاره .

ـ العمل كمريض .

ـ سيذهب أبي ليشتغل مريضاً ؟

فقال لوثيرو الذي كان قد نهض وبدأ يبحث عن طست ليغسل وجهه :

ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه عمله...

ـ ولكن أمي أرادت أن تقول ممرضاً ، وليس مريضاً ـ قالت ذلك روسيليا وهي تُخرج بروزي صدرها من تحت ملاءة لها لون اليَشب ، وتتثاءب بتثاقل .

فكررت الحماة السعيدة لأنها توصلت إلى إيقاظهما :

ـ بل سيعمل مريضاً...

غسل لوثيرو وجهه جيداً ، وسكب ماء كثيراً على شعره ، فابتل كتفاه أيضاً ، ثم تناول منشفة وراح يفرك وجنتيه ورقبته وأذنيه وصدره وما تحت ذراعيه .

ـ دعيه وشأنه . سيرجع قريباً . فهذه حاله بسبب يأسه من داء قدميه...

ـ ولكن من يصدق أن داء قدميه هو الذي سيوفر له الطعام . هذا ما قاله لي قبل أن يذهب . هناك طبيب يريد أن يُثبت أن ما أصاب أباكِ ليس جُذاماً من النوع الخبيث ، وإنما هو جذام ضعيف ، سببه الأحد عشر ألف نيغوا[١] التي دخلت في قدميه . ولم يُخرجها لأنه كان يمضي مخموراً على الدوام ولم يسمح لي بإخراجها فصارت قدماه إلى ما صارتا إليه : وكر نيغوات!

ـ النيغوا والخمر هي التي تسبب إذن هذا الجذام ، وهل سيشفى أم سيبقى يعرج ؟ يمشي وكأنه يمشي على كعبيه ، توكو ـ توكو ـ توكو ، وكأن له بدل القدمين شجرتي موز توأمين .

ـ لا أدري إذا كان سيتعافى أخيراً . أقول لك يا آديلايدو إنه داء غريب ، لأنه لا ينتن كثيراً ولا يجعله يبكي ؛ إنه يشكّل قشوراً ، كأن تقول حراشف سمك ، طبقات وسخ .

ـ تخطر لأبي هذا أمور لا أعرف كيف أصفها ، الحقيقة لا أعرف... ـ كانت ورسيليا قد ربطت شعرها بمشبك له شكل مشط وراحت تتنقل من جهة إلى أخرى لتُعدّ الفطور ؛ ثم توقفت وقالت لأمها : ـ ستبقين الآن لتتناولي الفطور معنا .

ـ لقد تناولت صودا مُطَّهرة وعليّ أن أذهب ، وإلا سيُفقد شيء هناك في البيت ، فقد انتشرت السرقات بعد أن شاع أنه يمكن الحصول على أجور عالية هنا ، وهم يأتون ليمرضوا فقط ، وليضعوا أعينهم على ما يجدونه دون حراسة ليُنشبوا أظفارهم فيه .

---

(١) نيغوا Nigua : جنس حشرات أصغر من البراغيث يدخل في القدمين .

القطارات تنقل أكداساً من الرجال الذين يأتون للقيام بالأعمال الزراعية ، بوجوه باهتة تحت قبعات الشمس الصفراء ، يأتون صامتين . بعضهم يدخنون ، وآخرون ساكنون ، بلا عيون قبالة التوالي الذي لا ينتهي لآلاف جذوع الموز المنتصبة بأوراقها الخضراء مثل جيوش مسلحة بسيوف لقطع الطريق على البحر .

ومعهم ، في أثرهم ، على إيقاع مجيئهم ، أتت كذلك الخمرة ، والبيرة ، والدعارة ، والفونوغراف ذو النفير ، والمشروبات الغازية ، والصينيون باعة الملابس ، والصيدليات ، وحامية الجنود الكئيبين ، وعامل التلغراف العاشق ، إلى أن شكلوا القرية على أرض تنازلت عنها شركة «تروبيكال للموز ش .م .» حيث جذوع الأشجار المقطوعة للتو ، لفتح المجال للبناء ، تتناوب مع المستنقعات والعليق .

وجميع أولئك الرجال المستيقظين بفعل الحر بعد النهار والمبهورين بفعل ظلام الليل الحارق ، يتحركون في القرية البدائية وهم لا يرون بم يصطدمون ، مستعينين بأيديهم في مشيهم المتسكع . كل أولئك الرجال يغلبهم النعاس أخيراً في الليل ، ويهدهم التعب ، فتنبعث منهم رائحة الإنهاك الكريهة ، لأن الإنهاك ينتن عندما يشتد ، ينتن وتنبعث منه هذه الرائحة... رائحة التعب ، رائحة اللحم المطحون ، رائحة العذاب ، يستلقي أحدهم بظهره إلى الأرض ، دون عباءة بونتشو تحته ، وبالقبعة على وجهه ، والجاكيت المفتوحة تغطي صدره إلى مستوى الكتف ، كما لو أن أحداً ينبطح فوقه ويحتضنه دون ذراعين سوى الكمين ، بينما يكون نائماً .

بعيداً ، في الظلام ، كل شيء يبدو بعيداً ، ثمة مصباح يشير إلى

حانوت الصيني ، إنه قنديل أوكوتي[١] ، هناك بعض البضائع التافهة ، قهوة مع خبز ، سجق ، لوبياء قديمة ؛ وهناك يقتربون واحداً وراء الآخر أو في جماعات مقدمين تحية المساء للبائعة وطالبين شيئاً يأكلونه . تقدمه إليهم وينتحون بالأطباق وفناجين القهوة جانباً ، لكي يعدوا المائدة على الأرض القاتمة ، وهم جميعهم يجلسون القرفصاء . مَنْ أمضوا فترة على الساحل صارت عيونهم زجاجية حتى في الليل . إنها الحميات الأولى المحسوبة كوليرا . والقادمون حديثاً ، أوفر صحة ، أكثر كمالاً ، مرحين ، متذكرين ، راغبين في الذهاب للدفع لامرأة جيدة هناك في الخلف . فهناك ، في الظلمة القاتمة ، في أطر الأبواب ، مثل أشباح ذات أسنان ذهبية ، تلوح بعض النساء بأيديهن للعابرين ، يستدعونهم ، يلححن عليهم بالدخول : يا للوهم!... بديع!... لذيذ!...

كل شيء يصمت ، ولكن ليس في صمت ، إذ يُسمع مادياً انبثاق الأوراق من الأغصان ، وانبثاق الأغصان من الجذوع ، وتُسمع الجذوع التي تنفصل عن الجذور لدى الإنصات فوق الأرض ، إنها تنمو مثل خرير ماء يصعد ويصعد حتى يصبح بارتفاع شجيرة أو شجرة ؛ ويُسمع كذلك مرور الحيوانات التي تستغل الظلمة لتذهب وتجيء بحذر ورشاقة بحثاً عن طعام أو مخبأ .

آديلايدو لوثيرو ، الآمر في مزرعة «لاماروما» ، تناول فطوره عند انصراف حماته التي مضت وهي تقول ذاك الذي قالته عن أنها ذاهبة وذهبت ، خائفة أن يدخل اللصوص إلى بيتها ، مستغلين عدم وجود زوجها ؛ لقد كان نيغوينتو نافعاً في شيء ، ببقائه هناك كي لا يسرقوا شيئاً من البيت . خرج

(١) أوكوتي ocote : نوع من الصنوبر الأحمر يشتعل بسهولة ، وهو يستخدم منذ زمن المايا في الاضاءة .

لوثيرو بحركته المعهودة ، إذ وضع القبعة ، ظُرفاً أو مداعبة ، على رأس زوجته لحظة كي لا تنساه في غيابه .

بنطال ركوب خيل ، طماق ريفي ، سترة ذات أهداب ، والقبعة الكبيرة للاحتماء من الشمس . وسرعان ما كان يقوم بعمله الأول . أحاط به العرفاء مراقبو العمال . كان أحدهم يتكلم عن الجميع . مجازفة للمجازفة ، اللعنة . لقد طرحته أرضاً . لم يكن بالرجل المناسب لمواجهتي . انتحى الماسكارون ثالديفار مع لوثيرو جانباً ليكلمه عن شيء أكثر أهمية . سيحين موعد القطاف وفرق عمله غير مكتملة . ومن كانوا سيرسلونهم من «إلخوتي» لم يصلوا كلهم . جاء ثلاثة فقط . إذا لم يتوفر له الرجال ، فيجب عدم إلقاء اللوم عليه . والزنجي سولوغايستو ، وهو عريف آخر من مراقبي عماله ، أوقفه أيضاً من أجل الأمر نفسه . فهو يفتقر إلى الأيدي العاملة . والقطاف «مسعور» . الزنجي سولوغايستو يستخدم الكلمات ، مثلما كان يقول هو نفسه ، «على هواه» . وبالفعل ، ففي جني الثمار شيء من سعار الوحوش عند فصل أقراط الموز عن الخضرة العملاقة ، بكماشات خطافاتهم . حركة فريق القطاف ، تحت شجيرة الموز التي تشبه شجرة صليب أخضر ، كانت مثل حركة يهود يحملون السلالم والحراب محاولين إنزال مسيح أخضر متحول إلى قرط موز ، يُنزلونه بالأذرع والحبال ، ويتلقونه بكل حذر وكأنه كائن فائق الحساسية ، فيُنقل في عربات صغيرة ، ليتلقى المغاطس المقدسة ويعبأ في كيس مبطن من الداخل بوسائد خاصة .

الماء يصفر مترنحاً وهو يمضي في مأخذ جديد مفتوح للسقاية ، بين جبال تحتفظ بالتراب رطباً . تحت شجيرات الموز تتنفس الأرض رطوبة الساحل الساخنة ، وبهذا التنفس المائي يتغذى العالم النباتي الذي ينتقل من

البذرة إلى الزهرة في لحظة واحدة . خضرة بُحَيريّة من أشجار تشكل بقعاً كبيرة وفسيحة من الخضرة ، تتواصل إلى ما لانهاية البحر . صفوف وصفوف من شجيرات الموز . في كل الأنحاء . في كل الجهات ، إلى أن تضيع في الأفق . آلاف الشجيرات التي تبدو وكأنها تتكرر في مرايا متوالية . متشابهة تماماً ومزروعة بتناظر يجعلها تبدو وكأنها النبتات نفسها ، متباعدة بالقدر نفسه ، وبالارتفاع نفسه ، واللون نفسه تقريباً ، والتفتح العابر والأبدي نفسه . الجذوع الصقيلة ، صقلاً معدنياً ، والفروع المتشكلة مراوح مقوسة ، تمنع الرؤية في نور من الخضرة ، إنها خلايا زمرد مستقبلي .

ـ أرضٌ لالتهام البشر... ـ كان لوثيرو يعلق ؛ ولقد رأى ذلك بنفسه ، فقد كان ممن جاؤوا عندما كان كل شيء بحاجة إلى أن يتحقق ؛ «وهي ستواصل الالتهام» ، فكر بذلك بينما هو يناقش مع عرفاء فرق العمل سبل الحصول على أيد عاملة ، وإلا فإن الأمور ستكون أكثر من كارثة . ففي السنة الماضية ذاقوا الهول بسبب ذلك . لأنه إذا ما نضجت الثمار بسرعة كبيرة ، وهي التي يجب جنيها خضراء ، فإنها ستضيع بكل بساطة بسبب نقص الأيدي العاملة في القطاف . وعندئذ قد يضيع ألف أو خمسة آلاف أو عشرة آلاف قرط موز... هكذا كانت حسابات الربح أو الخسارة في «التروبيكالتانية» ، مثلما يطلقون على «شركة تروبيكال للموز المغفلة» . لقد كان توريس ذو المخطم هو العريف الأخير . وقد جاء بالشكوى نفسها . نريد أناساً . وليأتوا من أي مكان . لأن النتائج دون ذلك ستكون وخيمة . فمن المستحيل إنجاز الأعمال بما هو موجود .

طلبَ العرفاءُ من الآمرين ، وطلبَ هؤلاء من الرؤساء ، وانتقال الطلب من الرؤساء إلى المكاتب المركزية حرّك سلسلة من النوابض السرية في

مكتب التلغراف . تلك الآلات الصغيرة وسط الغابة التروبيكالية ذات الانسجام غير المنسجم لخليقة تسعى جاهدة للبقاء ولكنها تموت فور ولادتها تقريباً ، أو أنها تعيش بسرعة كبيرة ، تلك الآلات الصغيرة تتلقى من خلال أصابع عامل التلغراف رموز نداء موجهة إلى مراكز أخرى ، لتنقل بدورها الطلب نفسه : «مزيداً من الرجال» ، «مزيداً من الرجال» ، و«مزيداً من الرجال» .

القطارات تمر وهي تغص بالناس . إلى العمل على الساحل . إلى العمل على الساحل . آخرون يأتون راجلين ، إلى العمل على الساحل . آخرون يأتون في شاحنات ، إلى العمل في الساحل . دون أسرهم . ولماذا يحضرونها معهم . ودون أي شيء سوى عباءات البونتشو وبضعة قروش من أجل الطريق . وربما يأتون معهم بالمتشيتي كذلك . ربما ، بقلادة من قديس جبل إسكيبولا ، تكون جديدة في صدور الفتيان المرد وصدور الكبار المتخشبة . ولكن سرعان ما ستتحول تلك التحفة المباركة إلى دودة معلقة بخيط متعرق ، إلى أن تفقد وقارها .

القطار يقذف بهم مشمئزي النفس ونائمي الجسد في أقرب محطة من مزارع الموز . ومن هناك يسلكون الطريق في تشكيل عسكري . لا يُعدم وجود المتفوقين ممن يريدون الظهور بوضوح في المقدمة على الدوام . ولكن آخرين ، القانعين ، يرضون بالمشي حيثما يكون نصيبهم . وآخرين ، أكثرهم كسلاً ، يمضون في المؤخرة ، في الذيل . جميعهم يصلون في الوقت نفسه ، مثلما في الجندية ، والفرق الوحيد هو أنهم في الجندية يصلون إلى الثكنة أشد حزناً ، بينما هم يُسمعون هنا متحمسين وسعداء ، لأن الأجور التي تُدفع تضاعف طموحاتهم . بعد بضعة شهور من العمل سيتمكن أحدهم

من رفع رأسه . ويرجع وهو يملك شيئاً . الحر ينفشهم كإسفنجة . لحوم الجبليين المقددة والباردة تلين في الحر . فيبدؤون بخلع الملابس ، منتزعين التصاقها بالجلود الدبقة ، وكأن شيئاً يحرقهم ، حانقين ، مقررين البقاء لكسب بعض النقود بسرعة وحسب . ولكنهم جميعهم . . جميعهم في نهاية المطاف يتحملون ويبقون . بعضهم يداخله الخدر وآخرون يصابون بالأرق وعدم النوم . بالغثيان . العطش والغثيان دوماً . الناس موجودون . وهناك المزيد والمزيد . ولكنهم يطلبون في كل مرة مزيداً من الناس لمطالبتهم بالزراعة . والأسوأ أنهم بدؤوا كما يقال بالعمل هناك في ريو هوندو . لقد بدأ المساحون العمل . أولئك الرجال ذوو القبعات الفلينية . وراحت عملية قطع الغابة لتحويلها إلى أرض زراعية تتقدم ، وتوغل تنظيف حقول الذرة بالنار والماتشيتي . آلة شق الأخاديد . إعداد الأثلام . الشجيرات تنمو . الشجيرات ، وقد نضجت ، وصارت لها بنيات عند أصلها . حقول الموز المائية . حقول الموز الرائعة . ورؤية أن كل ما يلمع هو ذهب ، لأن الماء والشمس والقمر والنجوم تتوافق كلها لإنتاج أقراط الموز التي تباع حسب وزنها بسعر الذهب .

عمال ، عرفاء ، آمرون ، إداريون ، فالتنظيم البشري يصل حتى الإداريين ، ويمكن القول إنه ابتداء من هناك تبدأ الآلية العمياء ، القاسية ، برجال آخرين ، الآلية الثابتة ، الموقوتة ، الدقيقة التي تحول كل شيء إلى أرقام في سجلاتها .

أحد هؤلاء الرجال الآخرين ، مستر جون بيل ، كان يعي دوره كقطعة في آليه دون قلب ، وكان يوضح ذلك لزوجته ليلاند فوستر التي وصلت في إجازة من داكوتا ، مشيراً لها إلى بيت لوثيرو ، أقدم آمر في المزارع .

أصص أزهار ، شجيرات لبلاب متسلقة ، وببغاء . كان هذا يكفي لمنح البيت طعماً . ولكن الببغاء والأزهار تتحول ، عند نقلها إلى منطقة الرجال الآخرين ، حيث يعيش كبار الموظفين ، إلى أشياء اصطناعية .

وكان بيل يقول :

ـ اصطناعيةُ عيشنا خارج هذا العالم السحري ذي الأزهار والطيور ، تجعلنا نشعر هنا على الدوام بأننا غرباء مفروضون ، مثلما في القسم الداخلي من مدرسة أو في الخدمة العسكرية . لا نعرف ما نفعله بعد ساعات العمل ، وهي مثل ساعات الدروس ، ساعات الوجبات في قاعات الطعام التي نجتمع فيها على الدوام حول الطاولات بالأشخاص أنفسهم ، مثل مجندين . أما هؤلاء الناس بالمقابل يا ليلاند فإنهم يعيشون ـ وكرر ـ ، يعيشون ، وهم أناس طيبون ، أجل إنهم طيبون ، وهم قساة ، أجل قساة . أما نحن فلسنا طيبين ولا أشراراً ، إننا مجرد آلات .

كانت عينا جون بيل الزرقاوين تتراقصان وراء عدستي نظارته النظيفتين والسميكتين ، إنه سعيد بعرضه على زوجته ، على الطبيعة ، دونية الرجال من أمثاله ممن يعملون في شركات قوية .

ـ نحن بشر آليون ـ يقول بيل ـ محرم عليهم عيش الحياة كمغامرة ، لأننا إذا كنا موظفين مأمورين فإن أدنى تغيير في روتين المكتب يُفقدنا السمعة الحسنة والمنصب ، وإذا كنا رؤساء أساسيين ، فإن المال يلغي إمكانية المجازفة ، ودون مجازفة لا وجود لمغامرة حيوية .

كان بيل يفرك يديه منتظراً رؤية التأثير الذي أحدثته كلماته في زوجته . وكانت هي تعارضه . فالشركات الكبرى بالنسبة إلى ليلاند ، هي على الدوام مغامرة حيوات كثيرة .

ـ موافق! موافق! ـ كرر هو ، قافزاً مثل صبي ـ ؛ ولكن رجال المغامرة في هذه الشركة ليسوا هؤلاء الموجودين الآن ، فأولئك ماتوا في المغامرة نفسها ، التهمهم المناخ أو الحياة ، واستبدلوا ، استبدلوا بنا ، ونحن لسنا أخياراً ولا أشراراً ، لا سعداء ولا تعساء ، وإنما مجرد آلات .

الفصل الثالث

كان الهواء خانقاً وكان لا بد من المشي ، ومن استهلاك نعل الحذاء . فالنزهة تساعدهما على تحمل الليل . لا بد من إنهاك النفس ، والتهضيم ، والتكلم في أثناء ذرع امتدادات النجيل بخطوات ضائعة ما بين بيوت مضاءة بتشوش تضفي عليها أجهزة المذياع الملعلعة بأعلى صوتها أجواء علب موسيقية .

صمت الزوجان بيل . كان هو يرتدي قميصاً أبيض ، لا تشوبه شائبة ، وبنطالاً من نسيج خاص يسمح بنفاذ الهواء إلى ساقيه ، وكانت هي تنتعل حذاء أبيض ، وترتدي فستاناً أبيض ، وتسرح شعرها مثل إحدى جدتيها التي تشبهها ، والتي رسم لها لوحة أحد الرسامين الهولنديين المشهورين من القرن الماضي . إنها امرأة جميلة .

وهذه الكلمات بالضبط هي التي تلفظ بها كارل روس ، الموظف القديم في «شركة تروبيكال للموز المغفلة» ، عندما انضم إليهما في النزهة الليلية على سطح مركب راسٍ في عمق ليل مدار الجدي . ذراعاه اللتان يغطيهما زغب ذهبي على ضوء المصابيح ، كانتا تكتسبان نشاطاً وحيوية ، إلى حد أن أكثر حديثة كان إيماءً .

وكانت ليلاند ، المتعثرة بالظلال الساقطة من فروع الأشجار التزينية ، المتراكبة ، المستحمة بالمصابيح الكهربائية ، تؤكد أن عملية الاستثمار الضخمة تلك مازالت مجرد مغامرة .

ضرب كارل روس الغليون براحة يده ، وكان الغليون طويلاً ، مصنوعاً من عظام وحسب ، وتجرأ على القول :

ـ لقد كانت هناك ساعة الملحمة ؛ أما الآن ، ومهما أردتم ، فهذه عملية استثمار سوقية ، عملية استثمار رعناء لموارد طبيعية ، لأراضٍ نفيسة نحن نزدريها!

مستر بيل كان متفقاً مع كارل روس على أنه كانت هناك ساعة مغامرة ، عندما أقاموا المزارع ، عندما توغلت الآلات في الغابة ؛ ولكنه لا يوافق على أن ما يجري هو استغلال أرعن .

ليلاند التي طبعت صوتها بنبرة شخص يُستنفذ لدى التكلم ، كانت منفعلة وجميلة ، وقد وافقت على رأي كارل روس : فالاستغلال كان أمراً أكثر من أرعن ، إنه حماقة ، حماقة تامة . وقد كان شعورها في هذا الشأن أنثوياً بعنف ، حتى أنها كررت الكلمة مرتين قبل أن تؤكد :

ـ إن مؤسسة لديها كل هذا الدعم الاقتصادي ، مؤسسة على أبواب المتروبول ، في أراض عذراء ، وبأيد عاملة شبه مجانية ، كان يمكن لها أن تكون شيئاً آخر .

فهتف كارل روس :

ـ لقد كانت شيئاً آخر في زمن المغامرة ، أليس كذلك أيها العجوز جون! إنها رؤية مختلفة تلك التي يملكها الرجل الذي يتوغل في المجهول

ليستخرج ثروات طبيعية مفيدة ورؤية ذاك الذي يأتي ليتابعه في الروتين السخيف بعدم الذهاب بعيداً ، والقناعة بما تم الحصول عليه .

وقالت ليلاند وهي تسند ذراعها على ذراع زوجها :

ـ والسيئ... السيئ هو أن ضياع الوقت أضاع كل شيء ، لأن المؤسسات ، مثل الأشخاص ، لها زمن ومرحلة لكل سن . فإذا كانت المغامرة هي رمز الشباب ، فإن هذه المؤسسة قد أحرقت شبابها بسرعة لكي تنتقل إلى الشيخوخة ، إلى الهرم...

فصاح العجوز جون :

ـ أوبرا في المدار!

ـ دعني أكمل ؛ كنت أقول إن هذه المؤسسة قد أحرقت شبابها بسرعة لكي تنتقل إلى الشيخوخة وتصبح الآن جهاز رجل مسن يريد أن يضمن السنوات الأخيرة من حياته دون مخاوف ولا مضايقات .

ـ لا أتوصل جيداً إلى فهم فكرتك ـ قال روس ملتفتاً ليرى إذا ما كان أحد يتبعه ؛ وهذا إحساس يستولي عليه بكثرة منذ أن شهد في إحدى محطات السكة الحديد ، منذ سنوات طويلة ، قتل رجل بإطلاق النار عليه من الخلف ؛ إنه يشعر دائماً بالتهديد وراء ظهره ـ ، لا أتوصل جيداً إلى فكرتك ، مع أنني ألح يا ليلاند على أن هذا الاستثمار الموزيّ قد دخل في طريق مسدود لن يخرج منه .

ـ لأن المغامرة الشاملة كانت ستتوفر في خلق التعاون البشري حول هذه الطبيعة ذات الزمرد النباتي ؛ وليس في اكتفائنا بالسيطرة الاصطناعية ، التي وصلنا في أثنائها إلى حرمان أنفسنا من الحياة من أجل الهروب من الموت ، وإلى أن نعيش كجثث محفوظة في الزجاج ، في شباك معدنية .

فصرخ بيل :

ـ وفي الكحول!...

ـ معك حق . فالرجال هنا لا يبدون أحياء إلا عندما يكونون مخمورين .

أحست ليلاند بأنها بعيدة جداً عن وقارها عندما قالت ذلك ، بعيدة جداً مثل أي نجمة من النجوم التي تلمع في قبة السماء الشاحبة وتبدو كأنها تموت من الحر ، تتنفس بصعوبة ، تومض لتأخذ الهواء ، مثلهم . والفرق الوحيد هو أنهم سيذهبون لتناول شراب مرطب وللعب البولينغ .

قذف جون العجوز كرته وسجل لنفسه إصابة كاملة . إنه يريد أن يثأر لهزيمته في الليلة السابقة .

وضعت ليلاند كتفيها البديعين العاريين في اللعب لتقذف كرتها وكانت إصابة كاملة أخرى .

ـ إصابة في العمق! إنكما مغامران! ـ صاح بهما كارل روس الذي انحرفت كرته وطفرت ، وقفزت ، وأعادوها ـ . الكرة الثانية هي الروتين! يجب على العجوز جون أن يخبرنا أين ومتى ، وفي أي ساعة يبدأ الروتين!

ـ هنا ينتهي ، عندما تخرج الكرة من يدك تتوقف عن كونك لاعب بولينغ روتيني وتبدأ مغامرة الكتلة المتماسكة ، المكورة ، المندفعة نحو الهدف ، حيث يولّد اصطدامها فصلاً آخر من مغامرتها الشخصية .

كان لا بد من النوم على الدوام ، وكان ذلك إزعاجاً . فوراء جدران الشِباك المعدنية ، في الظلمة ، يكون البعض مثل أشباح عارية ، إنهم يزفرون ، ويتناوبون تناول الأملاح المهضمة مع المنومات .

*

بينما السادة يعملون في مكتبهم ، غامرت ليلاند في الذهاب على مسؤليتها ـ ومن السهل فقدان الاتجاه في حقول الموز ـ إلى بيت الآمر أديلايدو لوثيرو . ثوب الحرير الخام الذي بلون الليمون الشاحب جعلها تبدو أصغر سناً . ودون أن يكون موديلاً نموذجياً ، كان ثوباً جميلاً له أكمام كيمونو . وكانت مظلة يابانية ترسمُ نصفَ كرةٍ مزهرة فوق خصل شعرها الذهبي الأخضر المجموعة بعمامة لها لون الفستان نفسه .

كان من السهل فقدان الاتجاه في أرض دون نقاط علام ، حيث الأرض المغطاة بقصب ذي أزهار بديعة لا يتغير ، تبدو متماثلة على الدوام تحت شبكة صيد الحشرات الطنانة تلك . ويطل من بعيد فريق من عمال رش المبيدات ، فيبدون أشبه بجنود حرب بين غواصين في عمق البحر . ولكي يتخلصوا قليلاً من أشعة الشمس الحارقة ، فإنهم يغطون أنفسهم بنباتات سميكة حتى يبدون ، حين يقتربون أكثر ، وكأنهم شجيرات متحركة . يصل بعضهم بسرعة الخراطيم بأنابيب رش المبيدات ويرش آخرون السائل على أشجار الزمرد الفخمة ، المحمل بعضها بالقطوف ، أقراط موز يزيد وزنها على مئتي ليبرة . فيبدو حقل الموز تحت مطر السائل المبيد للحشرات وكأنه مغطى بعرق سماوي خفيف .

حثت ليلاند الخطى . كانت تشعر برغبة في مغادرة نفسها ، مغادرة جسدها والاستسلام لأحاسيس الحواس المباشرة . أجل ، البقاء هناك ، تحت أقواس قزح البيضاء التي يشكلها المطر الاصطناعي الذي يبلل الجو على ارتفاع قامة ، حين تندفع مياه الأقنية الهاجعة في سحابة رذاذية من ملايين القطرات الدقيقة الباردة ، على شتول ما تزال خضراء زاهية في أكياسها .

رآها أفراد فرق العمل المسؤولة عن النظافة وهي تمر . كثيرة هي الأخطار التي تهدد الشجيرة التي تُنتج «فاكهة الحكماء» ، وهم يتفحصون الأشجار من أسفلها إلى أعلاها في ورديتي عمل طويلتين كل يوم ، بينما الشمس بين الأوراق ذات الأهداب تشكل أنهاراً من ذهب ، وهو ذهب معفر أيضاً .

ببغاوات ملونة وببغاوات خضراء وطيور أخرى بطيئة الطيران ، غيوم مثل رغوة الريق ، ورجال آخرون يتحركون مثل أخلاد وهم يرشون النفط الخام في برك الماء الراكد ليمنعوا انتشار البعوض .

سارعت دونيا روسيليا دي لوثيرو إلى تقديم كرسي للزائرة . أفضل كرسي في البيت . من أجل سيدة بهذه الأناقة ، بهذه الطزاجة ، رغم أنها تمضي مختنقة بالحر . فما لم تقدم لها هذه العناية لا يمكنها أن تفرح بوجودها في بيتها ، لأنها لا تتكلم الإنكليزية ، ولا ليلاند تعرف كلمة من الاسبانية .

هدأت نظراتهما عندما جلستا . جلست ليلاند قبالة دونيا روسيليا التي أحضرت مقعداً لكي تستقبل الزائرة . وما هو الشيء الذي يمكنهما عمله سوى تبادل النظرات ؟ ضحكتا . لم تعودا تنظران الآن بإمعان مثلما كانتا في البدء ، وإنما ببهجة شخصين يعرف أحدهما الآخر . جربت ليلاند أن تقول لها «جميل» مشيرة إلى أحد أبناء لوثيرو الصغار ، إنه مصاص الحليب ، لأن الابنين الآخرين كانا رجلين صغيرين ، يدبان في تلك الأنحاء . فرفعت الأم صغيرها في نوبة حنان إلى ما فوق رأسها تقريباً ، ثم رفعته أكثر ، وبعد ذلك أنزلته إلى صدرها لكي تشده إليها .

وقدرت ليلاند الحاجز الذي تمثله اللغة بين كائنين بشريين لا

يستطيعان التواصل . كل منهما في عالمه ، في عالم لغته . إنه سر اللغات . اختلاط برج بابل . قاطعت ساقيها البديعتين المنتهيتين بكاحلين ناعمين ، وأخرجت علبة سجائر قدمت واحدة منها إلى مرافقتها الخرساء ، فشكرتها تلك بإيماءة من يدها ، دون أن تأخذ السيجارة .

فوجئت ليلاند بقهقهة شخص يضحك كمهرج . ضحكة مصطنعة ، ولكنها ذات إلحاح مهين . وفوجئت أكثر حين رأت الرجل الذي ما زال يضحك بإفراط يحطُّ بينهما . يا ـ ها ، ها ، ها ، ها!...

كان يرتدي سترة لامعة ، بالية عند نهاية الكمين والياقة بلون نبتة إيبيكاكوانا ؛ وبنطالاً أفتح لوناً ، نصف رمادي ، ذاوياً ، مهترئاً عند الركبتين ، بل يكاد يكون ممزقاً وقصير الساقين . عيناه خضراوان بلون أوراق الموز الغضة ، وله أنف معقوف ، وشفتان رقيقتان ، ولحية حليقة مائلة إلى الزرقة فوق البشرة المائلة إلى الحمرة ، وهو جيد تسريحة الشعر ينضح نظافةَ ماءٍ وصابون . البعض يسمونه كوسي ، ويسميه آخرون ستونر ، وآخرون ليستر ميد .

ولم يكن كوسي أو ستونر أو ليستر ميد يُتيح للزبونات المحتملات أي متسع من الوقت للهرب . فبعد أن يطلق فقاعة ضحكته الصارّة ، يظهر بجسده الحاضر مع بضاعته . « كل ما لابد منه للخياطة . » هذا ما يقوله حين يتوقف عن الضحك ، ليحتفظ بعد ذلك بصمت عميق يكشف فيه عن عينيه الخضراوين ، ويبرزهما حتى تبدوان وكأنهما ستخرجان من محجريهما . « كل ما لابد منه للخياطة » ، يكرر ناظراً بثبات إلى بضاعته ، لكي يطلق بعد ذلك قهقهة أخرى لا نهائية : يا-ها ، ها ، ها ، ها!...

هنأته ليلاند على أسلوبه في البيع الذي يخلط فيه الإعلان عن بضاعته

بالضحكات التي تتقافز من فمه مثل ماء غرغرة يتناوله ساخناً ويبصقه . « كل ما لا بد منه للخياطة . » يا- ها ، ها ، ها ، ها!...

لم يرد كوسي على تهنئة ليلاند مكتفياً بالنظر إليها بصمت ، مخترقاً إياها بحدقتيه الخضراوين المستديرتين ، إرادة متحولة إلى زجاج . وفجأة ، أحنى رأسه قليلاً مظهراً رقبته التي يبدو عليها الشعر الطويل كأنه باروكة ، وبعد أن بقي لحظة على تلك الحال ، رفع رأسه وأطلق قهقهته الجارحة التي تخترق آذان سامعيها مثل سلك شائك : يا-ها ،ها ،ها ،ها!...

سألته ليلاند من يكون . فتحركت تفاحة عنقه وكأنها تفتح الطريق للجواب ، بعد أن ابتلع لعاباً . أجاب بنبرة موزونة ، مثل أستاذ أو راع بروتستانتي أو دبلوماسي . كان يتكلم الإنكليزية كخريجي أكسفورد ولم تستطع ليلاند أن تجد لقية أفضل منه في ذلك الصباح . لم تفهم السيدة لوثيرو كلمة واحدة مما تبادلته ليلاند مع كوسي . وعند الوداع ، أمسك يد زوجة بيل الجميلة وناداها بصوت الرجل الذي وجد كلمة لم يستخدمها منذ زمن طويل : صديقة .

ـ صافر... مثل أفاع تضحك إذا كان للأفاعي أن تضحك!...

كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي سمعتها ليلاند من ذلك الشخص الغريب صاحب « كل ما لا بد منه للخياطة » . صافر... مثل أفاع تضحك إذا كان للأفاعي أن تضحك! كان يستند بيده على أحد الأعمدة . وعند قدميه ، كان يقبع جانباً كيس خيوطه الثمينة الملونة ، والإبر ، والكشتبانات ، والدبابيس ، وسنارات الحياكة... كانت إحدى فردتي حذائه ممزقة . والأخرى مهترئة تماماً تخرج منها قدمه .

حاولت ليلاند أن تبتسم لدونيا روسيليا . لم تستطع . شكلّت فمها

وكأنها ستفعل ذلك ، ولكن ما بدا في الشفتين كان أسى أكثر مما هو ابتسامة . عيناها الذهبيتان بعض الشيء ، كقشرة الخبز ، تأملتا باهتمام ذلك الرجل قبل أن يرحل . لم يكن بائس الروح مثلما يتظاهر . من يكون ؟ انتهت من وداع دونيا روسيليا التي كانت تحمل فرخها الصغير بين ذراعيها ، رافعة المظلة لكي تقول وداعاً . تركها تمر تقريباً وهو يحدثها بعينيه اللتين مثل أملين يدبان على أقدام رموش ، عبر من وراءها ببرودة بياض قرنيتيها . ثم سمعته يبتعد بضحكة المهرج المتصنعة . يا ـ ها ، ها ، ها ، ها!...

ولكي تفعل ليلاند فوستر ، زوجة بيل الجميلة ، شيئاً ، برمت الشمسية ذات الأزهار فوق كتفها وتقدمت باتجاه بيتها . احتفل العجوز جون بيل بقرار زوجته بعدم البقاء حبيسة البيت بينما هو يعمل في المكتب . هل بدأ الجو يعجبها ؟ هل ستبقى وقتاً طويلاً في المنطقة المدارية التي جاءت إليها في إجازة ؟ ما الذي يعكسه وجهها الراضي وهي تقترب عائدة من بيت لوثيرو ، وتغلق المظلة وتطلب قليلاً من ماء الصودا مع الويسكي والثلج ؟ حيت زوجها بقبلة ، ثم مدت يدها إلى كارل روس وإرنيه ووكر ، لاعب البوكر الذي يرخي خصلة شعر على جبهته .

وقبل أن يتكلم هؤلاء ، أخبرتهم ليلاند بلقائها الغريب مع ذلك الرجل الذي يبدو فقير الروح ويتكلم إنكليزية لا تشوبها شائبة . وانفتح النقاش على الفور . ما الذي تفهمه هي ، ما الذي يفهمونه هم ، ما الذي يفهمه الجميع بإنكليزية لا تشوبها شائبة ؟ ما لا تشوبه شائبة في مثل هذه الأحوال له رائحة العظام المتكلسة . فمن يحبون استخدام الكلمات المتحجرة كمستحاثات ، يقال عنهم إنهم يتكلمون لغة لا تشوبها شائبة . ولكن

الإنكليزية التي يتكلمونها هم تبدو لهم أكثر حيوية ، مهما بدت لليلاند مخجلة بفقرها وأشبه بهمجية عمالقة ارتدوا إلى الطفولة ولم يعودوا يتكلمون ، وإنما يتلعثمون ، يتلفظون بأنصاف كلمات ، من أجل كسب الوقت ، أو يدمجون الكلمات معاً ليشكلوا مفردات رطانة تجارية شيطانية .

قليلة هي الأشياء التي كانوا يقومون بها في المساء . أو أنهم لا يفعلون شيئاً في الواقع . ينامون القيلولة ، يستلقون عراة في الأسرة . والموظفون الصامتون الذين تركوا عملاً مؤجلاً لم ينجزوه في المكتب ، يعودون لحظة لإكمال المهمة . ووسط الدخان الأسود الذي تطلقه القاطرات يمارسون أعمال الباحة في محطة باكية الصفصاف ، ليس فيها مبان باستثناء خزانات ماء عالية يمنحها طلاء الألمنيوم لون الفضة ، وتظهر النجوم الأولى وهم في مكتبهم الكبير ، في عملهم الليلي يصلون ويقطعون الاتصالات مع الكائن الأعلى ، ويصل إلى أسماعهم نقيق الضفادع الناعس .

رجع أديلايدو لوثيرو إلى البيت مستفيداً من الاستراحة . فهناك أيام لا يجد متسعاً من الوقت لأي شيء . فلوثيرو ينظم مواقيت الأعمال ، ولكنه لا يتمكن مع ذلك من إنجاز أعمال النهار كلها . يحيط به أبناؤه . يشعر حين يرجع إلى البيت ليلاً بأنه مثل شجرة تحمل ما يكفي من ثمار جوز الهند وهو يلمس عنقود الرؤوس الثلاثة . الأخير هو المحبب . ما أن يجلس أبوه حتى يهرع إليه زاحفاً . إنه يبدو مثل حرذون . وهكذا كانوا ينادونه تحبباً .

ـ انظروا ، ها هوذا الحرذون قادم...

والصغير الذي بلون القرفة ، وكأنه فهم ما قاله أبوه ، يخبط الأرض بكفيه ليصل بسرعة أكبر ، وما إن يصل إلى قدمي أبيه حتى يتشبث بركبتيه محاولاً تسلق ساقيه . وتمتد اليد الأبوية لمساعدته .

ـ اللعنة! أنت ابني ، ولهذا أتحملك! أيها الأدرد عديم الأسنان ، لن تنمو أسنانك أبداً ، ستكون أول رجل بلا أسنان في الخليقة!

وأخبرته زوجته :

ـ كانت هنا اليوم زوجة السيد جون ، ويا ليتها ما أتت ، لأنني لم أستطع استضافتها كما يجب . فأنا لا أفهمها وهي لا تفهمني .

ـ ألم تدعِها للجلوس ؟

ـ دعوتها طبعاً ، مع أنني أفتقر إلى الكلام... لقد بقيت هنا لبعض الوقت ، إلى أن جاء كوسي ؛ وقد تكلمتْ معه بهذه الرطانة التي يتكلمونها ولا يفهمها إلا الشيطان .

أومأ لوثيرو بأنه قد أحيط علماً وصمتا . كان الحرذون الصغير يحاول إدخال أحد أصابعه والشارب في أنف أبيه .

فقالت له :

ـ اضربه على يده .

ـ يا للعنة ، أليس كذلك يا بني! أأضرب أنا ابني! وما الذي كان يريده كوسي ؟

ـ لم أر أين ذهب . هذا الرجل يكون متوارياً عن الأنظار ، وما إن يطلق ضحكته حتى تراه أمامك . وهكذا يختفي أيضاً ، دون أن يعرف أحدنا متى ومن أين ذهب . إنه مجنون ضائع!

ـ هو مجنون وكل ما تشائين ، ولكنه ابن أو ابن بالتبني أو بالعماد لأحد أولئك الذين سيطروا على الغابة بالصراع ضد المستنقعات ، وضد

البعوض ، والحمى ، والعظاية ، والأفعى السامة والشيطان ، واستصلحوا هذه الأراضي البديعة للمزارع . لولاهم لما وُجد شيء من هذا . إنهم الرواد... لقد تذكرتُ الآن... ابتعد يا حرذوني الصغير... لقد نسيت بعض الأوراق ، ويجب أن يراها مستر بيل ، سأذهب إليه ، وسأعود في الحال!

بكى الحرذون الصغير كثيراً حين أُبعد عن أبيه . ووصل لوثيرو إلى بيت مستر بيل عندما كان الزوجان يودعان بعض الأصدقاء .

ـ أدخل يا لوثيرو ـ دعاه مستر بيل إلى الدخول .

واكتشف أديلايدو نفسه يستمع ، دون أن يفهم ، إلى ما يقولونه لدى الوداع . أكثر المتكلمين كانت السيدة ليلاند التي رافقت كارل روس وإرنيه ووكر إلى الباب . وعندما رجعت ليلاند لتصعد درجات السلم الصغيرة المؤدية إلى مخرج البيت ، راودها إحساس بأن زوجها ولوثيرو يتحدثان داخل قفص من الأسلاك ، مثل عصفورين ينقران الهواء ويرتديان ملابس البشر . طوى لوثيرو بعض الأوراق ، وبينما هو يودع بيل ، التقى بها على السلم .

قال لها دون أن يعرف إن كان عليه أن يضع قبعته أم لا :

ـ لقد علمت بأنك التقيت بذلك المخادع المتملق الذي يضحك مثل قرد صاخب ، فاطلبي من مستر بيل أن يخبرك من يكون ، لأنه من المفيد أن ينصحه شخص مثلك . زوجتي تقول إنه أصغى إليك باهتمام عندما كنتِ تكلمينه ، وكان مهتماً بما تقولين . زوجك سيخبرك . أنا ، والجميع هنا نشعر بالأسف لرؤيته على هذه الحال ، شبه حاف ، يرتدي ملابس الآخرين ، ودون قبعة ، مثل مجنون...

لم تفهم ليلاند كلمة واحدة مما قاله لها لوثيرو بهدوء من يعتقد بأنه إذا تكلم ببطء سيكون ما يقوله مفهوماً ؛ ولكن زوجها ترجم لها . وعندما انصرف لوثيرو ، حركت هي فمها محاولة أن تتذكر كيف فعلت لتبتسم لدونيا روسيليا ، ولم تتمكن إلا من إظهار إيماءة آسية .

تلت ذلك أيام من المطر ، أيام وليال من المطر أجبرتها على البقاء في البيت . كان زوجها يذهب ويعود مثل شبح بالمعطف المطري ذي الطاقية ، والمظلة والجزمة الضخمة . غاب الأصدقاء . كل واحد في بيته . سجائر ، وكتب ، وويسكي . كانوا يتبادلون الحديث بالهاتف ، وعبر الهاتف جاء كوسي عند غروب أحد الأيام ، سقط عبر الهاتف ، من سماعة الهاتف ، ضاحكاً ضحكة الزيز المرعبة ، محركاً عينيه الخضراوين ، مثل تمثال يأخذ بالتنقل فجأة أمام الأنظار من مكان إلى آخر .

حين رأته ليلاند مبللاً ، يقطر ماء ويضحك على الرغم من ذلك بكل قوته ، جاءته بمنشفة وخفين وبعض ملابس زوجها لكي يبدل ما عليه : غيّر ملابسه ، أخذ سيجارة من علبة لكٍّ تأملها مطولاً ، ودعك عود الثقاب ليشعلها ، كما لو أنه يريد إحراق البيت . وفكرت ليلاند : ما الذي سأفعله الآن إذا لم يذهب من هنا ، حين لم تكن راغبة في أن يذهب .

تيري دازين ، الشبابية وبطلة التنس على العشب المعتدة بنفسها ، المتكبرة التي تشبه إلى حد فظيع آلة حاسبة ، نهداها بحجم كرتي تنس ، تستقبل في بيتها كموظفة أساسية ، باعتبارها سكرتيرة مستر ديماس ، تستقبل أمازونيات جميلات في أصباح أيام الأحد ، لا تحول مجاورتها لهن ولا تعاملها اليومي معهن من اللقاء بهن يوم الأحد وكأنهن لم يلتقين طوال الأسبوع .

تترجل نيللي ألكانتارا عن أحد الخيول بعد انتهاء جولة الفروسية ، تساعدها تيري دازين على النزول إلى الأرض . كل يوم أحد يقضين فترة المساء معاً . غداء بسيط ، ودي ، تتلوه بعد ذلك دكتاتورية بطلة التنس التي تطالب صديقاتها بإعلانات حب .

*

تيري دازين ، عقيدة المكاتب ، لها لون الرمل الجاف بشعرها الأسود القصير ، المسرح بفرق يقسمه إلى نصفين ، مما يضفي عليها مسحة رجولية . واتزانها المهذب يخفي غرائزها كقاطعة طريق في عمق الصحراء أكثر من أي امرأة أخرى . بالقرب منها ، يرتاب المرء بالخطر الذي هو فيه ، ولكن في لحظة تلقي ضربة المخلب ، لا يعود له مهرب . الوحول المتحركة لرقة جنسية منفرة تحل عندئذ محل طريقتها في الحياة قليلة الوضوح ، إلى أن تجعلها تبكي ، قطرة قطرة ، وكأنها تصفى البكاء . وكانت تقول لنفسها بصوتها الأجش : «آه أيتها العذراء المحزونة ، لقد أكلتِ المرأة التي كانت فيك ولم يبق لك سوى الرجل الذي لا يمكنه أن يرتوي بكيانك ، فيبحث في أخريات عن اللحم المشتهى! »

حب تيري دازين لمفضلاتها يولد من حاجتها هذه إلى أن تكون أنثى ولهذا فإنها لا تحتمل رؤية الرجال ، خارج المكتب ، وتحيط نفسها بصديقات يُعجبن بمعاملتها اللطفية ، وتغنجها المدلل للاحتفاء بهن . إنها مداحة ، معطاءة ، وبعيداً عن شخصيتها الرجولية ، فإنها امرأة ـ رجل رائعة . تبدأ في الساعة السادسة صباحاً ممارسة التمارين الرياضية ، وتتناول فطوراً من الفواكه ، وتعمل مثل آلة طوال فترة الصباح وشطراً من المساء ، بعد غداء أساسه الخضار ، ولدى عودتها إلى بيتها وإحساسها بالاسترخاء ،

تستلقي على أريكة ، مثل بهيمة ، بانتظار مجيء صديقاتها ، ونيللي ألكانتارا هي الأثيرة لديها بينهن .

تحتضن تيري دازين قامة صديقتها ، فتحيط بذرعها ظهر الصديقة ، تحيطه بذراعها الأيمن ، وتقبلها من فمها ، بينما أصابع يدها اليسرى تنغرس في طيات الردفين ما بين البشرة والسروال الداخلي .

وتوقظ العاشقتين السعيدتين ضجة مقرعة ناقوس آتية من القرية التي تتشكل ، يحملها الهواء من أعلى برج الكنيسة غير مكتملة البناء ، حيث يدخل الناس للصلاة ، مع أنه كان هناك الفضوليون الذين يدخلون لرؤية ما يحدث هناك فقط . ولم يكن يحدث أي شيء على الإطلاق . ولكن لا بد أن يحدث شيء ومن الضروري أن يكونوا موجودين عند حدوثه . لا بد أن يحدث شيء هناك حيث الرب موجود .

وكيف لا يكون موجوداً أديلايدو لوثيرو ، وزوجته ، وابناه الكبيران ، لينو وخوان ، وكذلك ابنه الحرذون الصغير ، ما دام الجميع يمضون في الساحة يرون ويسمعون ويعرضون خرقهم الجديدة . البعض على الخيول عند النواصي . إنهم دون شك ضباط خارج أوقات الخدمة . وآخرون يحيطون بدولاب الحظ . ينفقون نقودهم . ولأي شيء آخر تنفع النقود ، إن لم يكن إنفاقها . صمويل ، الشاملكيتي ، مع زوجته المستقبلية يلقي نظرات مختلسة على عطورات واجهة محل الصيني . وزنجي ، مع زنجيين آخرين ، ينتظر بدء حفلة الرقص العامة .

دخل لوثيرو وزوجته وذريتهما إلى محل حلاقة يسمى «الاعتدالان» . بدا الاستياء على وجه الحلاق ، لأنه ظن بأنهم سيفرضون عليه عملاً . ولكنه حين علم أنها مجرد زيارة ، عانق أبناء لوثيرو ورفع أصغرهم بين ذراعيه . تم

قدم لهم بعد ذلك الكراسي . ولم تشأ دونيا روسيليا الجلوس حيث يجلس الرجال وحدهم . وفضلت الجلوس على مقعد صغير . لقد دخل لوثيرو إلى «الاعتدالان» لينجز صفقة أرض كان يرغب منذ زمن في شرائها .

ـ أليس صحيحاً يا روسيليا أنه كان لا بد من حدوث شيء . لهذا السبب يكون الرب موجوداً في أيام الأحد عصراً . الآن أصبحنا نملك الأرض للأولاد . لينو وخوان لوثيرو سيكونان مزارعين ملاكين .

ـ أنت تعرف ـ قالت دونيا روسيليا حين رجعوا إلى البيت ، بينما هي تقدم إلى الأب والأبناء إلى جانب أطباق الفاصولياء المكتملة ببركان من الفلفل ، قهوة قاتمة كثيرة التفل ، ساخنة ومحلاة بقالب سكر ـ ، أنت تعرف ما الذي فكرت به طوال الطريق : سيكون هؤلاء الأبناء بالأرض التي اشتريتها أفضل حالاً منا نحن اللذين لم نكن شيئاً يذكر لأننا لم نملك شيئاً يمكننا القول إنه خاص بنا!

ـ أجل ، فما لم يملك المرء ما هو له ؛ وإن بقي يعمل في ممتلكات الآخرين فلن يصير أبداً أكثر من «ثوبيه»[1] أو باشق . وانظري إلي أنا ، فبعد سنوات من العمل مازلت في الحالة نفسها وربما أسوأ لأن الأمور لم تعد مثلما كانت في السابق ، حين كان الجميع يعملون وأفواههم مطبقة ، سعداء بكسب ما يدفعونه لهم...

ـ هذا صحيح...

ـ لقد استيقظوا الآن ، ونحن من يدفع الثمن ، فمن هو مثلي يجب أن يقف ويطلب منهم أن يصبروا ، ويقول لهم إن كل شيء سيتحسن بالحسنى...

---

(١) ثوبيه (zope) : طائر من فصيلة الجوارح ، يقتات على جثث الحيوانات الميتة .

ـ أجل ، لأنهم بدؤوا يهددون ؛ ربما أخبرك لينو .

رفع لينو عينيه عن طبق الفاصولياء ، وابتلع اللقمة التي في فمه وأوضح بصوت متعثر ، لأنه مازال يأكل :

ـ ولكن ذلك حدث يا أمي لسبب آخر ، وليس من أجل الأجور...

فقال الأب :

ـ آه ، أجل... بسبب تماديهم مع النساء ؛ ألا ترى أنه لم يعد بإمكان امرأة أن تمشي وحدها دون أن يتعقبوها ليروا أين يمكنهم النيل منها!

ـ والأسوأ أن من يملكون السلطة والمسؤولية يستدعون النساء بالغمز إلى بيوتهم وهناك يسيئون إليهن ـ هتف بذلك ابن لوثيرو الآخر ، خوان ، وبدا كما لو أن تلك التصرفات المشينة تمسه شخصياً .

ـ ولماذا تتألم من ذلك أنت يا بني! أخبرني ، فلأجل هذا أنا أبوك!

ـ ليست القضية في أن الأمر يؤلمني أنا ، إنه يؤلمنا جميعاً!

الفصل الرابع

ـ إنه سائل سريع التبخر تماما... ـ قال مستر بيل ، وهو يدير ظهره إلى خزانة في الحائط ، حين كان يأخذ من زجاجة صغيرة قليلاً من البنزين لولاعته . ثم التفت بعد ذلك وأظهر وجهه الباسم لصديقه كارل روس الذي كان مغموماً بعمق .

خسارة صديق تربطه به صداقة منذ سنوات طويلة ، مثل جون بيل ، كان أمراً مؤلماً مثل بتر ذراع ، أو ساق ، أو جزء من جسد المرء . خرج مضطرباً . فأقل ما يمكنه أن يطلبه من العجوز جون هو ألا يطالبه بأن يوصله إلى المحطة بسيارته الصغيرة . بحث عن ذرائع . المحرك يسخن كثيراً حتى ليبدو مضغوطاً بالبخار ؛ وحين يخرج بخار المار من مضخة الريديتير ، يغطي بالغبش الزجاج الأمامي الذي لا توجد طريقة لتنظيفه لأنه بلا مسّاحة . وإذا كان لا يستطيع رؤية الطريق بسهولة لكي يتمكن من تبادل الحديث معه ، فلماذا يذهب إلى المحطة ؟

وحيال مبررات كارل روس ، استخدم جون بيل لآخر مرة سيارة المكتب ، يقودها الزنجي سوليداد الذي كان أكثر مجاملة في تعامله لمعرفته

بأن رب العمل ذاهب ولن يعود مطلقاً ، فساعده في ترتيب أمتعته ، وقبعاته ، ومعاطفه وأشياءه العتيقة .

الطلاق ترك لجون بيل حرية الزواج مرة أخرى . وكانت هذه هي السيئة الوحيدة التي يراها في الطلاق : خطر زواج ثانٍ . جاءت تيري دازين برفقة نيللي ألكانتارا لوداعه . وقد أزعجته نيللي برسالة طلبت منه أن يوصلها إلى صديقة في شيكاغو . ولدى مرور السيارة ببيت لوثيرو ، لم تستطع دونيا روسيليا إخفاء حزنها . كانت دموع كريولية عجوز هي التي تطفر من عينيها كلما قالت له : لترافقك السلامة يا مستر بيل . وكان إرنيه ووكر ، لاعب البوكر ، ينتظره في المحطة بخصلة شعره المتهدلة على جبهته وسيجارته الفيرجينية الدائمة بين شفتيه . سيكون هناك شخص على الأقل يشد على يده مصافحاً لدى الوداع .

لم ير جون بيل الحقول بمثل تلك الخضرة ، ولا الزنجي سوليداد بمثل ذلك السواد ، ولا الصباح البارد بمثل ذلك الوسن الضبابي اللبني اللون ، ولا قطوف الموز بمثل شدة تلك القطوف ، ولا بمثل تلك العذوبة الزرقاء سمّ المبيد الحشري الذي تطلقه الرشاشات إلى أعلى ، ولا أكثر انزلاقاً نحو العدم تلك الشجيرات الموزية المريضة بداء بنما .

وفي القطار ، شغل المكان الفارغ الوحيد ، بجانب سيدة بدينة ، كان لحمها وكأن له إرادته المستقلة عن صاحبته ، قد بدأ يملأ الحيز الضيق الذي كان يحاول هو دون جدوى الاحتفاظ به لعظامه ، ما بين السيدة الكروية وحافة المقعد ، حتى وصل به الأمر إلى الإحساس بأنه سمين . إذ يمكن لأي واحد أن يبدو سميناً بعظامه تلك مع لحم المرأة الملتصق به .

الظهيرة الحارقة . الضيق . عدم الراحة . الناس الكثيرون في عربة

واحدة فقط . شمر كمي قميصه حتى المرفقين . السيدة البدينة كانت قد ابتسمت له مرتين ابتسامة عذبة ، ابتسامة تلميذة بدينة ، بينما هي تجرب بأصابعها المزينة بالخواتم عزف مقطوعات بيانو على زجاج النافذة المغلقة لتفادي غبار الصخور التي تهتز وتنهار لدى مرور قافلة العربات ، ودخان القاطرة الذي تطير معه شرارات وفتات فحم . لم يكن الحر مواتياً للكلام ، ولكنهما تبادلا الحديث عندما ابتردا ، حين بدأ القطار بتسلق سلسلة الجبال . فالقدر في نهاية المطاف هو الذي جمعهما في تلك الرحلة ، جسداً إلى جسد ، في حيز ضيق . وأي شيء آخر هو اتصال رجل وامرأة ؟ فتحا زجاجتي بيرة طلبهما مستر بيل ، وأخرجت هي من لفافة معها قطع خبز محشوة بالجامبون والجبن ، وبلحم الفروج والبيض المسلوق . لقد صارا صديقين ، وأمكن لمستر بيل أن يجلس بصورة أفضل ، محاولاً ألا يتحمل أحد عظامه لحماً أكثر من طاقته ، وأن يحصل عظم آخر محتاج على كمية من أنسجة السيدة الدهنية الوثيرة على سبيل الاقتراض خلال بقية الرحلة .

قالت المرأة :

ـ ستون مرة أقوم بهذه الرحلة كل سنة ، وقد مللت من المطالبة بأن يضعوا مزيداً من العربات عندما يسافر أناس من المكسيك ، لأن القطار يزدحم عندئذ وتأتي إحدانا دون أن تعرف بأي حالة تكون . . لا بد أن حضرتك من رؤوس الشركة ، فتدخل ؛ إن ذلك مفيد للجميع ، وهو لمصلحتكم أنتم بالذات ، لأنكم تفقدون سمعتكم ، وتجعلون الناس لا يحبونكم...

لم يرد مستر بيل .

ـ أصبتك بالصمم مما قلته ، ولكنني سأقول لك إننا نحبكم ، وإننا نستلطفكم لأنكم تشربون كثيراً .

ـ أشكرك على الجزء الذي يعنيني...

ـ لا ، فنحن لا نفرق ؛ بل نحبكم معاً بالجملة أنتم الذين جئتم لتحدي هذه المناخات ، من أجل أن يعيش آخرون من مواطنيكم هناك على هواهم ؛ صحيح أن من يأمرون هنا ، لا يكونون هناك ما هم عليه بيننا ؛ ولكن الأمور تسير هكذا...

الخضرة تتبدل في الهضبة ، أشجار ذات أوراق معدنية وكأنه قد ألقي على سطوحها طلاء أخضر زيتي . إحساس عميق بالحرية والبرودة المتولدة من الهواء الخفيف الذي ينتشر ما بين الأوراق . كانت الأشجار أجساماً قابلة للاستنشاق ، تدخل من الأنف ، وتمر في الرئتين وتعود للخروج لتستقر حيث كانت . أما على الساحل بالمقابل ، فكل شجرة هي كتلة متماسكة ، لحاف أخضر كثيف فوق الناس مثل الألحفة التي يتغطى بها الغجر حين ينامون .

لبس المسافرون سترات وكنزات ومعاطف .

ـ من الأفضل عدم الخروج مكشوفاً هكذا ، يجب التفكير في أننا آتون من الساحل ـ قالت رفيقة مستر بيل ، وأخبرته قبل الوداع بأن اسمها كلارا ، ثم أضافت : ـ ولكنهم بسبب لون البشرة يدعونني كلارينيرا . اسأل في فندق بوينا بيستا في آيوتلا عن كلارينيرا وسيعاملونك كما يجب...

وقال مسافر كان يتناوم في المقعد الذي خلفهم ، وهو نصف مستيقظ ، ودون أن يرفع رأسه :

ـ سيعطونك خبزهم...

فالتفتت هي لتقول :

ـ سمج ، حشري ، من قذف لك عظمة!

ـ من الذي يتكلم عن القذف... ـ غمغم المتناوم في المقعد الخلفي ، وهو يسند رأسه على المسند ، والقبعة تغطي وجهه ، بينما هو يتنفس بصعوبة .

لم توله كلارينيرا مزيداً من الاهتمام . وشمر بيل كمي قميصه عن ذراعيه النحيلتين المغطاتين بالشعر وارتدى سترته بعد أن تأكد من أنه قد حمل كل أمتعته اليدوية . ونفض كتفيه بحركة آلية : إنها القشرة دوماً .

لم يشأ البحث عن كرم ضيافة أصدقائه آل ثورتون . وفي الفندق ، احتل مقعداً قبالة طاولة مستديرة يغطيها شرشف يبدو من الآثار المتبقية عليه أنه قد استخدم يوماً لكوي ملابس رجالية ، وبدأ بفتح الرسائل التي أوصوه بتسليمها إلى أشخاص عديدين . لم يكن يفعل مثل ذلك أبداً من قبل ؛ ولكنه في إحدى المرات خطر له بإلحاح أن يفتح إحدى الرسائل ، ووجدها تبدأ بالقول : «الأحمق حامل هذه الرسالة...» ومنذ ذلك الحين ، كلما أوصي بحمل رسالة ، يفتحها ، فإذا لم يهمه ما تقوله يقرؤها بخفة بالمرور عليها بعينيه وحسب ، أما إذا أثارت اهتمامه فإنه يقرؤها بتمعن .

وضع نظارته وبدأ بقراءة الرسالة التي كتبتها مس هافيشام لأمها . ومس هافيشام هي امرأة تقارب الخمسين من عمرها ، تسعى جاهدة لإرضاء الجميع بأساليبها المهذبة كشخصية جيدة التربية ، ولكنها لا تتوصل إلى ذلك بسبب البروز الواضح لأسلوب تعاملها المتكبر ، والتعليمي ، ولأنها شخصية لا تتوانى لحظة واحدة عن إعطاء الدروس ، ولا تتسامح فيما يتعلق بالانضباط بالمواعيد وإنجاز الواجبات . لقد كانت تزم فمها ذا الشعر المنتوف ، وتجعد جبهتها وكل شيء فيها بعصبية وهي تمشي في أثناء تحدثها عن

الاستقامة ، عن العزيمة ، عن الدقة في المواعيد وغيرها من الفضائل التي لا يمكن المس بها في رأيها .

لقد كتبتْ إلى أمها رسالة حول طلاق بيل وليلاند فوستر تقول فيها :

« يمكنك أن تتوجهي من خلال الخريطة التي لديك... تلك الخريطة التي أرسلتها إليك منذ سنتين ومازالت تمثل سطحياً الأشياء الموجودة هنا . فالرابية التي ترينها إلى الشمال ، حيث تكثر الطيور ذات الريش البديع ، هي التي أثرت في رأيي على قرار ليلاند فوستر . فالروابي التي يرزح المعدن فيها تحت طبقات نباتية عميقة جداً تهاجم أنسجة الروح برطوبة تتحول في الكائن إلى إحساس بكآبة غامضة ، وعدم رضا بما يملكه . لقد ضحكت السيدة بيل عندما نصحتها بألا تغامر كثيراً في نزهاتها على الحصان في هذه الأماكن . شخصيتها تبدو محكمة وفق تقاليدنا الصارمة في عدم الثقة . وما سوى ذلك تعرفينه من رسائلي السابقة . إنها الآن مع شخص مغامر أفاق بينما الزوج المسكين...

لم يستطع مستر بيل عمل شيء سوى هرش رأسه وهو يقرأ عبارة الزوج المسكين تلك ، وواصل القراءة...

« ... الزوج المسكين هو من أولئك الذين يظنون أننا نحن النساء مختلفات عن الرجال لمجرد كوننا نساء ، كان يعيش متحمساً ومالئاً الجميع بالحماس بالحديث عما يسميه ملحمة مؤسسي هذه المؤسسة العملاقة ؛ عمن طرقوا الحديد ، عمن انتزعوا هذه الأراضي الخصبة من الغابة ، وعندما وجدت ليلاند نفسها أمام أحد أولئك المغامرين ، لم تر كيف هو ، بل تبنته ، لأن هذا هو ما نفعله نحن النساء اللواتي بلغنا سناً معينة ، نتبنى الرجال الذين نحبهم... الشباب الضائع يا أماه يعني الغرق في عدمية الحياة

والأيام والزمن الذي كان متاحاً لنا فيه أن نحب دون تبنٍ . . »

ضحك بيل بمزاج رائق . فالرسالة تترجم بطريقة تقريبية شيئاً مما حدث . والشيء الوحيد الجديد بالنسبة إليه هو الرابية الواقعة شمالاً ، حيث تكثر الطيور ذات الريش البديع ومعادن ترزح تحت طبقات نباتية عميقة جداً...

ترك على المنضدة رسالة مس هافيشام التي لا يمكن وصفها وفتح مغلف رسالة نيللي ألكانتارا ، صديقة تيري دازين . هاتان السيدتان كانتا رائعتين في نظر بيل ، لأنهما تشكلان عالماً منفصلاً ، مريحاً للجنس المذكر ، لأن الرجل بالنسبة إليهما هو كائن بلا أهمية من الوجهة التي تكون فيها للرجل أهمية لدى النساء . وعندما كان يتحدث معهما ، يراود العجوز جون إحساس لطيف بأنه لا يدافع في شيء عن جنسه ، وهو ما يدافع عنه الرجل دائماً بحضور المرأة . ويشعر العجوز جون بأنه يستطيع الاستسلام مثل من يسبح على ظهره دون أن يخشى أي نوع من الخطر .

كانت رسالة نيلي ألكانتارا تقول :

«ليلاند فوستر قطعت علاقتها بزوجها ، وهو إنسان رائع لشدة ما هو مسالم حسب رأي تيري دازين ، التي تبدي الآن إعجابها بي ؛ لا بد للعالم من أن يعود إلى ما كان عليه من قبل ، حين كان الحب يمارس بين أشخاص من الجنس نفسه ، وهي المعادلة الوحيدة للسعادة . ولكن السيئ في الأمر أن ليلاند قد ذهبت وراء رجل آخر ، وسرعان ما سيصبح زوجاً لها ، وهي تتكلم عن حماقات كبيرة جداً من نوع أنسنة العالم ، وفرض العدالة الاجتماعية... وهذا كلام لا يطاق بالنسبة إليّ... فأنا لا أرغب في رؤيتها إلا وهي تعزف على البيانو : فموزارت يبدو لي رائعاً بأصابعها ، وتيري دازين

تشعر بالغيرة ، ليس من موزارت ، وإنما من أصابع ليلاند . وبمناسبة ولعي بالموسيقى ، جرت واقعة مسلية . ففي أثناء عودتنا من جولة على الخيول توقفنا في بيت أحد الوطنيين ، وهو شخص معروف وطيب يدعى لوثيرو . وكان موضوع الحديث هو المِعزَف القيثاري ، وهي آلة موسيقية معبودة بالنسبة إلي . وفي تلك المجادلة الصاخبة التي جرت هناك ، كان الوطنيون حاضرين بعيون مفتوحة دون أن يفهموا شيئاً ، وقد اتهمني من كانوا معي بالولع بالموسيقى ، بأني شديدة الولع بالموسيقى ، فائقة شدة الولع بالموسيقى... وما قولك في أننا عندما أنهينا القيلولة في المساء ، كان صاحب ذلك البيت يقف أمام الباب حاملاً شبكة مملوءة بالثمار ، بعدد كبير من ثمار الشمام اللذيذ... وأكثر ما هو مضحك ، أنهم ظنوا أني أتوحم أكل الشمام لأني حبلى[1] ؛ ويسود بين هؤلاء الناس الاعتقاد بأن الطفل أو الطفلة يولد أبله حين لا تشبع الأم وحامها . أأنا حبلى ؟... حبلى من تيري دازين ، ربما يحدث ذلك عندما يرجع الآلهة إلى الأرض» .

الرسائل الأخرى التي قرأها ، وهي خمس رسائل في مجموعها ، كانت من زملائه في المكتب ، أودعوها أشد ما في الأرض من قماءة . أحدهم ، وهو مستر كوبلير الممل ، يأخذ عليه ميله إلى التخيلات ، وقلة تضامنه مع الشركة ويستنتج من ذلك أن زوجته ليلاند هي جزء من الشركة ، بحكم كونها أمريكية شمالية ، ولكن ما إن انفتحت ثغرة في إيمانها بأساليب الشركة حتى تركتها بتعسف لتختار دروباً أخرى ، والمرأة التي تختار دروباً ، يمكن تصور ما تختار...

جعد مستر بيل الرسالة وأطلق شتيمة . فمكر مستر كوبلير الممل

(١) سوء التفاهم نتج لدى الوطنيين من كثرة ما سمعوا كلمة melomania أي الولع بالموسيقى ، ففهموها «توحم الشمام» بسبب تشابه اللفظين .

يصل إلى حد من النذالة يجعلة يكتب الجملة الأخيرة بالاسبانية ، ويبدو الحرفان الأولان من كلمة «تختار» الأخيرة مطموسين .

ما الذي يمكن انتظاره في نهاية المطاف من ذلك المؤمن المحترم الذي لا يرفع مؤخرته عن كرسي مكتبه إلا لكي يفسو ، والذي لا يرفع أنفه مطلقاً عن دفاتر الحسابات ، ولديه امرأة مصابة بالهيستيريا...

أعاد بيل إشعال السيجارة التي انطفأت في فمه وهي معلقة بشفته السفلى بينما كان يقرأ الرسائل . لا يمكنه أن يحتج على سلوك زملائه هذا . فقد كتب هو أيضاً إلى أصدقائه في نيويورك ما جرى عندما أراد المداوي أو الساحر أو التشاما المدعو ريتو بيراخ أن يشفي السيدة كوبلير من الهيستيريا .

لقد أمر برفعها على شجرة جوز هند ، وكانت مفتوحة الساقين لدى رفعها على النخلة ، فبدت كما لو أنها لا تُرفع بالأربطة التي تحملها من ظهرها ، وإنما تصعد بنفسها ، بمساعدة يديها وساقيها ، وتحتك وتدعك نفسها بشدة بالشجرة . لم يكن ذلك كذباً . فقد أمضت السيدة الطيبة سنة كاملة بعدئذ دون أن تصاب بالنوبات .

وعندما تجددت النوبات واستدعوا ريتو بيراخ ، تشمم هذا التشاما العظيم السيدة كوبلير وقال : «إنها تريد مضاجعة الشجرة مرة أخرى .»

يا للوجه الذي أبداه مستر كوبلير الممل يومذاك...

مزق الرسائل إلى نتفٍ نتفٍ . لن يحتفظ بها ولن يوصلها . ففي كل واحدة منها شيء من الحقيقة . حتى في الرسالتين الأخريين ، حيث يدعونه «المقرن العظيم» . و«عطيل بنظارة راع بروتستانتي» ، دون نسيان ذاك

الذي يقول إن الشيء الوحيد الذي فعلته زوجته هو استبدال مجنون بآخر . ما أقلقه عندما تناول في يده كومة القصاصات الورقية ليلقي بها في المرحاض ويتبعها بدفقة ماء ، مثلما يحدث عندما يتغوط أحدهم ، هو أنه قد مزق رسالة «الرابية الواقعة شمالاً ، حيث تكثر الطيور ذات الريش البديع والمعادن الرازحة تحت طبقات نباتية عميقة جداً...» .

علة طلاق شاعرية ومجهولة ، هذا ما فكر فيه بينما كان ماء المرحاض يجرف الوريقات المفتتة . رجع إلى الحجرة ، خلع ملابسه بصورة آلية واستلقى . هناك في حقيبته زجاجة ويسكي . فأمثاله ممن يحترمون أنفسهم ، وممن أمضوا سنوات طويلة على الساحل ، لا ينامون قبل أن يفرغوا ربع زجاجة ويسكي على الأقل ما بين صدرهم وظهرهم . تذوق الخمر . وكان عليه أن يشربه في كأس عادية تعبق برائحة معجون أسنان .

يوم جديد ، حياة جديدة . أنجز في ساعات الصباح بعض الأمور المعلقة في مكاتب الادارة . وبسبب السجاجيد بين الجدران المزينة بالخشب وبنوافذ ذات زخارف حديدية على الطريقة الاسبانية الكاليفورنية ، سجاجيد ذات لون خبازي واحد ، كان يُغرق فيها حذاءة راوده إحساس من سيقابل المطران . وعندما دخل ، كان من نهض واقفاً لاستقباله مجرد رجل أطول بكثير من مستر نيل ، فحياه بصوت قوي في الوقت الذي وجه إليه عينيه المعلقتين في حافة جبهته الضيقة ، تنطلق منها إلى أعلى وإلى الجانبين خصلة شعر لها شكل ذيل الديك . وكان ذلك الرجل يبدو من ظهره أكثر نحولاً من رؤيته مواجهة . وكانت هناك موظفة شائبة الشعر تكتب على آلة صامتة .

ما بين جدران مزينة بخرائط وصور بانورامية لمزارع ومباني الشركة ،

واصل المدير الطويل جداً الكلام بصوته القوي ، دون أن يرفع بصره عن بيل ، مقطباً الجبهة الضيقة التي تبقيها له ناصية الشعر .

وبينما كان جرس الهاتف الأصم يرن ، تناول عن المكتب حزمة أوراق ومدها إلى الزائر . ثم دار نصف دورة بعد ذلك ، دون أن يحرك جسده تقريباً من خصره إلى أسفل ، وكأنه يشعر بالقرف ، وتناول الهاتف بيد ذات أصابع طويلة دقيقة ، لكي يرد .

مستر بيل الذي كان يعرف حزمة الأوراق تلك جيداً ، لم يكلف نفسه عناء النظر إليها . حملها في يده ، وعندما وضع المدير سماعة الهاتف ، قال بتمهل :

ـ لم تعد مواصلة الذهاب قدماً تستحق العناء ؛ ورأيي هو التالي : بدلاً من إقامة مزارع جديدة ، يمكننا أن نشتري الثمار من منتجين خاصين ، وبهذا نكسب كثيراً في المستقبل . فظروف العمل في العالم تتبدل من يوم لآخر ، وليس لدينا للأسف مادة سامة تقضي على الاشتراكية مثلما يقضي السائل المبيد على حشرة أشجار الموز .

ـ لا بأس . يجري الآن تبييض التقرير لرفعه إلى أناسٍ هناك المشهورين .

المصطلح الغامض الذي يشير فيه المدير إلى الادرة المركزية لشركة تروبيكال للموز ، في شيكاغو ، كان مصدر إزعاج دائم للعجوز جون ، ولكنه ثار في هذه المرة .

ـ أناس هناك المشهورون هؤلاء لن يتأخروا طويلاً في معرفة ما يجري هنا ، وعندئذ لن تنفع التهديدات بأننا سنذهب مع الموسيقى إلى مكان آخر ، ولن تنفع البوارج ولن ينفع الدبلوماسيون!

ـ ربما كان الجميع يفكرون هكذا ، ولكن هناك على الدوام ما يمكن عمله ، فأناس هناك هؤلاء يعملون سلفاً ما يجب عمله وسيفعلون ما يلزم : سيقرؤون تقريريك يا سيد بيل .

ودع العجوز جون المدير الذي بقي ذراعاه معلقين في كميه دون حراك أمام طاولته . لا يمكن إضاعة الوقت في التحدث في الفراغ مع أشخاص خارج الواقع الآخذ بالتشكل ، وهو واقع سيحل محل واقع اليوم .

التجأ إلى النادي الأمريكي . الناس المعتادون . التحية الودودة من الساقي والجراسين ، ابتداء من البواب الزنجي وحتى تشيلو الذي يتولى العناية بالمراحيض الداخلية . ولم يكن بحاجة لأن يطلب كأسه . فبينما كان يضع قبعته ومحفظته على منضدة كونتوار البار الفسيحة التي تغطي قسماً واسعاً ، قدموا له كأس الويسكي المعهود والماء المعدني في زجاجة بدت وكأنها تبتسم له في غليانه .

قال له الساقي خاثينتو مونتيس :

ـ هناك قليل من الحر يا مستر بيل...

وراح الأصدقاء اليوميون يجتمعون لتناول كأسهم ويحتفلون بمجيء العجوز جون بعدة جولات من الشراب . وكان كل واحد منهم يقدر منذ متى لم يره ؛ بعضهم كان قد ذهب إلى المزارع وقابله هناك ، ومن هذه الحسابات كانوا يستخلصون الذرائع لتناول مزيد من الشراب . وعند العصر ، لم يبق في القاعة الكبيرة سوى خاثينتو مونتيس ومستر بيل وجرسون أو اثنين ينتظران ذهاب الزبون الأخير ليتوقفا عن الخدمة .

ـ عملي الآن هو هذا يا خاثينتو... ـ قال ذلك مشيراً للساقي إلى

الكأس ، لكي يعتذر عن وجوده هناك بينما الجميع يعملون ؛ إنها هواجس بائسة لرجل يشعر حين لا يكون في المكتب بتأنيب الضمير ، وكأنه يسرق شيئاً من أحدهم .

ولكي يقول خاثينتو مونتيس شيئاً ، أخبره بأنهم قد قتلوا إحدى معارفه في المدرسة الإكليريكية . لم يهتم العجوز جون بالأمر ؛ كان يفرك كأس الويسكي بما انسكب من سائلة الثمين على الكونتوار .

ـ يا لها من مسكينة! لقد جاءت إلى هنا لكي يجهزوا عليها دون رحمة!

أضاءوا أنوار النادي الأميركي . وكان بيل يكاد لا يقدر على تحريك رموشه وهو مخمور تماماً قبالة الكأس الممتلئة دوماً . فأكبر إزعاج بالنسبة إليه هو رؤية الكأس فارغة ، ولهذا كانوا يملؤونها ، وحين تكون ممتلئة ، يُفرغها .

ـ إنني أشربها ليس لأنني أحبها ، وليس لأنني بحاجة إليها ، وإنما لأنني معادٍ لرؤية كأس ممتلئة...

وحين يفرغها ، يقرع الكأس بعنف على الكونتوار وهو يصرخ بخفوت :

ـ أكثر ما أكرهه هو رؤية كأس فارغة . يجب ملؤها...

وحين تمتلئ ، ودون إضاعة الوقت ، يتلعثم بالكلمات مكرراً أن الكأس الممتلئة هي أكثر ما يزعجه في الدنيا ويشربها ، حتى صار الشراب يقطر من بين شفتيه وهو يشرب .

دخل البواب الزنجي حاملاً الجريدة . وفيها كانت صورة صديقة خاثينتو مونتيس القتيلة . وعندما مد له الساقي الملاءة الورقية ، أمعن مستر بيل النظر في وجه المرأة الميتة . لقد كانت كلارينيرا .

ـ لقد تعرفت على هذه المرأة وأنا أعرف من قتلها... ـ قال بيل وهو يلقي برأسه على الكونتوار ، بينما القبعة غاطسة فيه حتى الحاجبين .

أومأ خاثينتو مونتيس إلى الجراسين الذين كانوا قد رجعوا لنوبة الخدمة إيماءة عنى بها : ما الذي يمكن لهذا الغرينغو البائس أن يعرفه . لكن جون العجوز ، ربما لأنه حدس ما عناه ذاك ، انتصب كيفما استطاع وأمر بأن يطلبوا له سيارة أجرة ليذهب إلى الشرطة . لقد كان واثقاً من أنه يعرف القاتل .

كانت نوبة عمل خاثينتو مونتيس قد انتهت ، فعرض عليه أن يرافقه . أمسكه من ذراعه . ومن حسن الحظ أنه لم يكن طويلاً . فالرجال قصار القامة أسهل قياداً حين يكونون مخمورين . وفي مركز الشرطة ، قدم بيل إفادته حول المشهد الذي رآه في القطار . الشخص الذي كان وراء كلارينيرا متظاهراً بالنوم واستفزها عند الوصول إلى المحطة المركزية ، وعندما كان القطار يقف على سكة التحويلة .

وفجأة تولد في نفس العجوز جون حب كبير لكلارينيرا . وبينما هو يهز رأسه من جهة إلى أخرى ، طلب أن يستأجروا سيارة ، وهو سيدفع الأجر ، ليذهبوا إلى المشرحة . يجب أن يراها للمرة الأخيرة . كان يبدو في بعض اللحظات وكأنه يبكي ، ولكنه كان فواق السكرة .

ـ من الأفضل إذن أن نذهب إذا كان يريد ذلك ـ قال مونتيس لصديق انضم إليهما في الطريق وكان يعرف كلارينيرا أيضاً .

أوقفا سيارة عند مبنى التلغراف ، وألقيا بالحمولة الأمريكية الشمالية الثمينة في المقعد الخلفي ، وجلس مونتيس بجانبه ، بينما جلس الصديق إلى جانب السائق .

فارقت السكرة بيل لدى الاقتراب من الطاولة الرخامية التي تستلقي عليها كلارينيرا عارية . كان شعرها الغزير والأسود كالفحم ، يشكل وسادة حداد حول رأسها ، وكان وجهها معوجاً ، متورماً ، وعيناها مفتوحتين قليلاً وحدقتاهما مسلطتين على الفراغ ، وكان اللعاب يسيل من الجانب الذي يميل إليه الوجه . وتحت أحد ثدييها القاتمين ، بحلمته السوداء ، كان أثر ضربة السكين الذي كلما نزل باتجاه البطن ينفتح بحواف دامية وشحمية .

خرجوا صامتين . حارس المشرحة ، وهو رجل إخطبوط ، عنكبوت ، له أذنان رفشيتان ، أعرج ومرتعش ، خبأ قطعة النقود التي قدمها إليه مونتيس ، مظهراً أسنانه البيضاء في إشارة شكر .

في ساعة إغلاق النادي الأمريكي ، حيث أوصل مونتيس وصديقه المستر جون ، راح هذا الأخير يشرب تباعاً الكؤوس الأخيرة لهذه الليلة بسرعة لكي ينسى ذلك الجرح الذي أحدثته موسى حلاقة أو خنجر حاد جداً ، والذي انتزع الحياة من كلارينيرا . وأخبره أحد الجراسين بأن عملية القتل لم تجر قرب المدرسة الاكليركية ، وإنما بالقرب من تمثال كولومبس .

مديرا كورال يرتديان بدلتيهما السابغتين ، وستة مورو يلبسون مثل الشياطين ولهم قرون ، وحمار بحجم فيل ثم هو نفسه وراءهم عارياً وفي يده طست . هكذا كان يحلم . القدمان مثل رفشين بأهداب ، والركبتان مثل تورمين في جذع شجرة . وسكرتيرة مدير «ترويبكالتانيرا» تلاحقه بقوس كمان بين ساقيه . حقيبتان ، عشرون حقيبة ، ثلاثون حقيبة . كان من الرهيب السفر ، ليس كمسافر عادي ، وإنما كممثل لفرقة مسرحية . تمكن من السقوط على لوح انزلاق إلى خزان فارغ لم يسقط فيه أبداً . و«أناس

هناك » المشهورون لم يكونوا في أي مكان ، ولكنه رغم ذلك ، وقبل أن يسقط على لوح الانزلاق ، كان قد جسّدهم في مزارع الموز . سيكون جزءاً من عشرة ملايين جزء مما يشكله أناس هناك هو ما جسّده هو نفسه ، جون بيل ، طوال سبعة وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً . وجسّده أمام «أناس هنا الفقراء » . لم يكن سيئاً ذلك التكتيك بمعارضة أمر بنقيضه . فبساطة هذه الوسيلة كانت تبعث الحماسة في الجموع . معارضة الأسود بالأبيض ، والقذر بالنظيف ، والقبيح بالجميل . خطاب بسيط يبدأ هكذا : «مساحة بيوتكم أربعة أمتار ، ولبيوتهم أربعمئة متر من الحدائق وحدها . في بيوتكم هناك نقص في كل شيء ، وفي بيوتهم هناك فائض من كل شيء . نساؤكم يلبسن ملابس داخلية عادية ، ونساؤهم يرتدين حريراً شفافاً بنعومة أجنحة الفراشات . فلستم وحدكم من تعملون من أجلهم ، وإنما دود القز يعمل من أجلهم أيضاً! نداء استغاثة ، عشر بوارج ، ست مدمرات ، تسعة طوربيدات ، وكلها تمضي بأقصى سرعة لتقضي على هذه الفكرة الخبيثة القائلة بأنكم لستم وحدكم وإنما ديدان الحرير أيضاً تعمل من أجلهم . يجب الذهاب إلى القاضي وإجباره على استجواب كولمبس حول من قتل كلارينيرا . وماذا يفيده اكتشافه أميركا إذا كان لا يستطيع القول من قتل كلارينيرا ؟ لقد قتلها رجل له يد في أحد جانبيه وفي الجانب الآخر ليس له سوى فتحة كم . غرس فيها الخنجر بالذراع التي لا يملك فيها سوى فتحة الكم . فتهاوت هي مثل كيس رمل أسود...

... أمضى وقتاً طويلاً دون أن يعرف أين هو . كان ضوء نافذة يملأ الغرفة غير المعروفة بالنسبة إليه . إنه يعرف أنه موجود على سرير ، وتحت دثار ، إلى جانب كوميدينو ، ولكنه لا يعرف أين هو موجود ؛ فهذا ليس المكان الذي يحلم به ، وإنما هو بناء أو بيت أو أي شيء . إنه فندق دون

ريب نظراً للأثاث الموجود . كانت قبعته معلقة على المشجب . وقرر أن يقرع جرساً فحضر خادم . لقد كان في فندق « ميتروبولي » .

وسأل ليتأكد أكثر :

ـ أتقول متروبول ؟

فأجابه الخادم :

ـ لا يا سيدي ، إنه « ميتروبولي » .

بدا له أفضل من الفندق الذي كان فيه . سيذهب من أجل إحضار أمتعته . ولا بد من الدفع هناك . من الأفضل أن تبعثوا أحداً أنتم . هكذا قال للخادم وحين بقي وحيداً تلعثم : القدر أوصلني إلى هنا وهنا سأبقى ، لا تنقصني إلا محفظة أوراقي ، لا بد أنني تركتها في النادي...

أخبره الخادم بأن من أحضر السيد في حوالى الساعة الثالثة فجراً هما سيدان يتكلمان الإنكليزية ، وقد دفعا أجر الليلة . رفع بيل شراشف السرير واستغرق في النوم .

تحدث عن كل ذلك في مساء اليوم نفسه مع صديقه ثورتون . الزوجان ثورتون لم يغفرا له عدم مجيئه مباشرة من المحطة إلى بيتهما ، حيث هناك دائماً غرفة للأصدقاء وطعام يدبرونه بإضافة بعض الماء إلى المرق . اعتذر بيل بمواربة . وأخيراً قرر أن يفعل ذلك صراحة :

ـ لم أشأ المجيء ، لأنكما مهما حاولتما التكتم ، فسوف تسألني أعينكما عن ليلاند ، وكان سيزعجني التحدث عنها ، حتى ولو كان بالنظر فقط ، لأنه كان علي أن أرد عليكما حتى في هذه الحال بالقول : إنها ليست معي ، فقد صرت وسأبقى رجلاً وحيداً حتى الممات .

عندمـا ودعـهـمـا بيل ، لـم يوافق رغم توسـلاتـهـمـا على ترك فندق «ميـتـروبولي» ؛ ورجع الزوجـان ثورتون من عند بـاب حديقـتـهـمـا ، حـيث خرجا لوداعه ، وكأنهما عائدان من جنازة .

وأخيراً قال العجوز ثورتون :

ـ أكاد لا أصدق ما يقوله جون : أتكون ليلاند فوستر قد أغرمت بذلك الرجل المجنون الذي ينقصه برغي في دماغه . المرأة المتزنة والجميلة . تفقد عقلها...

الخبر الأخير الذي وصلهما من جون بيل هو بطاقة تهنئة بعيدي الميلاد ورأس السنة ، مرسلة من نيويورك .

الفصل الخامس

رجع نيغوينتو متبدلاً . لقد جاء لكي يروه ، لكي يراه أولئك الجاحدون الذين تتبؤوا بالشؤم قائلين إنه قد ذهب ليموت في المستشفى . فقد تراجع المرض وصارت قدماه تتدخلان في الحذاء ، صحيح أنه حذاء نصفه من قماش الخيم ونصفه من النعل ، ولكنه حذاء . لم يكن يستطيع أن يستخدم من قبل سوى لفافات الخرق تلك التي راحت مع تقدم الداء تتحول إلى وسائد حقيقية .

كانت سارا خوبالدا ، عرابة لينو لوثيرو ، قد أحرقت قدمها في موقد عشية عيد سان خوان ، قبل خمسين سنة ، وما زالت تتذكر الضخامة التي صارت إليها قدمها وما تكبده أبواها لكي لا تبقى مقعدة . ولهذا ، فقد كانت تقدر دوماً الإزعاج الكبير ليس في قدم واحدة ، وإنما في قدمي نيغوينتو الاثنتين الملفوفتين ، لم تكن تتوقف عن التربيت على ظهره مهنئة بروعة العلاج .

لقد تحولت ساراخوبالدا ، بدمج اسمها ، إلى واحدة من أكثر النساء خطراً في المنطقة . ليس هناك من يعرف السبب ، ولكن الجميع كانوا يخشون ساراخوبالدا .

حك نيغوينتو حقيبة من ألياف البيتا أحضر فيها بعض الأشياء للإهداء ، وأهدى إلى العرابة بضعة حبات من الفانيليا . كان سواد عيني ساراخوبالدا بلون الفانيليا . مرت بها على أنفها وأظهرت أسنانها التامة ، ممتدحة البهجة التي يسببها لها السيد بلاس بتلك التقدمة .

ـ لقد رجع بلاس النيغوينتو سليماً معافى! ـ صرخوا بذلك في أذن آمبروسيو دياث الأصم ، وهو رجل جاء إلى منطقة المزارع ينتعل حذاء ثم اضطره الفقر إلى المشي حافياً .

لقد قام السيد آمبروسيو دياث بالرحلة إلى بيت لوثيرو في «سميرأميس» ، لكي يراه ، ولكي يلمس المعجزة بأصابعه . وبعد أن رأى ولمس بابتسامته النادرة بين أسنانه التي بلون ليفة ، سأل إذا ما كان هناك دواء قادر على جعل الحذاء ينمو من قدميه بدل أن يشتريه .

ـ انقلع إلى البراز ـ رد عليه نيغوينتو ؛ ولأنه لم يصرخ بصوت عال ، فقد بقي الأصم هناك دون أن يعرف ما عليه أن يفعله .

سيدة البيت روسيليا دي لوثيرو ، وزوجة نيغوينتو ، أم روسيليا ، كانتا تحضران شراب اللوز لتقديمه إلى المجتمعين لرؤية المريض الذي شفي من جذامه .

ـ لأن ما كنتَ مصاباً به هو الجذام... ـ أكدت ذلك زوجته متناسية الصرخات والشتائم التي كانت تطلقها قبل رحلة دون بلاس ، كلما ألمح أحدهم ، ولا تقول كلما قال ، بأن العجوز مصاب بالجذام .

ـ النيغوا والخمر هي التي سببت لك الداء يا بني... ـ هذا ما كانت تردده في الشوارع لكي يعلم الجميع بأن السيد مريض بالنيغوا والخمر .

وحين شفي ، لم يعد هناك شيء من النيغوا والخمر ، بل الجذام ، ولا شيء سوى الجذام وحده . وتقول ذلك بكل فخر . ها! الجذام ليس مثل أي مرض آخر ؛ فهو ليس مرضاً عادياً أولاً ، منذ أن أصيب به كما يقال الملك فيليب الثاني . وهو ثانياً غير معدٍ مهما قالوا عكس ذلك . فقد كنت أعيش مع هذا الرجل مثلما يعيش زوج وزوجة ولم ينتقل إلي . وثالثاً ، لم يشف منه من أصيبوا به : فزوجي هو أول شخص يشفى من الداء .

شربت ساراخوبالدو الشراب بمتعة . وروى أحدهم أنهم حملوا عريفاً في الليل وهو يوشك على الموت كما يقال بسبب رفسات حصان . كان الشراب مصنوعاً من بذور البطيخ ، فمضغت سارخوبالدو بعض البذور حين سمعت الخبر .

نظرة مغمومة ، عينا فتاة لا يمكنها أن تخفي ما تشعر به جالتا على الاجتماع ؛ ولكن ساراخوبالدو وحدها هي التي انتبهت ورأت الفتاة التي تنظر إليها خائفة بعينيها الأبنوسيتين الباردتين ، وكأنها تقول لها : لقد نلت ما تبتغين ، عليك الآن أن تذهبي لرؤيته في المستشفى كلما سمحوا لك بالدخول ، وأن تُظهري الاهتمام به ، وتحملي إليه ما يروقه ؛ فقد صار هذا الرجل لك ، كلف ما كلفه ، ولكنه صار لك!...

كان آديلايدو لوثيرو مشغولاً لأن أحد عرفائه قد تلقى رفسة سيئة من بهيمة ولهذا وصل متأخراً على الشراب المرطب . ووراءه كان ابناه اليافعان ، ولكنهما مع ذلك قليلا الاندماج بمجتمع الأشخاص الكبار .

ـ ادخلا ، لا تكونا رعديدين... ـ قال للصبيين وهو يدفع خوان دفعاً ـ سلموا على جدتكم ، وعلى السيدة سارا خوبالدا ، والسيد أمبريوسو وعلى بابليتا... وماذا ، كأني ببابليتا تريد الذهاب...

ـ تصور . ثلاثة رجال معاً يخيفون إحدانا...

ـ وخصوصاً العجوز بينهم ، أليس صحيحاً يا روسيليا...

كانت ساراخوبالدا تعرف ما الذي تعنيه زبونتها . عشق الرجل مكلف . لا بد من ملاحقته كثيراً . وأحياناً لن تنفع حتى ملاحقته . فهذا العريف الفظ كان لا بد من ترتيب أمر وقوعه عن حصانه من أجل تهدئة تكبره . الفتاة المسكينة مغرمة به ، وهو لا يتأثر . ليس هناك ما هو غير قابل للتأثر . الآن سيبدأ عذابه .

احتج لوثيرو :

ـ ولكن هذا الشراب دون سكر...

ـ أنت من يحبه عسلاً... ـ قالت زوجته وهي تبحث عن علبة السكر لتحلي الشراب أكثر .

ـ عندما أموت ستقول الديدان إن هذا التافه كان مصنوعاً من العسل .

ـ عسى ألا يكون العسل كثيراً .

ـ أنا غاضب من حمي . تصوروا ما الذي فعله بي : لقد زوجني بالإكراه من ابنته... ـ نظرت إليه روسيليا بعينين حائيتين ـ ، وبالرغم من أنني صهره لم يخبرني عن السر في الاصابه بنيغوا الأصابع وإلقاء عصارة القصب عليها لكي يبدو مصاباً بالجذام ، فيعطف عليه الجميع في أول الأمر ، ثم يجد بعد ذلك هذا الطبيب الذي دفع له أجراً ليسمح له بعلاجه .

ـ ويبدو أنه يفكر الآن ، إذا ما كان العلاج حاسماً ، بأن يأخذني إلى باريس في فرنسا ، لأنه من دوني لن يستفيد شيئاً من كل ما درسه عن هذا النوع من الجذام ؛ فهو يريد الذهاب ومعه الدليل...

فقالت زوجته :

ـ أما أنا فلتأكلني حمى المستنقعات... ، فأنا لم أحمل ابنتك وحسب ، بل كان علي بعد ذلك أن أحمل طوال حياتي قدميك المتورمتين . والآن بعد أن شفي السيد ، سيسافر وحيداً مع طبيبه...

وقال لوثيرو :

ـ المدير العام للشركة وحده هو الذي يسافر هنا مع طبيبه الخاص .

ـ ها قد أصبحنا اثنين إذن يا بني! والفرق هو أن المدير العام يدفع للطبيب ، أما أنا فالطبيب هو الذي يدفع لي .

ـ كان يتوجب عليك أن تطلعني على كل هذه الأسرار ، وبذلك ما كنت أمضيت حياتي في هذا البؤس ، حتى أنني لا أستطيع الذهاب إلى القرية لأمتع نفسي .

فتدخلت ساراخوبالدا ، مضفية مغزى على كلماتها :

ـ من القبيح ألا يفعل الصديق ذلك...

شرب ابنا لوثيرو ، لينو وخوان ، شرابا حتى انتفخا ؛ ثم غادرا الاجتماع ليذهبا من أجل رفع السروج عن البهائم التي كانت تغفو تحت بعض أشجار الجنة ، يعذبها الذباب الهائج .

رؤيتهما والإحساس بالعينين مثقلتين بالدموع كان أمراً واحداً على الدوام بالنسبة لأمهما . الأكبر ، لينو ، صار يقرأ جيداً . والأصغر ، خوانثيتو ، كان مهملاً أكثر . الخروج بهما قدماً رغم صعوبة الحياة . في هذه القرية التي لم يكن لها وجود من قبل وهي الآن مثل قدم أبيها المتعفنة قبل العلاج . متورمة ، منتنة ، حيث لا يُرى مزيد من الرذائل لأنه لا وجود

لمزيد من الرذائل . فليجيرنا الله . وآديلايدو لا يفعل شيئاً لمنعهما من الذهاب حين تكون هناك حفلة . الحفلة . إنها ورقة اجتذاب الذباب المرة والسامة .

ودعتهم ساراخوبالدا شاكرة على الشراب والحلوى والفانيليا التي تذكر إحضارها لها السيد بلاس دي ليون ، المهيب بوجاهة شاب عجوز .

ـ وأنت تعرفين يا ساراخوبالدا ، سيروننا في إحدى الليالي في القرية نطير معاً في رقصة الثارابانداً .

ـ تحت أمرك ؛ سأوصي على إعداد فستان ، لأنك لن تأخذي هكذا مثلما أنا ؛ فما الذي سيقوله الناس وزميلك المدير الذي يسافر مع طبيبه .

ضحك الجميع . فمزاج ساراخوبالدا طيب جداً . هكذا فكر الجميع . وقال آديلايدو لوثيرو في نفسه : ولكن ، ما السبب . أمر غريب . أهو تعفن ما ، مثلما كان يصيب حماي العجوز .

عاد الغلامان إلى البيت يجران بأقدامهما المهاميز المجلجلة . تناولا مزيداً من الماء ثم استلقى كل منهما في فراشه . بقيت أرجوحة النوم فارغة في الخارج . كان لوثيرو وامرأته يحصيان بعض النقود ليضبطا قسط الأرض التي اشترياها بالتقسيط .

وقال لوثيرو لضلعه :

ـ سترين هذه الأرض . فمثلما قلت لك دوماً وأعدت ؛ إنني أريدها لكي يزرع الأولاد موزاً لحسابهم . لا أريد أن أترك لهم شيئاً سوى هذا ؛ استقلالهم . فأنا أب لا يريد أن يكون لأبنائه أرباب عمل وأسياد . وقد تحدثت في الأمر مع ماسكرون ثالديفار...

ـ هذا المُحمص لا يعاملنا جيداً...

ـ أنا أرى يا روسيليا أن أهم شيء يخلفه الأب لأبنائه هو الاستقلال ، ولست أفهم كيف يمكن لآباء مثلي عاشوا حياتهم تابعين ، ألا يهتموا بتأمين الحرية لأبنائهم ، ولن تقولي لي إن هذا العمل الذي أقوم به ليس من أسوأ أنواع العبودية . آه ، إنني أحلم بأن يمتلك الأولاد أرضهم الخاصة وأن يعيشوا من أرضهم ، دون أن يعتمدوا على أحد! سيكونون فقراء ، إنما أحرار!

ـ ومن الخبر الذي أرسله لك كوتشو ، يبدو أن كثيرين يريدون المجيء لزراعة الموز .

ـ سيكون جيداً أن يأتي هو نفسه ، ولكنه يقول إنه سيرسل ابنه بالعماد . ماذا قال عن اسمه ؟...

ـ لا أعرف ، لقد أخبروك أنت بالرسالة .

ـ لم أعد أتذكر الاسم الذي أخبروني به . سيأتي هو على أي حال ليسأل عنا .

ـ لقد كان كوتشو صديقاً جيداً .

ـ بالطبع ، وخصوصاً إذا ما قارناه بمسكارون ثالديفار . فهذا خبيث حقاً . ولكن ، ليسامحني الرب ، فأنا أتصور أن رئتي كوتشو قد تلفتا .

ـ أنا لم أتعرف عليه ، ولكنني سمعتك تقول إنه كان عليلاً . وأنت تقول إنه كان يسعل ، والسعال ليس بالأمر الحسن ، وخصوصاً هنا ، حيث من يسعل هو إنسان منتهٍ .

ـ في اليوم الذي أوصلتُ فيه كوتشو إلى المحطة ، تعرفتُ عليكِ . كنتُ

قادماً من المحطة عندما التقيت بأبيك ، وهناك بالذات وقعتُ في المصيدة...

ـ يا لك من منافق...

ـ أولم يزوجني بالإكراه ؟

ـ لأنك كنت تنوي الإقدام على عمل سيئ معي .

ـ انظري كم هو مضحك هذا الكلام ، فهذه النوايا موجودة لدى جميع الرجال تجاه جميع النساء ، وهم لا يزوجونهم بسبب ذلك...

ـ ما زال الوقت مناسباً إذن لتتخذ لك طريقاً آخر...

خبأ لوثيرو وهو يبتسم نقود قسط الأرض . كان أبناؤه يشخرون . وهو وحده من بقي مستيقظاً يجمع ويضرب ما سيزرعه وكم سيجني من قطوف الموز ، وكم سيدفعون لهم ثمناً لكل قطف...

الفصل السادس

التقى كوتشو بابنه بالعماد باستيانثيتو ، وبين سعال وسعال قال له كلمات بصوتٍ مريضٍ ، صحيح أن تلك الكلمات قد تحللت في الهواء مثل كتل تراب رخوة تتحول إلى غبار إذا ما ألقيت بقوة ، ولكنها بقيت محفورة في مسمعيه بحيث يكفيه أن يرغب في سماعها فيسمعها .

ـ لا تكن حيواناً يا باستيانثيتو بالبقاء للعمل هنا حيث الأرض لم تعد تعطي! مسمراً هنا مثل أبويك العجوزين ، دون أن تكسب ما يكفي لعيشك ؛ تعمل في قطع غابة البلوط حطباً... يا للمستقبل! بقاء المسنين يمكن فهمه ، فهم لم تعد لديهم قوة ، يقطعون حطبهم ليبيعوه بالشحنة ؛ أما أنت يا باستيان...

كان باستيان يمضي وحيداً في الجبل ، ولكن عينيه كانتا أكثر منه وحدة عبر الفضاء وكأنهما تبحثان في الوهاد والقمم الصغيرة التي تحيط به عن سبب وجيه يعارض به كلام عرابه . حتى لو كان عليه أن ينتزع جبلاً ، فسوف ينتزعه ، مقابل أن يتمكن من القول لعرابه سأبقى هنا لأن... لا يمكنه أن يقول له إنه سيبقى لأنه من هنا ، فالمرء حسب حسابات عرابه ينتمي إلى

حـيث تـكون الأرض طيـبـة مـعـه وتـلك الأراضي بين المنحـدرات هي دمـار للجمـيع ؛ وإذا ما قال له بأنه سيبقى لأن أبواه يملكان هنا بعض الأملاك ، فإنه سيـرد عليه بأنها أملاك لم تعد تسـاوي شيئاً ؛ إنها أرض محروقة ، صخور زلقة ، هياكل متعرية...

كان باستيان يضرب رأسه بقبضتيه ويخبط قدميه بالأرض ، وهو يشعر بأنه منقسم بسبب نظرة عرابه اللامعة إلى نصفين : النصف الذي بلا نقود ، وهو يدعو للرثاء ، والنصف الجبان الهياب الذي يبعث على الازدراء .

ظهور جواد في المدى ، بعيداً ، يمتطيه فارس لا يمكن التعرف عليه عن ذلك البعد هو الذي أخرج باستيانثيتو كوخوبول من أفكاره . كان الجواد وفارسه يقتربان بسرعة كبيرة وعندئذ عرف من يكون الفارس . إنه أحد أخواله . الخال بيدريتو . وصل إلى مقربة منه مع الحصان ليربت على كتفه قليلاً ويسأله عما يفعله .

ـ إنني أقتفي أثر عجل شرد مني أيها الخال بيدريتو . وأنت ، إلى أين أنت ذاهب .

ـ أنا ذاهب إلي بيتكم يا باستيانثيتو . خرجت منذ الصباح الباكر ، وجئت لكي أقابل أباك قبل انتصاف النهار ، لا بد أنه ينتظرني ، لأنني بعثت إليه أمس أخبره بقدومي ؛ سأذهب الآن ، وسأراك في البيت ، وأرجو من الله ألا يكون هذا العجل قد هوى في أحد الأودية .

مضى الفارس قدماً وهو يهمز حصانه الذي يمتطيه وسرعان ما تحول إلى غمامة ، وسط الدغل ذي اللون المتسخ والخالي من الحياة . وكأنه أحشاء فرشة عتيقة خضراء .

الخال بيدريتو! هكذا فكر باستيان عندما كان الفارس قد اختفى . الخال بيدريتو هو نموذج الشخص الذي أمضى حياته في هذه الأماكن دون أن يحقق شيئاً يذكر ، إنه يهرم ويملأ المكان بأبناء الخالة ، وليس الخالة وحدها .

لم يتوقف . تخلى عن البحث عن العجل ومضى راكضاً ، عبر حقل القصب ، حتى بيت عرابه . ومن هو عجل أكثر منك يا باستيانثيتو كوخوبول إذا ما بقيت هنا!

باستيان في المقدمة ، ووراءه امرأته . باستيانثيتو كوخوبول في المقدمة وفي اثر خطواته الواسعة ، خطوات رجل طويل الساقين يمضي مسرعاً ، تتبعه خطوات زوجته الضيقة . توقفا عند أحد المنعطفات ، بعيداً عن الكوخ الذي هجراه وبقي خاوياً . كان لا بد من استعادة القوى من أجل شرب القهوة . وكان الوقت فجراً .

انزلق باستيان عبر درب عند نهاية منحدر لكي يجلب ماء من النهر . وفي أثناء ذلك بحثت امرأته عن عيدان جافة وعود ثقاب . لقد كان كل شيء في السلة : البن ، قوالب السكر ، الثقاب . أبهجهما وميض النار بدفئه ونوره . لم يُظهرا ذلك . أحسا به وحسب . وسرعان ما غلى ماء الإبريق . عندئذ ألقت امرأته فوق فقاعات السائل حفنة من البن ، وبعد ذلك بقليل ، وقبل أن يغلي كثيراً ، سكبت قليلاً من الماء البارد ، لكي تُخمد غليان السائل وتجعله يركد . فهكذا يحب باستيان القهوة . وأخرج هذا من حقيبة قماشية قطع عجة وبعض الجبن اليابس . أخمدا النار بما تبقى من الماء وواصلا المسير قدماً .

من خلّفا وراءهما ؟ ومن سيكون من خلفاه . . ذويهما . وإلى أين

سيذهبان ؟ إلى صديق لعرابهما . ماذا يحملان ؟ بعض المال لشراء أرض على الساحل ، ويحملان : هو يحمل نفسه : متيناً ، يمكنه أن يحمل بسهولة ثمانية أرباع[1] على كتفه . وهي تحمل نفسها وشيئاً آخر . إذ يمكن للنساء أن يحملن شيئاً أكثر من حمل أنفسهن ، دون أن يعلمن . والرجال أيضاً . آه ، ولكن الأمر ليس مماثلاً! فالرجال يحملونه دوماً ، أما النساء فلا يحملنه إلا عندما يمضين مثلما تمضي غاوديليا آيوك غايتان ، زوجة باستيانثيتو .

إنهما ماضيان ليحاولا العمل في زراعة الموز ، بعد أن يشتريا أرضاً ، مثلما نصحهما عرابه . لقد قال لهما كوتشو بصوت المريض ، بضحكته التي دون ضحك ، إن أوراق أشجار الموز خضراء ، مثل أوراق نقد الذهب . يمكن رؤية الكثير والكثير والكثير جداً من أوراق نقد الذهب وكأنها معلقة على قصبة نشر الغسيل في كل ورقة موز . وأقراط الموز مثل أوراق كثيرة ، أوراق نقد خضراء كثيرة كثيفة ، تتحول إلى سبائك ذهب أخضر .

لقد كلفهما وداع ذويهما جهداً كبيراً . ذهبا يوم السبت ولم يرجعا حتى يوم الثلاثاء إلى الكوخ ، إلى كوخهما الذي تركاه الآن مهجوراً . بقيا حوالى يومين في بيت العجوزين كوخوبول . وكان السيد باستيانون الأب يتحدث عن صعوباتٍ وأمراضٍ ونكباتٍ . وقدموا لهما هناك كأس خمر وهما يغادران . ثم بقيا وقتاً أقصر مع أسرتها ، مع آل آيوك غايتان . وقدموا إليهما هناك بيرة ، شربوها نخباً للجميع وللرحلة .

وفي بيت آل آيوك غايتان رد باستيان كوخوبول ، باستيانثيتو ، على الأسئلة التي وجهوها إليه بثقة من يعرف ماذا يريد . سأذهب إلى سيد يدعى

(١) أرباع ، (arrobas) : جمع ربع ، وهو مكيال للحبوب قدره ٢٠٥ , ١١ كيلوغرام

لوثيرو ، وهو صديق حميم لعرابي ، لكي نشتري أرضاً ونزرع موزاً . ما أملكه هنا هو بعض المواشي ، وبقايا شونة حبوب ، وعُدّة ، وستة ثيران ، وبضع بقرات ، سنبيع كل شيء في السوق أنا وغاوديليا ونأخذه معنا نقداً ، ولكننا لن ننفقه ، لأننا لن ننفقه إلا في شراء أرض . اتهمه أخوة غاوديليا بأنه رجل بلا عقل في رأسه . وكانوا يكررون إنه رجل أوهام بينما هم يهزون قبعاتهم التي على رؤوسهم ويبصقون .

المال الذي وضعاه جانباً لإنفاقه في أثناء الرحلة هو ما يكفي لشراء تذكرتي القطار بالضبط . القهوة التي تناولاها في الطريق هي الشيء الوحيد الذي نزل إلى معدتيهما في ذلك اليوم . هو يمضي في المقدمة ، مكشوفاً ، وهي وراءه . اجتازا المدينة حتى محطة القطار دون أن ينظرا إلى جانبيهما ، حتى لا يريا طعاماً ؛ وعندما وصلا المحطة اشتريا تذكرتي الركوب .

أخرج باستيان من محفظة جديدة ، من جلد له لون اللحم الأحمر ، ما كان قد فصله عن بقية المال من أجل التذكرتين . اشترى قطعتي كرتون قاسيتين جداً ، إنهما التذكرتان ، لهما الحجم نفسه . هاتان التذكرتان هما قطعتا كرتون من الحجم نفسه وعليهما حروف وأرقام متماثلة ، وتكلفان غالياً . بحثا فوراً عن مكان يجلسان فيه . هناك بالذات . دون أن يتبادلا حديثاً . دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر . إذ لم يعد كل منهما يرى الآخر لكثرة ما كانا معاً . ربما رأيا بعضهما عندما تزوجا فقط . ومن خلال النوافذ التي تطل على فناء المحطة ، كانت تظهر عربات ركاب وعربات أخرى مسطحة .

خرجا ليلاً ، وكانا يشعران بالجوع ، بالبرد ، بالنعاس . ولكن أياً منهما لم ينطق بكلمة . عربة الدرجة الثانية التي وجدا فيها مقعدين ، أو

بكلمة أصح وجدا فيها مقعداً واحداً لكليهما ، كانت شبه مظلمة . لم تكن تظهر وجوه الركاب . وفوق الأجساد المطموسة تظهر قبعات اللبد ، وكانت قبعات القش أكثر من قبعات اللبد . كل قدمين حافيتين ، قبعة قش . وكل قدمين منتعلتين ، قبعة من اللبد . وانطلق القطار ما بين رجال يهزون مصابيح ذات أضواء بيضاء وخضراء وحمراء .

تثاءبت غاوديليا ، واستراحت حيث لا يمكن الراحة ، إليتها ملتصقة بإلية رجل عجوز يعبق برائحة التربنتين . بقي باستيان ينظر إليها ، ولكنه لم يرها ؛ تثاءب ، لأنها نقلت إليه عدوى التثاؤب ، بينما نهضت بدلة عسكرية كانت قبالتهما لتتمطى ، وكاد مسدسها أن يسقط . فأمسكت به كمن يمسك أحشاءه .

لدى الخروج من منطقة العمران ، انزلقت القافلة ، دون عراقيل ، وكأن كل أجزاء القطار قد اتفقت على التدحرج في اتجاه واحد إلى اللانهاية ، لساعات وساعات ، طوال الليل .

نامت غاوديليا على كتف باستيان . وباستيان لم يغمض عينيه لكي يحمي النقود . كان يغرسهما في الضوء الشحيح المنبعث من مصابيح القطار ، أو يوجههما نحو الأرضية وكأنه يريد أن يرى خطي سكة الحديد تحت العربة ، والنائمين فيها . وفي أثناء ذلك ، كانت أذنه تتابع ضجة الحديد الممضوغة التي تتدحرج إلى الأمام ملتهمة المسافات ، طعام ، طعام ، طعام ، وتترك في الخلف ما يشبه الروث القاتم في الفراغ الذي تبتعد عنه...

بعض الركاب يحكّون أجسادهم ، ويشخر آخرون خووو ، خووو ، خووو ، وآخرون يحاولون تليين المقاعد الخشبية القاسية بإفلات ريح نتنة

يحملها الهواء الذي يهب من الخارج كلما فتحوا الباب لينتقلوا من عربة إلى أخرى . الوقت... كم من الوقت... من يدري...

توقف القطار ، وربط أو فصل بعض العربات وواصل قدماً . هب عند الفجر هواء يجمد العظام . وكان باستيان يشخر برأسه المائل إلى الوراء وفمه المفتوح . أيقظهما معاً صوت صفير ، وأعلن الجرس أن موعد توقف القافلة قد حان . أخرج باستيان رأسه من إحدى النوافذ وتضمخت عيناه بلون بنفسجي ، بندى بنفسجي ، ليلكي ، وأزرق ، ووردي ، وذهبي مفاجئ . ندى وضوء . وكان الندى والضوء شيئاً واحداً في هذه الساعة . وكان الندى والضوء والأوراق شيئاً واحداً أيضاً . أوراق لها شكل قلوب ذات أهداب لم يكن باستيانثيتو قد رأى مثلها من قبل . وأوراق أخرى كجلد النمر ، وأخرى ذات لطخة حمراء كبيرة وكأنها قلب حيوان . وبحثت عيناه من نافذة القطار عن حقول الموز دون طائل ، عن الأوراق الخضراء التي كأنها أوراق نقد الذهب ، تلك التي جاء بحثاً عنها مع غاوديليا بناء على نصيحة عرابه كوتشو .

نزلا من القطار وبقيا واقفين في قطاع صغير من طريق ، بينما كانت القاطرة تقترب من خزان ماء ضخم ؛ ونزل نحوها خرطوم ضخم ليطفئ ظمأها . كانت تطلق من جانبيها بخاراً أبيض ، أنفاساً من عطاس ، ولدى مرورها بجانبهما غمرتهما ببخار كثيف ما لبث أن تحول على الفور إلى بلل في ثيابهما .

سألا عن الطريق إلى مزارع الموز ومضى باستيان في المقدمة وغاوديليا في أثره يمشيان في غابة . قالوا لهما إن الطريق إلى مزارع الموز من هناك . كانت تتقافز على الأشجار طيور لها لون النار والدم ، وأوضح باستيانثبتو لغاوديليا بأنها طيور الكردينال . وطيور أخرى كأنها حمام سماوي ذات

حواش سوداء وعيون كأنها شرارات شمس . وببغاوات صاخبة وجيوش من الببغاوات الخضراء تعبر ما بين أشجار الثيبا السامقة مثل أوراق طائرة .

غابة وجبل على هذا الجانب وعلى الجانب الآخر من الطريق ، حيث بدأ يمر بعض العمال ؛ وعربات تجرها الجواميس ، وعربات تجرها البغال ، وفرسان على خيول أنيقة . كان أول من التقيا به بعد أن سارا مسافة لا بأس بها رجلاً أحمر الشعر ، سألاه أين هو المكان المدعو «سميرأميس» . فقدم لهما المعلومات . ما زال المكان بعيداً . ولكنهما إذا سارا سيصلان . باستيانثيتو في المقدمة ، وغاوديليا وراءه .

لوثيرو هو اسم صديق عرابه . «السيد المحترم آديلايدو لوثيرو ، سميرأميس» ، بواسطة السيد سيباستيان كوخوبول ، هذا كله كان مكتوباً على المغلف . فكوتشو أعطاهما رسالة توصية موجودة في المغلف يقول فيها إنهما يرغبان في شراء أرض ليزرعا الموز .

ـ سميرأ...

لم يكمل باستيانثيتو الكلمة ، لأنه فتح فمه من الدهشة وبقي جامداً مع زوجته ، لم يستطع الاثنان أن يخطوا خطوة واحدة ، مجرحين بما يشبه وابلاً من ضربات مناجل الماتشيتي توجهها أوراق ذات لون أخضر بديع ، ليست خضرة نباتات الجبل ، ولا خضرة الببغاوات ، وليست خضرة البراري ، وإنما هي خضرة تمتزج فيها خضرة البحر والخضرة التي تولد من الضوء الذهبي فوق الأوراق ومن الضوء العميق واللحمي ، من زمرد ماء أزرق ينتشر تحت الأوراق . الشمس كأنها تنفذ من بين مظلات ممزقة ، فتبدو ألماساً متخثراً في الظلال الظليلة . صفوف أشجار الموز تتحرك ولا تتحرك في كل الجهات بينما هما يواصلان التقدم نحو «سميرأميس» .

تبادلا النظرات ليتوصلا إلى اتفاق . لم يخدعهما العراب . فقد كان دقيقاً ما وصفه لهما بصوته ، صوت الرجل المريض ، عندما قال لهما إنه لدى الوصول إلى حقول الموز يشعر المرء وكأنه يدخل بحراً بلا أسماك ، بلا ماء ، ولكنه بحر ، بحر تشبه جذوع الموز فيه أعمدة لها شكل سيوف تخترق الفضاء الناري لتطلق بعد ذلك في الأعلى سهام أوراق ناعمة كأنها حلم في العيون ، طرية كأنها القماش الصحي الذي يضعونه على الجروح . إنها قماش صحي أخضر .

لوثيرو... «سميرأميس»... وفي الطريق وجدا الشخص المطلوب ، راكباً على جواد بكل أبهة . رفع القبعة إلى ما فوق جبهتة ليتمكن من قراءة حروف كوتشو دون ظلال .

ـ آه ، حسناً... لقد حضرتما إذن... آه ، حسناً... لقد حضرتما إذن... آه ، حسناً...

ولكن من الأفضل التحدث في البيت . أخبَرَهما أين يجب أن يذهبا .

ـ واصلا السير من هنا على طول حركة الأوراق هذه التي تريانها ـ وبالفعل ، على عمق أكثر من كيلومتر بدت أوراق متحركة ، وأوراق متحركة ، وأوراق متحركة ـ وعندما تصلان إلى هناك ، حيث يوجد تقاطع طرق انعطفا إلى اليمين ، وستريان بعد قليل مرتفعاً ؛ إنها رابية سميرأميس . سميرأميس في الأعلى . وهناك بيتي . أخبرا زوجتي أنكما التقيتما بي ، وأنكما قادمان من طرف كوتشو . وأنا سأعود إلى هناك في موعد الغداء لأرتب الأمر معكما .

تفحصه باستيان بينما كان يقرأ الرسالة . وامرأته كذلك كانت تتأمله بينما هو يوضح له كيفية الوصول إلى سميرأميس . وقد ترك انطباعاً جيداً

لدى كليهما . فالعراب لم يخدعهما بشأن لوثيرو كذلك . لقد قال لهما إنه رجل طيب ، وها هما يتأكدان من أنه كذلك فعلاً .

*

سيباستيان خيرونيمو كوخوبلو ، أو دون باستيانون مثلما صاروا يدعونه مذ كبر ابنه ، أطل بوجهه إلى بيت أبوي كنته غاوديليا آيوك غايتان ، لكي يتكلم مع حمـيي ابنه عن الفكرة المفاجئة التي خطرت للشابين ، لأبنه وابنتهما ، في أن يذهبا ليجربا حظهما في الساحل . لم يكن أخوة غاوديليا موجودين ، وإنما العجوزان فقط ، صديقاه ، عندما أطل دون باستيانون قائلاً بصوت أجش :

ـ قالا إنهما سيذهبان للسفر في القطار ، ولست أستغرب ذلك لأنهما متهوران... لقد قلت لهما إن من يزرع أرضاً غير أرضه ، يعرض نفسه للمخاطر ، ومن المحزن التعرض للمخاطر في مكان آخر عندما يكون للمرء ما هو خاص به .

حماة ابنه باستيانثيتو ، أم غاوديليا ، قربت ما بين حاجبيها لترى بصورة أفضل ، وتمتمت شيئاً أعاده زوجها دون أن يحرك شفتيه ، وكأنه يتكلم في قمع . فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة في حياتهما الزوجية للتحدث عن الأسرة . فمن أجل التكلم كانا يتقاربان : فتتمتم هي بصوت خافت ما يقوله هو بصوت عال ومتيبس .

ـ لم يسمعا كلامنا أيضاً ؛ ولكننا قلنا إننا لو كنا في مثل عمرهما لفعلنا الشيء نفسه ، لأن الكسب جيد في تلك الأماكن ، إنه أفضل من هنا ، حيث ما يمكن كسبه تافه جداً . وحسب ما سمعت من ابنك باستيانثيتو فإن الأرض في الساحل تباع رخيصة جداً ، وما عليهم سوى استخدام مناجل

المتشيتي للتخلص من الغابة ، وقطع الجذوع لتحديد الأرض ، والحرق ، ثم الحرث وغرس شتلات الموز .

ـ هذا كله يقوله ابني باستيانثيتو ، ولكن من يعرف ما هي الحقيقة . فكل شيء سهل في الكلام ؛ ولكن من يعرف الواقع ، فهناك مناخ مؤذٍ ، وحيوانات خبيثة ـ ليحفظنا الرب ـ تعج بسموم حارة تجعل المسيحيين ينتفخون مثل الضفادع . لقد قلت لهما إن المناخ هنا طيب ، لدينا ما نأكله ، وكم سيحنان إلى هذا الماء البارد الذي نشربه هنا عندما يغلبهما العطش هناك تحت شمس البحر .

صمتوا . وكانت الحماة توجه إلى ساقيّها النحيلتين ضربات خفيفة بيديها الرفعتين الخيطيتين ، ثم تكلمت بعد ذلك دون أن توقف حركة يديها تلك ، بينما كان دون باستيانون يُخرج حزمة سجائر ملفوفة بورق الذرة لكي يدخن ويدخنا معه .

ـ أنا أرى ، وليسامحني الرب ، أن من أدخل في رأسيهما كل هذه الأشياء هو كوتشو ؛ فقد جاء قائلاً إن الموز يباع فوراً لأجانب يدفعون ثمنه ذهباً ؛ وأحاديث القبطان الكبير هي التي سببت لهما هذا الجنون .

ـ كوتشو صديقي ، وهو عراب ابني باستيانثيتو ، ولكن... ـ قال ذلك دون باستيانون ، مقرباً طرف سيجارته التي من ورق الذرة ليشعل بجمرتها سيجارة حمي ابنه ، بينما انتزع هذا الأخير الكلام منه ليقول ، قبل أن يدخن :

ـ إنها مبالغات مسلول ؛ فكل المرضى يحلمون هكذا ، يهذون ، يرون رؤى وأوهام .

ـ الحقيقة الناصعة هي أنهما ذهبا... ـ قالت بصوت كالرماد الرطب

السيدة التي كانت تدخن وتمج السيجارة بالأسنان القليلة التي بقيت في لثتيها ، بينما بدأت الشمس توجه جمرات الظهيرة إلى الأشجار اليابسة التي توشك أن تشتعل وكأنها من تبغ .

وكان الزائر على وشك الذهاب ، بعد تدخين السيجارة ببطء وبأنفاس طويلة ، عندما أطل أخوة غواديليا : خوان سوستينيس ، ومكاريو ، وليساندرو . دخلوا على الخيول ، وقبل أن يترجلوا حيوا دون باستيانون لكي يخبروه بأنهم التقوا على الطريق بشخص راجل آتٍ إليه برسالة من ابنه باستيانثيتو .

شمس الظهيرة كانت تجعل تلك الأراضي المشغولة منذ قرون أكثر كآبة وتوحداً ، حيث غُسلت الأرض الجيدة بسبب قطع الأشجار ، وبقيت الصخور الكلسية ، والوهاد العارية ، وبعض أفران إحراق الحجارة الكلسية التي تبدو مثل علامات مأساوية .بدأ أبناء آل آيوك غايتان الترجل عن الخيول بعد أن قدموا خبر الرسالة إلى دون باستيانون . ثم ربطوا البهائم ومروا واحداً وراء الآخر ، وهم يقاطعون أذرعهم على صدورهم ويحملون قبعاتهم في أيديهم ، ليحيوا السيد والدهم والسيدة والدتهم ، بينما خرج العجوز باستيانون ، دون أن يحث الخطى ، للقاء القادم الذي يحمل رسالة باستيانثيتو .

سرعان ما حضر خوان سوستينيس ثم تبعه مكاريو وليساندرو إلى بيت آل كوخوبول وسألوا : ما الذي تقوله الرسالة أيضاً ، لكي يُشعروا العجوز بأنهم يعرفون مسبقاً شيئاً من مضمون الرسالة فيريهم إياها ؛ لكن السيد باستيان ، (والشيطان يعرف الكثير لأنه عجوز)[1] قطع عليهم المحاولة بجفاء :

---

(١) الاشارة هنا إلى مثل يقول «الشيطان يعرف الكثير لأنه عجوز وليس لأنه شيطان» ، بمعنى أن المكر والدهاء يأتي مع التقدم في السن .

ـ همم... إنها لا تقول شيئاً مهماً...

فقال خوان سوستينيس ، الرجل القصير ذو الساقين المفتوحتين كطرفي ملقط ، والرأس الكبير فوق كتفيه :

ـ السيد والدي أمرنا بأن نأتيه بأخبار صحة غواديليا ، وأخبار باستيانثيتو ، وإذا كانا قد وجدا عملاً...

ـ همم... أجل ، إنهما بخير ، لم يمرضا ، ولديهما مأوى يعيشان فيه . ولكنني أفضل أن أذهب أنا إلى بيتكم لأُري أبيكم الرسالة ؛ أو اسمعوا ، أخبروه بأني سأنتظره على الجسر لأنني أريد أن أذهب بسرعة إلى القرية ؛ قولوا له بأنه سيجدني بانتظاره على الجسر ؛ ها أنا ذاهب الآن إلى هناك...

ـ يا لأختنا المسكينة!... ـ هتف ليساندرو ، وهو يصوب عينيه السوداوين إلى حمي غاوديليا بينما نبضات قلبه كأنها مطرقة حقد ، وفي مخيلته صليب يود لو يدفن ذلك العجوز تحته إلى الأبد . ثم أضاف بتماد في الوقاحة :

ـ ومع أنكَ لستَ المذنب ، إلا أنها مسكينة أختي...

خرج خوان سوستينيس مقوس الساقين ، القصير ، ذو الرأس الضخم ؛ وليساندرو في أثره ، ثم مكاريو الأسمر المائل إلى خضرة بلون قارورة . وعندما ابتعد الأخوة آيوك غايتان ، خرج دون باستيانون إلى الباب ، وبعد أن هز رأسه ذا الشيب الأبيض ، الأبيض ، المسرح في خصل فوق جبهته ، زفر قائلاً :

ـ «وماذا تقول الرسالة أيضا » ؟... لن تراها عيونهم أبداً...

وفي طريقه إلى القرية ، لمح دون باستيانون على الجسر الممتد فوق

النهر حزمة صغيرة تعرف فيها لدى الاقتراب فوق حصانه المتعب على السيد حمي ابنه . إنه ينسى أحياناً اسمه . فالآن مثلاً لا يتذكره . ما هو اسم آيوك غايتان ؟ وحين أصبح بجواره ومد إليه يده من فوق الحصان ، خطر له الاسم كما في السحر : تيو .

وقال باستيانون كوخوبول متقصياً بتهذب :

ـ مضى بعض الوقت وأنت تنتظرني يا دون تيو ، ولكن... الحقيقة أنني لم أفكر في أنك ستصل بهذه السرعة ، وقد تأخرت في البحث عن بعض أوراقي...

ـ جئتُ فور أن أخبرني الأولاد بما طلبته ، بسبب اللهفة كما أظن ، على حياة ابنتي ؛ لقد كان سر هذه الرسالة كبيراً حتى صار يصعب علي أن أتصور أن كل شيء على ما يرام حقاً ، وفكرت في أنك لم تشأ أن تخبر الشباب...

ـ لقد أحضرتُ الرسالة يا دون تيو ، وها هي معي...

ـ قد تخفي الكلمات حقائق قاسية يا دون باستيانون ، فأحياناً يرغب المرء في أن يكون فوق ما يسمعه أو يقرأه جسر مثل هذا الجسر ، وأن يعبر نهر الكلمات لينتقل إلى الضفة الأخرى... ؛ ولكن هيا ، ابق على الحصان ، لا تنزل من أجلي ، فأنا أيضاً سأذهب إلى القرية لشراء بعض الأشياء للبيت ، أشياء نحتاجها... شموع ، ودقيق ، وملح...

القرية الصغيرة ذات البيوت القشية المختفية ما بين الأشجار تنحدر وكأنها تريد أن تغسل في النهر أقدامها التي من أسمال منشورة على الضفاف . في الشارع الرئيسي المرصوف والمنحدر ، والمسمى شارع

كالفاريو ، توجد المتاجر الكبرى ، محلات لبيع الخمر أكثر من أي شيء آخر ، في بيوت مقشرة تبدو وكأنها قشور بيوض حجرية .

ـ أنا أفكر في دعوتك لتناول كأس ، وهكذا نقرأ الرسالة ؛ تقرؤها حضرتك ، أما أنا فقد حفظتها عن ظهر قلب ؛ لقد قرأتها بلهفة أكثر من ستين مرة...

في حجرة مزينة بأوراق ملونة تتدلى من السقف وقصب خيزران ، لأن هناك حفلة ستقام ، جلس العجوزان على كرسيين إلى جانب طاولة لقراءة الرسالة ، قبالة كأسين من الخمر أرفقتهما من تقوم بالخدمة بحفنة من الملح مع ثلاث شرحات من المانجا الخضراء .

أخرج دون باستيانون رسالة ابنه باستيانثيتو الملفوفة مع أوراق أخرى في لفافة ورق صفيحي وقدمها إلى دون تيو آيوك غايتان . فقاطع العجوز آيوك غايتان إحدى ساقيه النحيلتين فوق الأخرى وهو يمسك بالرسالة ، ثم مد يده فوق الطاولة ليتناول الكأس ويلقي بالخمر في حلقه قبل أن يبدأ بقراءة الرسالة . لن يجد أخباراً سيئة . وكان دون باستيانون يراقبه بطرف عينه ليرى ما ستقدمه تجاعيد وجهه من إعجاب .

ـ السيد المحترم ، دون ، دون... ـ بدأ السيد تيو القراءة ـ... آل «مكابيوس»... إيه ، كيف مازال يتذكر آل «مكابيوس» ؟ اسم حزين جداً . يستحق النسيان . ولكن الشباب لا ينسون شيئاً .

ـ وخصوصاً عندما يكون أحدهم بعيداً يا دون تيو ، فهو يتذكر عندئذ حتى البراغيث التي لسعته والمكان الذي لسعته فيه .

ـ والداي العزيزان : بعد التحية لكما ـ راح دون تيو يقرأ بصوت عال

تقريباً ـ والتمني بألا يكون قد طرأ شيء عندكم مثلما هو الحال عندنا حيث نحن بفضل الله على أحسن حال ، أريد أن أطلب منكما أن تُريا هذه الرسالة إلى عرابي وإلى والديّ زوجتي لكي يعرفوا أخبارنا ، وأن تبلغوهم تحياتنا ؛ وسيكون من المستحسن كذلك أن يفكر الشباب ، اخوة غاوديليا ، بالمجيء إلى الساحل . توجد هنا أراض كثيرة للزراعة إلى حد أن عدم زراعتها مدعاة لتأنيب الضمير . لقد أقمنا بيتاً صغيراً في قطعة الأرض التي اشتريناها ؛ وبما أخرجته من حطب من الأرض فقط استطعت أن أدفع أكثر من نصف ثمن الأرض ، ومن الأفضل ألا أخبركم بالمزيد ، لأنني أريد أن تزيل روعة هذه الأرض أوهام الشباب عندما يأتون . لقد صار لدى زوجتي غاوديليا نصف مدجنة . وهي تبعث لكم بتحياتها . إذا ما رأيتم عرابي فقولا له إن السيد لوثيرو ، الذي كان قد أرسلنا إليه ، ساعدنا كثيراً جداً إلى حد أننا لا نستطيع رد جميله ، وكذلك زوجته السيدة روسيليا وابناه لينو وخوان ، وهما رجلان مكتملا الرجولة . عرابي لم يعرفهما . بالقرب من أرض آل لوثيرو هؤلاء اشترينا أرضنا ، ونحن نعمل جميعنا معاً . وفي الجهة الأخرى ، وراء المكان الذي نحن فيه ، هناك ملكية لأناس أجانب أقمنا معهم صداقة ، المرأة تدعى دونيا ليلاند والرجل دون ليستر ، وهما يجهزان مزرعة موز لهما أيضاً...

قاطع دون باستيانون القراءة حين رأى الإعجاب في وجه زميله :

ـ دون تيو... أنا سأذهب لأن علي أن أنجز أمر أوراقي ؛ سأترك لك الرسالة شريطة ألا تريها لأبنائك ، لأنهم سيسافرون هم أيضاً حينئذ...

ـ بالنسبة لي أتمنى لو أنهم ذهبوا ؛ فحين يكون المرء شاباً ، من الأفضل له أن يجرب حظه حيث توجد فرصة وألا يبقى مثلنا نحن الذين

نتحول من رخمة إلى باشق ؛ فالرخمة يأكل برازاً والباشق يأكل لحماً نتناً... ولماذا أريد أبناء يسمون أنفسهم مزارعين بينما لا يحسنون عمل شيء سوى التحطيب...

ـ آه يا دون تيو ، انتبه لما تقوله!

ـ صحيح ، يا صديقي ، فما يقال عن بقاء المرء حيث ولد مثل دجاجة عمياء مدفونة بجانب سرتها ، هو قول يخلو من العقل ، والتفكير بأنه بعيداً عن هنا لا وجود لشيء أفضل... ياه...

سقط المساء . وبدأت تظهر في القرية أضواء هنا وهناك ، ولكنها كانت مختبئة أيضاً ، مثل البيوت . وكان النهر المحصور بين الصخور يتدحرج في الليل مثل سكران .

ـ الخال بيدريتو ، لم تذهب بعد ـ قال ذلك دون باستيانون لدى وصوله إلى بيته عائداً من القرية .

ـ لم أذهب بعد ، وسترى السبب...

ـ أي سبب أيها الخال بيدريتو ؟

ـ السبب...

ـ تكلم أيها الخال بيدريتو ، فلهذا نحن أقرباء .

ـ بسبب ابنتي المتزوجة من غوبيريو...

ماريا لويسا هي المتزوجة من غوبيرو...

ـ وتصور أنها ستلد ، ولكن غوبيريو لم يحصل حتى الآن على النقود القليلة التي يدينون إليه بها حيث يسلم حطبه ، إنه يأخذ إليهم حطباً متعفناً...

ـ لقد فهمت ما تريد . ولكن قبل أن تواصل كلامك أيها الخال بيدريتو ، سأخبرك بأنني قادم من تقديم أوراقي كرهن من أجل قرض أحتاجه ، ولكنهم لم يتكلفوا مشقة النظر إلى الأوراق . فهم لن يدفعوا أي شيء مقابل رهن حقول الرماد ، مقابل هذه الأراضي الجرداء...

ـ ولكن للحطب قيمة...

ـ إنما قيمة الفحم أكبر أيها الخال بيدريتو ، لكن الفحم يصنعه الهنود ، لأنه يحتاج إلى عمل ، ونحن نتولى الحطب ، لأنه لا يكلف جهداً كبيراً ولهذا نحن فينكيروس ، لأننا نجمع الحطب...

ـ يمكنني أن أقدم لك يا باستيانون...

ـ أتقدم لي الحصان المسرج ، الحصان الذي لا يُرفع عنه السرج طوال النهار . إنك من الأسرة أيها الخال بيدريتو ، فالحصان مسرج ، مستعد للخروج إلى العمل دوماً بينما نحن نستلقي ونتكلم أو نلعب الورق...

ـ حسن ، إذا رغبت أن تقدم لي كأس ماء...

ـ ليس إلى هذا الحد يا عم بيدريتو ، ولكنني استأت كثيراً لأنهم لم يعطوني قرضاً مقابل أوراقي ، وأنت دفعت الثمن بسبب بناتك الإناث .

أطلت أم باستيانثيتو ، دونيا نيكوميدس سان خوان دي كوخوبول برأسها المربوط ، شال صوفي جيد على كتفي المرأة دائمة الزكام ، تنورة واسعة وخاتمين من ذهب نحاسي مدفونان في أصابعها السمينة سمنة مفرطة تجعلها أشبه بأصابع قدم .

ـ مبارك قدس الأقداس! ـ كانت تحمل شمعة في يدها وتبحث عن شمعدان تضعها فيه .

نزع الرجلان قبعتيهما وخفضا رأسيهما وردا على عبارة التقديس . وثبتت هي في أثناء ذلك الشعلة وحيتهما تحية المساء .

ـ سأحضر لك الماء أيها الخال بيدريتو... ـ قال دون باستيانون ذلك وخطا بضع خطوات باتجاه المطبخ .

فتدخلت دونيا نيكوميدس :

ـ لا تهتم به يا بيدرو . فزوجي هذا لن يتورع عن جلب الماء لك في قرعة مجوفة...

فالتفت باستيانون :

ـ هذا صحيح... ولكنها ليست قرعة عادية ، إنها ضخمة ؛ فأنا لا أرتوي حين أعطش إلا إذا شربت من قرعة أو إبريق .

ـ وكيف هذا ، ها هو ذا الكأس ، لا تهتم به يا بيدرو .

تناولت دونيا نيكوميدس القرعة المملوءة بماء صاف وأفرغتها في كأس أحضرته لتقدمه إلى أخيها .

ـ فليكافئك الرب... سأذهب ، فأنا مستعجل ، هذا ما يجلبه لنا الأبناء ؛ لحسن الحظ أنكما قد انتهيتما من أمر باستيانثيتو...

ـ ماذا ؟ ألم يخبرك زوجي عن النجاح الذي أصابه في الساحل ؟ فليعطك الرسالة لتقرأها .

ـ لقد تركتها مع دون تيو ، والد كنتي غاوديليا ، لأن باستيانثيتو يطلب فيها أن يلتحق به إلى هناك ليساندرو ومكاريو وخوان سوستينس .

ـ هذه فكرة جيدة ، أن يذهب أزواج بناتك للعمل في الساحل أيضاً .

ـ إنهم لا يريدون يا نيكوميدس ؛ يبدو أنهم قد تزوجوا من البنات من أجل الأرض وهم قانعون بالبقاء لحراستها ، قليل من البلوط ، يقطعونه ؛ إنهم فظيعون .

ـ لقد تزوجوا من الحطب إذن...

ـ هذا ما أظنه ، لأن العروض توفرت لهم ، وهي عروض جيدة للعمل في الساحل ، ولكنهم لا يجازفون...

فتدخل دون باستيانون :

ـ وما الذي سيجازفون به ؟...

وعلقت دونيا نيكوميدس :

ـ إنهم كسالى ؛ من أولئك الرجال الذين لا يحبون عمل شيء ، ممن يضعون الصعوبات في كل شيء . إنهم يحبون تدفئة العش ، وكأنهم الدجاج ، وإنجاب أبناء كثيرين لكي يتركوهم أجلافاً مثلنا ، ويشيخون قبل أوانهم ، لأن الكسل هو ما يسبب الشيخوخة .

الوجه المضطرب ببكاء مكبوح الذي جاء به غوبيريو فرض الصمت على جماعة المسنين الثلاثة . وأخيراً تمكن من الكلام . تكلم وكأنه يوجه الكلمات إلى شعر صدره ، مثل من به قشعريرة حداد . وكان في صوته غم ، غم عميق ، غم مأساوي .

أحضرت دونيا نيكوميدس ماء في كأس أخرى ، وسكبت فيها بضع قطرات من ماء الزهر ، وبعد أن شرب غوبيريو تناولوا جميعهم بضعة كؤوس .

من كل الدروب جاء الناس . الأقارب الكثيرون ، والأصدقاء ، والمعارف ، وحتى الغرباء ممن لديهم وقت لترك أشغالهم والحضور إلى بيت الميتة .

الخال بيدريتو ، مدفون في صمت بهيمة عمل بائسة يسكب دموعه الأبوية ، ويتطلع لمجرد التطلع بعينيه إلى الليل ، بينما بدأ قمر رصاصي بالارتفاع فوق القمم البعيدة . كل شيء كان يبدو ميتاً . الناس يأتون إليه لدى وصولهم ، يعانقونه ويقدمون له التعازي . أقدام بطيئة ومتثاقلة تصعد عبر كل الدروب إلى بيته ، حيث قضت وردة يانعة نحبها للتو ، ضحية أمومة محبطة . لم يكن يصغي لما يقولونه ، ولكنه كان يسمع...

ـ ولكن صهرك هذا أيها الخال بيدريتو ليس إلا بهيمة ؛ كيف لا يترك فسحة من الوقت بين مولود وآخر ؛ إنه حيوان! وهذه هي النتيجة ؛ هو الذي قتلها بحبه الذي مثل حب البهيمة . عندما تتزوج المرأة يجب عليها أن ترى ممن ستتزوج ، عليها أن تتزوج من مسيحي وليس من حيوان لا يعرف ما معنى مضايقته للمرأة ، ولا يبقى للمسكينة إلا أن تستجيب لشريعة الرب وتنجب أبناء وأبناء ، وكأن في ذلك نعمة...

وكان غوبيريو الأرمل يتنقل بين الجميع صامتاً ، بحزن مثل القطن المشبع بالخمر . وكان أبناؤه الصغار ، الأيتام من الأم منذ بضع ساعات ، يلحقون به أينما ذهب . في إحدى اللحظات ، تعلقت طفلة بساقه طالبة منه أن يحملها ، قائلة إن قدميها الحافيتين باردتين لأنه ليس هناك من يساعدها في انتعال حذائها . حملها غوبيريو . وبينما هو يحملها بالت عليه . ولكن لم يكن لديه متسع حتى لنفض ماء الصغيرة الذي نفذ من كمه وبلل ذراعه ، لأن ابناً آخر أكبر سناً كان يستدعيه لكي يشعل مصباحاً في المطبخ ، بينما صغير آخر يشد طرف سترته لكي يحمله إلى النوم .

برودة الميتة ، في الغرفة التي كانت ممددة فيها ، كانت تنتقل إلى الجو ، إلى الهواء ، إلى ضوء القنديل ، إلى الأثاث وإلى أُطرٍ فيها صور قديسين وصور أخرى بين سعف أحد الشعانين لمواجهة العواصف . يداها . . يدا المرأة العاملة ، ذراعاها الهزيلتان . . ذراعا امرأة كثيرة الإنجاب ، وجهها البيضوي وسط شعرها الأسود الكهرماني الذي سرحوه لها مفروقاً من منتصفه إلى قسمين ، عيناها مغلقتان تحت جبهتها العريضة ، فمها ذو الشفتين المكتنزتين . جاؤوا فيما بعد بمنديل وربطوا وجهها ، وكأنها تعاني من ألم في ضرسها . لكي لا يتهدل فكها . وفكر الخال بيدريتو : وكأن تهدله مهماً ، فابنته الآن لم يعد يهمها في شيء أن يتهدل فكها أو لا يتهدل ...

وفي أثناء ذلك ، وفوق رابية ، حيث توجد المقبرة ، كان رجلان يحفران القبر ، فيتوقفان بين حين وآخر ليتنفسا ذلك المزيج من الأرض المفتوحة ورائحة السوكيناي[1] النفاذة ؛ رائحة تبعث على النشوة وتدفع إلى التنهد . كان الوقت ليلاً ، وكان الرجلان يعملان على ضوء موقد كبير . سينهيان حفر القبر لكي يذهبا للسهر على الميتة دون همّ . كانا يضربان وكأنهما يضربان في فراغ ناقوس أصم . أحدهما يحفر ، يشق الأرض ، يوجه الضربات بالقضيب الحديدي ذي الرأس الحاد ، ليحفر القبر ، وحين يتوقف هذا عن الحفر ، ينحني الآخر أكثر فأكثر في الحفرة ليُخرج التراب بالرفش في أول الأمر ، ثم بدلو يملأه الآن ويخرجه قليلاً قليلاً . كانا يتعرقان . وكانت النجوم كأنها عيون بشر تنظر من تحت الماء . بشر ذوو عيون ذهبية . بشر سماويون . ربما هم ملائكة .

---

(١) السوكيناي (suquinay) : نبتة ذات أزهار تعطي رحيقاً شديد الحلاوة .

ـ لقد سخن الفرن وصار من الممكن أن يبرد!... ـ صاح بذلك عدة مرات صوت امرأة في الفناء ، وراء البيت . كانت الرؤية ضعيفة ، فمع أن القمر قد طلع باكراً ، إلا أن الغيوم القاتمة كانت تحجبه سريعاً . شجرة أرز يستند إليها سلّم يغص بطيور داجنة لا تكاد تتحرك ، وكأنها تعرف أن هناك ميتاً في البيت . جذع شجرة محفور ومملوء بالماء من أجل العربات . بعض الأحجار ، يبدو أنها مناشر غسيل : أجل ، فهناك بنطال منشور عليها ، وبرميلا ماء تغطيهما القمامة ، يقلبهما انعكاس الليل فيهما إلى حدقتي تمساح .

ـ لقد آذيتِ عيني! ـ صرخ أحدهم لدى ذهاب كتلتين باتجاه الفرن . ويبدو أنه كان رجلاً بالنظر إلى صوته .

ـ وكان يمكن أن أقلعها لوقاحتك ، ماذا تظن... أنت قليل الحياء... ألا ترى أن هناك ميتاً...

ـ لا تكوني هكذا...

ـ سأصرخ...

ـ سيبرد الفرن ، أسرعوا ، لست أدري ماذا تنتظرون!...

ـ بائس ، ولكنني سأجعلك تدفع الثمن... إنهم ينادوننا... سألقي بهذا

الفناء الخلفي كله ، وهو غارق في الظلام ، كان يغص بالهمسات الغرامية ، وكأن الدجاجات والديوك تحلم بأنها بشر ، وأن البشر قد تحولوا إلى دجاجات وديوك وراء البيت مستغلين فرصة السهر على الميتة .

بين حين وآخر كانت تخرج إحدى العجائز حاملة قنديلاً . ترفع ذراعها لكي تضيء بصورة أفضل ، ولكنها لا ترى شيئاً .

في الممر ، قبالة البيت ، حيث المدخل ، وضعت كراس ومقاعد ، كل ما يمكن الجلوس عليه في البيت وفي البيوت المجاورة . وكل من يدخل ، حاملاً قبعته بيده ، كان يمر بين صفين من الجالسين ، رجالاً ونساء يحيونه بصوت خافت ، تأدباً ، رداً على تحياته ، أو بنبرة أكثر مودة حين يكونون من معارفه أو أصدقائه . ويعرضون عليه في هذه الحالة مكاناً للجلوس ، يدعونه لكي يجلس بصوت خافت أيضاً .

في غرف البيت ، ينتقل الأقارب من غرفة إلى أخرى وكأنهم مضروبون ولا يعرفون أين تلقوا الضربة . بعضهم يجلسون على الأسرة بعد أن يتجولوا من مكان إلى آخر ، أو يبقون واقفين وهم يتحدثون ويدخنون . بعض الأشخاص المتطوعين يقدمون كؤوساً من الخمر أو يعدون الخبز والأطباق من أجل تقديم شيء ما بعد منتصف الليل .

انتقلت رسالة باستيانثيتو كوخوبول من يد إلى يد ، ومن لم يعلق بكلمة طيبة أو خبيثة ، بالموافقة أو بالرفض ، فلأنه لم يشأ ذلك .

ـ إنها أكاذيب! ـ يقول أحد أصهار الخال بيدريتو ، ولكنه ليس غوبيريو ، ويضيف :ـ وحتى لو كانت حقائق ، من يترك أبواه ويذهب ليجني الثمار في مكان آخر!

لم يكن الخال بيدريتو يصغي ولكنه كان يسمع...

ـ الثمار التي بقيتم تجنونها هنا يا أصهاري هي ثمار مرة ، إنها ثمار الموت ؛ الكسل ، والبقاء بيد فوق يد يولّد الرغبة في البقاء طوال الوقت مع المرأة ومعاشرتها . طوبى للأبناء الذين يهجرون آباءهم ، ينفصلون عنهم ويمضون ليغرسوا شجرة وارفة حيث يتيح لهم الرب! بورك الأبناء الذين لا يتحولون إلى قشور للأسرة ؛ قشور لا تنفع في شيء سوى زيادة جفاف

الشيوخ ، ويمضون بعيداً ويزهرون أغصاناً وقطوفاً ، لكي يعودوا فيما بعد ، هم أنفسهم أو رسائلهم ليجددوا شباب الجذع العتيق ، لأن الآباء سيشعرون بتجدد شبابهم مع أولئك الأبناء الذين عرفوا كيف يستخلصون رحيق الحياة ، ولم يؤبدوا رماد سكينة الموت!

ـ ما تقوله الرسالة ليس جديداً أبداً ـ استخلص أحد الحاضرين ـ ؛ فمن الذي لا يعرف أن زراعة الموز هي الأوفر ربحاً ؟ ولكن هناك أمراضاً كثيرة في تلك الأماكن ، وأخطاراً كثيرة ، ولدينا نموذج على ذلك . فرئتا كوتشو تبدوان مثل الطبول كلما أطلق سعاله...

ـ أنت تعجبني حقا . ألا ترى أنه لا بد من بعض المخاطر . فكم جميل أن تكون البطاطا مقشرة ، أن تكون الأرض طيبة للزراعة والمحصول وفيراً دون أية أخطار . من الأفضل أن تموت إذا كنت تريد ذلك ، وأن تذهب إلى الجنة . أجل ، لا حاجة للسعي ، فأحدكم يرى أنه على أحسن حال هكذا ، مثلما أنتم الآن ؛ يفتقد أشياء كثيرة ، ولكنه يبقى راضياً ، هذه الحال أفضل لكم...

لم يكن الخال بيدريتو يصغي ولكنه كان يسمع .

ـ غَرْسُ شجرة ، إنجابُ ابن... نحن هنا أنجبنا الكثير من الأبناء ، ولكن لا يمكن اعتبار أي واحد منهم ابناً بالمعنى الذي يجب أن يعنيه الابن ، أي أن يكون استمراراً لأحدنا... أما فيما يتعلق بغرس شجرة ، فيا للعنة ، لقد قطعنا الأشجار كلها هنا وجعلنا منها حطباً ونحن نعيش على تدمير الغابات!

داهمت البيت خشخشة أوراق يذروها هواء الليل . بدت وكأنها تحمل الميتة التي صارت أشد صفرة وهي تبتعد أكثر فأكثر عن الحياة ، لقد تحولت إلى كيس من جلد جاف ، من جلد آخذ بالتجعد ، مع تلون بنفسجي باهت بدأ يظهر مع الفجر .

دخلت دومينيكا ، ابنة الخال بيدريتو الثانية ، بتكور ضخم في بطنها . وكان زوجها الفلاح ذو الشعر المنتصب يتكلم عن رسالة باستيانثيتو .

ـ هذا الذي تقوله كلام بلا معنى يا بيخوكو... ـ اعترضه دون باستيانون في إحدى الغرف ، وكان يدخن سيجاراً بجانبه .

ـ ليس مجرد كلام ، فأنا يمكنني تحمل كل شيء إلا أن يقولوا لي اذهب إلى الساحل ، حيث يوجد الكثير من البعوض ؛ صحيح أن أحدنا يعاني هنا ، وصحيح أن ما نكسبه ليس بالشيء العظيم ، وأن الأرض قد أجدبت ، وأنه من المحزن رؤية الذرة والفاصولياء التي تنتجها ، ولكن إذا ما سمدناها...

فقال دون تيو :

ـ ولكن السماد مكلف ، لا يمكننا عمل ذلك إلا بأن نأكل ما تبقى من غابات البلوط التي نبيعها حطباً ، ونأخذ جميعنا بالتغوط .

ـ ستبقى أنت أيها الخال تيو الشخص البذيء نفسه على الدوام!

ـ وأنت ستبقى الحطبة اليابسة نفسها ، حيث ولدت ستبقى ؛ تحمل مسؤولية الأسرة التي ألقيتها على كاهلك فهذا الحمل الذي في بطن دومينيكا سيكون السابع...

ـ سيكون الحال أسوأ إذا ما تبجحت وذهبت إلى الساحل لأموت بحمى المستنقعات أو أي حمى أخرى من تلك ، أو أن أعود من هناك عاجزاً ودون نفع مثلما عاد كوتشو .

ـ إنك تموت هنا شيئاً فشيئاً من الفقر ، ولست وحدك الذي تموت ، وإنما أسرتك كلها ، لأنه لا يوجد ما يكفي للطعام ، وما يكفي للدواء ، لا

يوجد ما يكفي لكي يكون أبناؤك مثلما يجب أن يكونوا ، إنهم يكبرون بسيقان تبدو كأنها الأسلاك ، بوجوه متسخة ، مجرد أقنعة أجنة ، ببطون تملؤها الديدان ، ولا يمكن لأثداء الأمهات أن تمدهم بما يحتاجونه .

السعال كان يدل على الجماعة التي يجلس معها كوتشو الذي يزداد تحدباً بعينين زجاجيتين غائرتين في عظام وجهه ، ورموش خشنة تتدلى من حاجبيه ، وبأنف له رهافة الموت .

ـ تسألني من أنا ؟ ـ قال كوتشو لضرير دنا ليحيه وراح يلمس ثيابه الخشنة ، المصنوعة من صوف وبري ، بينما جماعة الجالسين يطلبون من الأعمى أن يتعرف عليه .

ـ من صوتك أقول إنك... من أنت ؟

ـ حزر فزر... أنا مريض يبشر بالحياة بين رجال أصحاء ، لم يحرمهم الله الصحة والعقل واليدين للعمل وسنوات شباب ينطلقون فيها...

ـ أنت أحد موتى الشركة!...

حتى كوتشو نفسه ضحك من فكرة الأعمى .

ـ هذا أنا بالضبط ، أحد موتى شركة المآتم ، ميت استنفد الصوت الذي في صدره وهو ينصح جيشاً من الشباب بالذهاب من هنا للعمل في الساحل ، حيث بدأ صراع الرجال الرجال ، من أجل صراع الأرض مع البحر .

وقال أحد الجالسين :

ـ كلامك جميل يا كوتشو ، ولكنك لن تقنعهم...

ـ إذا أنا لم أقنع الأبالسة ، فإنهم سيسمعون على الأقل!

ـ «الرجال الرجال»... تعني الذين هم في مثل حالتك!

ـ الكسل يحول الرجال إلى نساء ؛ حمقى يتجولون متبجحين ومن الخير لهم أن يلبسوا التنانير!

سعل كوتشو وسعل وسعل... وبعد نوبة السعال الأجش ، أخرج منديلاً من الحرير ليتمخط ، وحين أمسك طرف أنفه الحاد ، ذرعت القشعريرة فقرات ظهره ، وهزت كاحليه ، ومعصميه ، وشحمتي أذنيه الشفافتين .

ـ أتقول الصراع مع البحر يا كوتشو ، دعني أضحك! ـ مَنْ قال ذلك بين الجماعة دنا منه ليربت على ظهره .

وقال الضرير :

ـ أقسم بالله لو كانت لي عينان لذهبت للصراع مع البحر ، لأن هذا كما يخيل إليّ هو أكثر الأعمال شجاعة . هناك بانسون يملكون عيوناً وليس لديهم الشجاعة لترك هذه الأراضي المخربة والذهاب ليروا ما الذي سيكسبونه هناك!

ـ أنت يا كوتشو ، اشرح لنا جيداً هذا الذي تقوله عن الصراع مع البحر ؛ فأنا أعتقد بأنك أنت نفسك لا تعرف ما الذي يعنيه ، وأنه مجرد كلام من كلامك .

ـ هذا ما يحدث لأحدنا عندما يكلم أناساً لم يخرجوا من تنانير أمهاتهم ، أو أنهم خرجوا من تنورة أمهم لينتقلوا إلى تنورة الزوجة . الصراع مع البحر في رأيي هو أن يكون المرء مثل أشجار الساحل التي تنزل حتى الإنهاك . تأملوا ، ما بين الزبد والصخور تظهر غصون أشجار المانجا الخضراء وغيرها من الأشجار الفحلة التي تقف في مواجهة البحر . آلاف الجذوع والأغصان والأوراق تخوض معركة متواصلة مع الأمواج ، والأسوأ

عندما تكون هناك عاصفة ، ولهذا لم يحمل البحر اليابسة في هذا الجانب . ولكن ، من الذي يقف وراء هذه الأشجار ؟ من هم الذين هناك ؟... لا أحد منا...

ـ البحر يذهب ، البحر يجيء... أنا أيضاً رأيته يا كوتشو...

ـ ولهذا لا أتعب من الترديد بأن مكان من يتمتعون بالصحة هو هناك ، حيث للأخضر خضرة لون الببغاوات ، وكل شيء يثمر بوفرة... لماذا المزيد من الذرة إذا كانت العرانيس تتضاعف ، وحقول الفاصولياء تبدو لطخات وحام في وجه امرأة حبلى . تأملوا حضراتكم ، عندما أنظر إلى الزرع هنا يراودني إحساس بأنها ليست أوراقاً تلك التي تخرج من الأرض ، بل ريش دجاجات ميتة...

وقال الأعمى :

ـ عندما كنتُ شاباً مرَّ من هنا باحث عن الأخشاب الثمينة وأراد أن يأخذني معه لاستكشاف تلك الأراضي المطلة على البحر الباسفيكي ؛ وكنت سأذهب معه ، ولكني لم أذهب ، فقد تبدت لي الحياة المريحة في بيت أبويّ ، وعقبة الحب الوفي ؛ وكان يشق عليّ ترك العجوزين ، ودوامة الأقارب والزائرين ، وحفلات الأصدقاء ، والخطيبة ، وكل ما انتهى عندما فقدتُ البصر عشية عيد كونثيبثيون ذاك ، حين انفجر سهم ناري في وجهي... لو أنني ذهبت مع ذلك الباحث عن الأخشاب ، لكنت ـ والله أعلم ـ ما فقدت عيني الآن ، أو أنني سأكون الأعمى نفسه إذا كان الله قد قدر ذلك ، ولكنني لن أكون فقيراً... ـ تنهد الأعمى بعمق ، وهز رأسه ذا الغرة التي كعرف حصان أشهب ، وأضاف : ـ يا للشيطان... سأذهب لألمس الميتة ، أريد أن أتأكد أنها هي نفسها الميتة ، المرأة صاحبة أطيب قلب ، والتي ما

الخمر ، والخبز ، ويوزعون سجائر أوراق الذرة وأخرى ذات ورق أصفر ، نساء متلفعات بشالات ومناديل حداد ؛ وأمام قناديل الغاز ، كان لاعبو النرد والورق يجلسون القرفصاء .

وكان عاشق ناعس يحس تحت طرف إصبعه بدماء محبوبته تتدفق وهو يتابع خط الوريد في اليد التي بجانب القلب . فليلة الميتة تلك هي الليلة الأولى التي يمضيها العاشقان معاً ، وليُظهرا ذلك كانا يبديان شيئاً من الكآبة المراهقة .

ـ الحب ، ولكن بعيداً عن أراضي الرماد هذه ، أراضي الرماد هذه التي لا تنفع في شيء ، حيث لا تنمو سوى شجيرات تنتج أشواكاً ، عوسجاً ، رماحاً خضراء تبرز من شجيرات التفاح البري والصبار . الحب ، ولكن بعيداً عن صخور الأحجار الكلسية هذه ، حيث لا يوجد أمل بأن يزهر أي شيء... والموت ، الموت أيضاً بعيداً عن هنا ، حيث يظهر المرء فجأة وقد تحول إلى ما هو أسوأ من جذع بائس مستنفد ، من جبل ناشف ، من شبكة عنكبوت فيها ذبابات هرمة وراتينج نباتي ، حيث يبدو الندى كأنه الدموع... لو كان الأمر بيدي لحملت ابنتي الميتة لدفنها بعيداً ، بعيداً عن رجوم الأحجار هذه ، بعيداً عن تراب الطوب المشؤوم هذا ، لكي تتحول في المستقبل ، غداً بالذات ، إلى وردة ، ثمرة ، ورقة ، وليس إلى طوبة ، أو نبتة كسيحة ، أو شجرة دون ربيع .

جئن النساء قبيل بزوغ الفجر وصلين في الحجرة التي تسجى فيها الجثة . وكانت الشموع تكاد لا تظهر في القناديل بعد أن أُشعلت طوال الليل . وعلى الكراسي والمقاعد كان بعض من سهروا على الميتة يغفون واضعين قبعاتهم على وجوههم ، وآخرون متحسسون للبرد يمضون بخطوات

مترنحة ، متدثرين بعباءات البونتشو والبطانيات ، فضلاً عن ملابسهم السميكة ، متوجهين إلى المطبخ بحثاً عن قهوة ساخنة وعجة فاصولياء من تلك التي تبدو في الصباح مترمدة ، ولكنها تبقى صالحة للأكل . وكان لاعبو النرد والورق ما يزالون يجلسون القرفصاء حول القناديل المضاءة ، مع أن النهار قد طلع ، ويقومون بمراهناتهم الأخيرة بوجوه انتحارية . ولم يعدم وجود مخمور يطلق الفواق . وكانت بحة سعال كوتشو قد ازدادت حدة مع ضوء الفجر . وعلى اليد التي إلى جهة القلب كانت يد العاشق تتابع درب الدم في وريد خطيبته .

الفصل السابع

أصدقاء ليلاند فوستر ، زوجة العجوز جون بيل ، بقوا هم أنفسهم أصدقاء ليلاند المتزوجة من ليستر ميد ، لأن الذهاب لزيارتهما ، إضافة إلى أشياء أخرى ، كان أمراً ممتعاً في مكان يغطي فيه الزبد مائدة الساحل كشرشف احتفالي ويبدو المشهد مشرقاً على الدوام بالشمس ، وبأشجار نخيل عالية ، وطيور بحرية ، وغسقات ، وكل هذا دون أن يخلو صالون البيت الصغير والمريح من البيانو والويسكي والسجائر والكتب والمجلات . الصديق الجديد الوحيد هو توم بيكر . وهو رجل طويل جداً ، يبلغ طول قامته أقداماً كثيرة . فيبدو رأسه صغيراً لشدة طول قامته . وهو أشقر جداً . شعره بلون العسل الأبيض . والخاصية المميزة لوجهه التي تمنحه مظهر كلب لطيف ، هي أسنانه البارزة باتجاه الشفة السفلى .

بينما ليلاند تسند ذراعها إلى حافة البيانو الذي بقي وراءها ، مدت ذراعها الأخرى لتتناول ورقة من النوتة الموسيقية المفتوحة على الحامل ؛ ولكنها لم تتوصل إلى لمسها ، لأن توم بيكر قال شيئاً كانت ستدحضه على الفور لو لم يسبقها زوجها ليستر إلى القول :

_ *أحبتني للمخاطر التي مررت بها* .

وأحببتها عزاء لنفسي من تلك المخاطر .
وكانت هذه هي شعوذتي الوحيدة .
السيدة ؛ انظروا ، يمكنني إثبات ذلك...

ـ أحببت المورو لكي أعيش مصيره ، إرادتي العنيدة وازدرائي لمستقبل العالم يستدعيان ذلك... ـ قالت ليلاند وهي تهز رأسها ذا الذهب الأخضر ، بينما توم الطويل يكشف عن رؤوس أسنانه بابتسامة ارتياب باردة .

وكان قد دخل من العمق كارل روس ، الذي كان لا يكاد يستطيع حمل الغليون بعد إصابةٍ بالزحار تركته أقرب إلى العظم ، وأضاف بصوت عال ، شبه صارخ :

ـ مورو ، انتبهوا إليه .

كونوا على حذر ، عليّ أن أنبهكم :
فمن خدعت رجلاً ، يمكنها أن تخدعكم...

انفجر الجميع مقهقهين ، ثم قال توم بيكر ، وهو يخفي أسنانه ليختم المشهد :

ـ سأرمي بنفسي إلى البحر الآن حالاً...

كان البحر يُسمع قريباً ، مدوياً ، مثل ديكور للخلفية ، بينما كل واحد من الأصدقاء المستحمين بالعرق يحمل كأسه في قبضته ، ويتلقون الويسكي الذي تسكبه لهم ليلاند . ثم يضيف كل واحد منهم الثلج والصودا بنفسه .

كان ليستر ميد يُفرغ فوق طبق صغير علبة أنشوفا ، ضارباً العلبة لكي يُخرج منها ما انتشرت رائحته الشهية في أنحاء الصالون الصغير ، ويكمل بذلك تشكيلة مقبلات الزيتون واللوز المملح وقطع الجبن .

إرينه ووكر يصل متأخراً دوماً ؛ ولكنه بالغ قليلاً هذه المرة في « إبقاء القدمين وراء عقارب الساعة » مثلما كان يقول ليحدد عدم دقته في المواعيد . رفع خصلة الشعر ، ودنا ليسكب كثيراً من الويسكي . ونوعه المفضل كان ويسكي اسكوتلندياً معتقاً قوي الرائحة .

ـ فضيحة اليوم! طلاق تيري دازين ونيللي ألكانترا ، لقد انفصلتا! الاثنتان تبدوان وكأن قطار حصى قد مر فوقهما ؛ لقد تشاجرتا طوال ست ساعات متواصلة .

ـ أقترحُ دقيقة صمت حداداً ـ قال كارل روس طالباً بوجهه الزحاري الدعم من توم ذي الأسنان البارزة الذي كان يبدي مشط أسنانه حتى حين يكون فمه مطبقاً .

وهتف توم بيكر :

ـ الفكرة ليست سيئة ، وخصوصاً بالنسبة إلى ليستر الذي لا يتكلم ولا يضحك أبداً .

فتدخلت ليلاند لنجدة زوجها الصموت :

ـ لقد ضحكتَ كثيراً دفعة واحدة ، أليس كذلك يا حبي ؟

وللحظة ، مرت بين جماعة الأصدقاء القدماء صورة ليستر ميد حين كان ما يزال كوسي ويمضي بملابس قصيرة على مقاسه ، بشعره الطويل وحذائه الممزق ، عارضاً « كل ما لابد منه للخياطة » وكادوا أن يسمعوا قهقهته البذيئة : يا ، ها... ، ها ، ها ، ها ، ها...!

ـ إنكم تعرفون جيداً أنني أفضل السماع ـ قال المعني وهو يتناول يد ليلاند التي اقترحت عليهم أن يجلسوا ، لأنهم سيكونون أكثر راحة .

ـ إذا لم تفعلوا ذلك فستكون الكراسي مثل أشياء كثيرة غير مجدية ؛ لم يعد هناك من يجلس ؛ فالجميع قد تحولوا إلى رجال أعمال ، إلى أناس يخرجون من أعمالهم ليتناولوا كأس كوكتيل وقوفاً ؛ وهم يتبادلون الحديث وقوفاً طوال الوقت... من لا يجلسون هم أناس يبعثون على اليأس... لقد انتهت موضة أزمنة الأرائك والمقاعد والكراسي الطيبة ، فليس هناك من يجلس اليوم ، وكأنه لا يتوفر لهم الوقت ، ويقضون ساعات وساعات وهم يتحدثون هكذا ، يرفسون بأقدامهم وكأنهم مقيدون في زريبة... لا شيء يبعث فيَّ اليأس مثل تناول كوكتيل على الواقف في نيويورك ، بعد انتهاء العمل .

دفعت ليلاند عربة صغيرة ، بعد أن بحثت عن هواء يمكن تنفسه في ذلك الجو الساحلي ، لكي تحمل إلى المدخن الويسكي ، وزجاجات الصودا ، والثلج ، والأطباق الصغيرة التي تضم حبات الزيتون ومقبلات أخرى ؛ ولكنهم لم يتحركوا ، وبقوا يتحدثون عن عقار جديد أشد فعالية من الكينين لمقاومة الملاريا .

ـ أنا لا أجد مانعاً من أن أصاب بالملاريا مقابل أن أتخلص من الأرق ؛ فليخترعوا شيئاً للنوم... فأحدنا يصاب باليأس ، ويمص الليل مثل قطعة سكاكر لا تنتهي أبداً ، ويكون مجبراً على ابتلاعها ، لأنه ما إن يحل الظلام حتى يبدأ من لا ينام بالإحساس بالليل في فمه ، مثل شيء يحرقه ، ويجعل لعابه يسيل ، ويهزه...

ـ أنا أمضيت فترة لم أكن أنام فيها ، لم يكن يغمض لي جفن ـ قال توم ذلك ليقول شيئاً بعد الصمت المأتمي الذي أطبقته كلمات إرنيه ووكر .

فأضاف روس :

ـ هذا ليس له دواء...

ولهذا ، يثير الحنق أنهم يكتشفون هذا الدواء أو ذاك ضد الملاريا ، ضد السفلس ، ضد الاسقربوط ، وضد الشيطان ، ولا يخترعون أو يجدون شيئاً يمكن للمرء معه أن يضع رأسه على الوسادة ويغفو فوراً مغلقاً جفنيه بالشمع الأحمر .

ـ ولكن هذا ليس مرضاً...

ـ وما هو إذن...

ـ عادة سيئة...

ـ أتقول عادة سيئة ؟ أنا معتاد على النوم تسع ساعات في بيتي ؛ جئت هنا وبدأت أقضي الليل دون أن أغمض عيني ، ولا يمكنني أن أعيش على المنومات والويسكي ، وعلى الويسكي والمنومات...

بدأ ينبعث لحن رقيق من البيانو . فقد راحت أصابع ليلاند تعزف مقطوعة لموزارت . صمتوا ليسمعوها وهم يستحمون بالعرق من الرأس حتى القدمين ، ثم اقتربوا من البيانو ، لكي يحتلوا المقاعد ، شيئاً فشيئاً ، دون أن يحدثوا ضجة . وبقي توم بيكر وحده واقفاً .

بدؤوا اللعب متأخرين في هذا المساء . خلط ليستر أوراق اللعب بتعبٍ مدورٍ في عينيه . كان الحر شديداً . وكانت المراوح تتثاقل بعد ساعة ، ساعتين ، ثلاث ساعات من الدوران ، ومثل المراوح كانت الأيدي توزع أوراق اللعب في جولة ، وجولة ، وجولة . الجولة الأخيرة . لا . جولة أخرى . أجل ، جولة أخرى . ولا تأتي الجولة الأخيرة أبداً . جولة « كلمةِ الشرف » ستكون هذه هي الأخيرة . ولكن الساعة صارت الرابعة فجراً .

حين يغادر ليستر ميد بيته ، يتحول إلى كوسي ، اسمه الشعبي ، اسمه

الحركي ، ذاك الذي كان يضحك به لكي يبيع بضاعته ، « كل ما لا بد منه من أجل الخياطة » ، يا ، ها... ، ها ، ها ، ها ، ها...! ولهذا لا يحب أن تغيب عليه الشمس وتشرق وهو يلعب ، مثل المحكوم الذي يرى طلوع النهار البديع والقاسي .

ذهب ، فارساً على حصان داكن ، إلى «سميراميس» ، بحثاً عن آديلايدو لوثيرو أو أبنائه ، وفي الطريق التقى مع عمال القطاف الهائجين ، يشهرون مناجل الماتشيتي مثل مشاعل فضية في أيديهم النحاسية ، مظهرين أسنانهم ناصعة البياض ومتوعدين ، كما لو أن السلام في أفواههم يصبح حرباً . عندما رآهم ليستر عرف ما الذي يحدث ؛ فليست هناك أسرار بالنسبة إلى كوسي الشعبي ، وليستر ميد أو ستونر مثلما يسمونه أيضاً ، ما زال بالنسبة إلى عمال القطاف هو رجل الـ يا ـ ها ، ها ، ها ، ها ، ها ، ها...! ذاك المسالم ، والطفل ، والعصفور .

صرخوا به :

ـ لسنا نطالب هذه المرة بتحسين الأجور ، وإنما بضمانات للنساء... إما أن يحترموهن وإلا سنقتل الجميع!

كان عمال القطاف يرفعون الصوت مثلما يرفعون مناجل الماتشيتي ، بينما رائحة النساء تتقلب في أعماقهم ؛ رائحة ملابس النساء تلك ، بين ما هو أشد حميمية ، أشد إثارة للهفة ، باليأس الذي توقظه في دم الذكور ؛ رائحة شعر المرأة تلك ؛ رائحة هواء الساحل الذي هو فرج من شمس وخضرة .

لقد عراها الهمجي ، واستبقى ملابسها معه وتركها تذهب عارية عبر حقل الموز ؛ وخرج لها رجل آخر وطرحها أرضاً ؛ ولكن جاء رجل آخر

وانتزعها منه ، وانتهزت هي هذه الفرصة لتهرب ، وكانت ستتمكن من ذلك ، كانت ستهرب من كل تلك الوحشية لو لم يقطع عليها الطريق التوأمان...

الأرض ، وهي تربة قديمة خبرها كوسي ، هربت بسرعة من تحت قوائم مطيته ، إلى أن غطت المسافة التي تفصل بين جماعة الثائرين وبيت لوثيرو . لم يكن آديلايدو هناك ، ولا أبناؤه كذلك . هكذا أخبرته دونيا روسيليا . لقد ذهبوا لتهدئة الناس الذين رفضوا العمل قبل إحقاق العدالة أولاً . الشمس الرصاصية تولت قتل ومضات الشرف عندما بدأ الرجال يختنقون ، دون برودة عرق في جو النار البيضاء ، وحطمت حرارة حمى الملاريا كل ذلك الاندفاع المتمرد ، تحت قناع أكثر صفرة من البودرة النباتية الكريهة التي يبيعونهم إياها ليرشوها على سرر أبنائهم . جميع المتمردين ، عندما تضغط الشمس والملاريا ، ينتهون إلى تقبل الهزء ، والعار ، والنعش ، مثلما كان يقول آديلايدو لوثيرو ، حتى لا يقول شيئاً عندما يفقد السيطرة على زمام نفسه .

ولكنه كان يمسك أعنته جيداً في هذه المرة ، وقد وجده ليستر ميد يقوم بواجباته . حصانيهما كانا جذعيهما . كل منهما على صهوة جواده . هكذا يجب أن تكون الصفقات . ليستر ميد سأل لوثيرو عن السعر الذين يشترون به الموز .

ـ إنهم يدفعون خمسة وعشرين سنتاً من نقد الذهب ثمناً لكل قرط موز فيه تسعة أكف .

فقال ليستر :

ـ هذه سرقة .

ـ وما هو الشيء الذي ليس سرقة هنا ؟

ـ سأذهب لأشكو...

ـ ما ستفعله هو إضاعة للوقت . من الأفضل أن تبيع . ستتلف الفاكهة وتخسر كل شيء . بع . ما رأيك ؟ الموسم القادم الذي ستجنيه يمنحك وقتاً للذهاب للمطالبة قبل أن تنضج الثمار ، اللهم إلا إذا اضطررت للذهاب إلى شيكاغو .

ـ سأذهب إلى أي مكان...

أدار ليستر حصانه . حين دخل بيته ، ومن أثر الأقدام الموحلة التي تبدو على البلاط ، خمن من هم الموجودين . ابنا لوثيرو ، لينو وخوان ، وباستيانثيتو كوخوبول ، والاخوة آيوك غايتان . جميعهم كانوا يتحدثون مع ليلاند بحماس . هي تنطق أنصاف كلمات ، وهم يكررون ما يقولونه كلمة كلمة لكي تفهم عليهم .

ـ يا للروعة... ـ كانت هذه التحية خاصة بليستر في الزمن الذي كان يبيع فيه كل ما لا بد منه للخياطة .

الجميع تكلموا . وأوقفهم ليستر على الفور ، معلناً لهم أنه قرر الذهاب للتفاوض من أجل تحسين السعر .

ـ ولكن ريثما تذهب وتتكلم ، ستكون ثمارنا قد تعفنت ـ قال باستيانثيتو ذلك مستشيراً رفاقه بعينيه .

ـ ليس مهماً ، سنخسر هذا الموسم ، ولكننا سنفرض السعر ، سيدفعون لنا سعراً عادلاً .

ـ هذا مرغوب من جهة ، لأن هذا هو المرغوب ؛ ولكن... ـ كان مكاريو

آيوك غـايتـان يتكلم ببطء شـديـد ويكرر الكلام ـ ؛ ولكن هناك مـشـكلة أن الثمار ستنضج ويذهب عملنا أدراج الرياح...

وقال خوان سوستينيس لآيوك غايتان وهو يتحرك على ساقيه اللتين مثل ملقط شعر :

ـ لقـد خـمنت دوماً بـأن ثمـة فـخـاً في هذا كله ؛ إنه فخ مـزدوج وقـعنا فيه ، فنحن لن نربح إذا بعنا ، وسنخسر كل شيء إذا نحن لم نبع .

ـ افـعلوا مـا تـشـاؤون ، أمـا أنا فلن أبيع ، لأن روحي هي التي ستـتـعـفن وليس الموز ـ فأفلت الجميع قهقهة ، بمن فيهم ليستر الذي اصطبغ بالحمرة من التـأثر ، وأضـاف قـائلاً :ـ ولكنني لن أبيع قرط مـوز واحـداً ، وليس هذا لأنني أملك ما يجعلني أنتظر ؛ فأنا متخوزق حتى رأسي ، ولكن على الرجل في هذه الأرياف أن يدافع عن نفـسـه في مـواجـهـة من يريدون فـرض قـوانين جائرة .

ـ الجور هنا هو السعر ، والخداع هو التسوية ، لأن هناك خداعاً...

ـ بالـطبع هناك خـداع... ـ قـال ذلك لينو لوثيـرو منضـمـاً إلى مـا يكرره الزعيم معوج السـاقين خوان سوستينيس ، وأضاف :ـ لأنهم إذا كـانوا يبيعون الثمار الآن بسعر أعلى ، فلماذا لا يرفعون لنا السعر بضعة سنتات أخرى ؟

ـ اتفـاق ، اتفـاق... ـ دخلت ليلاند قـائلة ذلك بنصف اسبـانيـتـهـا وهي تحمل حزمة رسائل كانت قد خرجت لتتلقاها عند الباب .

شـرح ليسـتـر لليلاند سبب ذلك الجدال ، ولكنه بدّل اللغة فقط ، لأنه واصل الجدال معها في المسـالة نفسها ، إذ أن زوجته كانت ترى كذلك أنه يجب بيع الثمار بالسعر الذي يريدون دفعه لهم .

حين انتهى من الحوار القصير والعنيف مع ليلاند ، عاد ميد إلى التكلم بالإسبانية وصاح أنه مصرّ على ما قاله : سيذهب ليطالب بأن يدفعوا سعراً عادلاً ، وسيطالب بألا يسخروا من طيب نوايا من يجنون الثمار المزروعة في أراضيهم الخاصة .

ـ اللعنة هي في الخداع . إنهم يقدمون مساعدات من كل نوع . ولا يمكن إنكار ذلك . حتى أنهم قدموا مساعدات لمكافحة الأوبئة . وعندما صارت الثمار جاهزة يرفضون شراءها .

ـ وهنا أرى أنا الخديعة! ـ أكد خوان سوستينيس ، دون أن يتوقف عن تحريك رأسه مثل بندول ضخم لينهي ما قاله خوانتشو لوثيرو .

ـ السعر الذي يشترون به الموز منهم هناك لم ينخفض بالتأكيد . ولكنهم خبيثو النوايا . ماذا يكلفهم لو دفعوا لنا أكثر قليلاً ؟ اللعنة . إنهم أناس أشرار وأسوأ ما في الأمر أنهم يتظاهرون بالطيبة . الخير جعلوه شراً مثلهم . وهذا ما يزعج ، ولكن اللعنة هي في أنهم يبدون بمظهر الكرماء ، الأسخياء...

فصرخ أحد أبناء آيوك غايتان :

ـ ها! وأنت أيضاً بدأت تصبح عاطفياً ، مثل تعساء كثيرين يمضون منفوخي الصدور بامتنان .

ـ لا ، يا تاتا ، فأنا أحد أكثر من قالوا هنا بأن كل خير يقدمه أناس «تروبيكالتانيرا» ، بعيد كل البعد عن أن يكون صدقة وسندفع ثمنه!

وقال باستيانثيتو :

ـ وهنا لا جدوى من الحديث عن الثمار . فقد كنت أمس مع ناظر في

الشركة ، ذاك الذي يمضغ سيجاراً طوال الوقت . مستر... مستر... ما أدراني أنا أي واحد منهم...

وأضاف ليستر :

ـ بالضبط ، لأنهم جميعهم «مستر» بغض النظر عمن هم ، لأنهم جميعهم...

فهتف مكاريو آيوك غايتان :

ـ جميعهم ، أكاد أقول إنهم جمعهم الفظاظة نفسها ، لأن السيد ليستر هو من بلادهم وليس من بلادهم .

وواصل ميد :

ـ ما أردت قوله ، أياً يكون الشخص ، فإنهم حين يصلون إلى هنا يصبحون جميعهم متشابهين ، بل أكثر من ذلك ، يكونون أشخاصاً رائعين ، ولكنهم في وظائفهم ينقلبون... ما أردت قوله يا مكاريو . ـ ولكنه قطع ما كان يقوله ، وأضاف : ـ أيها الأصدقاء ، إذا أردتم أن تبيعوا فيمكنكم عمل ذلك ، أما أنا فلن أبيع .

خرجوا . كانت خطواتهم تُسمع على أرضية البيت وكأنهم يحملون ميتاً . كان باستيانثيتو يضرب القبعة بجانب ساقه ، فوق الطماق ؛ ولينو لوثيرو يمضغ شفته ؛ وخوان سوستينيس يهز رأسه المعلق برقبته التي تبدو شبه مبتورة بثِقل رأسه وتفكيره الموجوع من الجور .

ـ عندما تغادر أنت ، سأبيع أنا الثمار ـ قالت ليلاند بصوت متعب ، وسط حر رهيب ، باحثة عن الراحة عند إحدى المراوح ،

ـ لن تبيعيها ، فهي تكلف أكثر مما سيدفعون ثمناً لها ، وهذا ما لا

يمكن فعله أبداً ؛ فالتساهل مع الجور هو بداية كل الهزيمة الأخلاقية لما يسمى حضارتنا المسيحية .

ـ ولكنهم هم الأقوياء يا صغيري .

ـ إنهم الأقوياء اليوم ، يا للشياطين! ، لأنهم يسرقوننا ؛ ولكن من الممكن تبديل أسنان النعجة البيضاء ؛ فأنت ، يا من كنت تكتبين قصصاً لتلك المجلات التي تُظهرنا في العالم بطفولية كأننا أطفال مسنون ، عليك أن تكتبي الآن ، ليس قصة الذئب المتخفي في جلد نعجة ، فهذه قصة قديمة جداً ، قديمة إلى حد العفونة ، وإنما قصة النعجة التي ركّب لها طبيب الأسنان طقم أسنان ذئب لكي تتمكن من العيش بين الذئاب .

*

قبعة على رأس رجل ، وحقيبة بجانب الرجل ، وغليون في فم الرجل . الخطوة الواثقة ، المدوية التي رافقته حتى الدهليز الحجري ، تلاشت فجأة ، وكأنها ضاعت في أرض حلم . لم ينظر إلى أسفل ، لأنه أحس جيداً تحت نعل حذائه بأنها السجادة المفروشة في إدارة «شركة تروبيكال للموز المغفلة» ، في المتربول الصغيرة .

قال له المدير العام :

ـ سيد ليستر ، لستُ أنوي الضرر بمصالحكم ، ولكننا لا نستطيع شراء ثمار بهذا السعر .

ـ يمكنني أن أنتظر إلى أن ترسل برقية ، إلى أن تتوجه إلى المكتب الرئيسي ؛ ويمكنك أن تتصل هاتفياً بشيكاغو ؛ فالأمر مسألة ساعات وإلا سنخسر ثمارنا...

ـ لا يمكنني يا سيد ليستر أن أضيع وقتي ، فوقتي أثمن من ثماركم . لقد ألقينا إلى البحر قبل قليل شحنتين من الثمار .

ـ ولكن...

ـ شحنتان من الثمار يبلغ مجموعهما مليون قرط موز ، ألقيتا إلى البحر .

قطب ليستر ميد حاجبيه ، أخرج غليونه ليملأه تبغاً ، بينما المدير يرد على موظف جاء يذكره بموعد ذهابه إلى ملعب الغولف ؛ ولدى خروج الموظف ، نهض ميد واقفاً ، وصافح يد المدير وانصرف ، خطوة خطوة ، إلى أن التقى بوقع قدميه على بلاط الدهليز .

حقائبه واصلت الرحلة معه عبر الأطلسي . ليس هناك ما هو أشد كآبة من هذه السفن التي تبدو مثل قبور مبيضة ، تلك السفن التي تأتي بالسم المضاد لحشرات الموز ، وتحمل إلى الأسواق الكبرى قطوف الموز العملاقة .

ـ أسطول الجثث البيضاء ـ قال ميد للزنجي الذي يخدمه في القمرة والذي كان كلما دخل أو خرج يثير انطباعاً بأنه سيصدم رأسه بأعلى الباب ، وهو ما لم يكن يحدث لأنه كان يحني رأسه في اللحظة المناسبة .

بعض موظفي شركة الموز العظمى كانوا يسافرون في إجازات ، دون أن يفقدوا عاداتهم كعصافير مكاتب ، بملابس تنبعث منها روائح أدوية واضحة .

كان ليستر ميد ما يزال في نظر بعض هؤلاء الموظفين هو كوسي صاحب القهقهة (يا ـ ها ، ها ،ها ،ها ،ها...) ، ولكن بنمط آخر من الهوس : فهو يريد أن يشرح لهم أنه لا يمكن لأي واحد منهم أن يعرف ما تعنيه

زراعة هذا البؤس العابق برائحة الرطوبة ، بلون القهوة الوسخة ، والذي يكاد يشبه قطعة من الورم ، ورؤيته دون حراك لأيام طويلة ، لكي يبدأ فجأة الحركة والنمو والنمو حتى يتحول إلى نبتة عجيبة .

انتبه راع بروتستاني إلى أن المسافرين يهربون من ليستر . وقد توافقوا فيما بينهم تقريباً على نظام تجسس كيلا يلتقوا بذلك المجنون الطليق . فهم يستخدمون إشارات بالأيدي ، وصفيراً قصيراً ، و«تشي ، تشي ، تشي» سريعة لكي يشيروا إلى وجوده ، فيعمد من يتقدم منهم عبر ممر إلى الرجوع ، ومن يكون على سطح المركب يتأمل البحر ، يهرع إلى الجهة المعاكسة لتلك التي يأتي منها ميد ، ومن يكون ذاهباً للجلوس في الصالة ، يمتنع عن الجلوس حين يراه داخلاً ، أما إذا كان في الصالون ، فيبحث أحدهم عن ملجأ في قمرته .

اهتم الراعي البروتستانتي بذلك المجنون غير المؤذي . وكانت السفينة تتراقص مثل قشرة بيضة في خليج المكسيك ، ولكن ذلك لم يمنع الراعي من التشبث بالجدران وبالدرابزينات ليصل إلى أحد المقاعد على السطح ويجلس إلى جانب ليستر ميد .

جبال ووهاد من الماء ؛ لا بد أن الأرض كانت هكذا في طور تشكلها ، ولكن بدلاً من الماء كانت هناك مواد تفور ، مواد صلبة ، غادرة ، عكرة . وما كان يهم ليستر ميد ، بينما هو يتذكر مع الراعي قراءات تَشَكُّل الكوكب الأرضي ، هو تقصي اللحظة التي اعتبر فيها الإنسان النبتة منتجة الموز حليفاً له .

اعتدل في مقعده بعينيه الخضراوين ، الخضراوين ، وأنفه المعقوف ووجهه المحروق بالشمس :

ـ وهل تعتقد حضرتك أيها المحترم أن الأرض ، وأن المواد النارية ، وأن الحياة قد سعت لإنتاج هذه النبتة لكي يحقق هؤلاء الخبثاء ثراء دون حدود إلى أن يتحولوا إلى أقوى المجموعات المالية في الكاريبي ؟

قام الراعي ببعض الإحالات إلى الأناجيل . وكان ليستر قد اعتدل أكثر ، وإن كان قد تشبث بالمقعد ، لأن السفينة كانت تمضي وكأنها على صهوات أمهرٍ تُروض ، وهتف :

ـ آه! ولكن أيها المحترم ، مهما طوعت لغة الأناجيل ، فإن هذا سيبقى غير مطاوع ، ليس له نبرة وسيطة ، ولا يسمح بحلول وسط ، ولا يتقبل إصلاحاً : « إذا كانت يدك اليمنى تُعثِرك فاقطعها وألقها عنك... » أترى مهمة رجال الدين هي مصالحة هذه التعاليم التي لا يمكن تطويعها لتلائم أذواق الناس ، وخصوصاً أولئك الذين يجنون ملايينهم من استغلال الأرض والإنسان الذي يعمل في الأرض ، متصرفين كقطاع الطرق ، دون أن تكون هناك حاجة لأن يكونوا أوغاداً ـ وبعد صمت قصير ملأه البحر بصخب الموج الذي يصفع هيكل السفينة ، وحجرة الآلات بارتجاجها المتواصل ، تابع ليستر ميد ـ ولكي يتخلص أحدهم من كونه الغني الوغد ، يصبح مليونيراً . هذا هو المليونير ، إنه الغني الذي ينعم بترف التخلص من كونه وغداً...

القبعة ، والحقيبتان ، والغليون . وحيداً بين ملايين السكان ، ينتظر الإشارة الضوئية التي ستسمح بالمرور للسيارة التي كان فيها ، والتي استأجرها عند خروجه من محطة شيكاغو بعد وصوله إليها بالقطار قادماً من نيويورك .

نام طوال الليل ، واستيقظ مبكراً جداً . ومن سريره كان يتابع ضجة المدينة الهائلة التي راحت تستيقظ تحت دثار كتيم من الضباب القاتم . فرك

جسده ما بين ملاءات الكتان الإنكليزي اللذيذة لكي يتمطى ، وأغرق رأسه في الوسادة مغمضاً عينيه بقوة ، لكي يفتح رموشه بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، ويشعر برموشه المفتوحة قليلاً كيف يداهمه إحساس بالامتنان تجاه الحياة التي قادته بعيداً عن تلك المدن ، إلى عالم النبات في حقول موزه .

حلق ذقنه ، استحم ، ارتدى ملابسه مستعجلاً . قبعته ، وحافظة أوراقه ، وغليونه . الوقت . الساعة . الركض لركوب المصعد والنزول . البوابة . الشارع . الصراع للمرور بين آلاف العابرين ليصل إلى أول سيارة أجرة فارغة .

البابا الأخضر ينتظره . اللغة تبدو مزحة سمجة في هذه الحالة . البابا الأخضر ينتظره ، ولكنه هو الذي اضطر إلى إضاعة نحو ثلاث ساعات لكي يتمكن من المثول بين يديه .

أعلى مقام في شركة «تروبيكال للموز المغفلة» ، يرتدي بدلة رمادية من قماش فاخر ، وقميصاً بلون السلمون من الحرير الإيطالي ، وربطة عنق صفراء ، كان ينتظره وراء مكتبه . وحين رآه يدخل ، نهض واقفاً ، ومد يده مصافحاً وقدم له مقعداً .

كانا وجهاً لوجه . البابا الأخضر في مقعده الدوار ، ينظر إليه بعينين ضيقتين تافهتين من وراء عدستي نظارة سميكتين مثبتتين في إطار من درع سلحفاة ذات لون أبنوسي قاتم جداً ، وكان هو أيضاً ينظر إليه . إنها لحظة سريعة جداً تلك التي يوفرها شخصان يلتقيان أول مرة ليتفحص كل منهما الآخر بدقة . سيجارة . استند البابا الأخضر إلى الوراء في مقعده لكي يرد على ليستر ميد .

ـ نحن متفقان يا سيد ميد ، فكل ما تقوله صحيح ؛ ولكن الأمر ليس

في عدم قدرتنا على شراء الثمار بسعر أعلى وحسب ، وإنما في إنني أصدرت أمراً بوقف الشراء نهائياً .

ـ هذا جحود...

ـ نحن شركة تجارية والشركة التجارية يا سيد ميد ليست مؤسسة تعاون مشترك ، اللهم إلا إذا كانت جنة عدن التي يولدها المليونير الغيري تؤدي إلى اعتبار «شركة تروبيكال للموز المغفلة» مؤسسة خيرية للإنسانية ، بينما هي في الحقيقة مجموعة مالية .

ـ ألا تعتقد حضرتك أن هناك مساهمين في «تروبيكال للموز المغفلة» لا يرغبون في أن تتضاعف أموالهم بهذه الطريقة ، وأنهم سيشعرون بالخجل لمجرد تصورهم الأساليب المتبعة ؟

ـ المساهمون لا يرون سوى حصتهم من الأرباح...

ـ وهل تعرفهم... هل تعرفهم جميعهم ؟

ـ هذا غير مهم . فهم ليسوا أشخاصاً ، إنهم أسهم .

ـ هذا مؤسف ، لأن بعض المساهمين سيتضايقون . معظمهم يجهلون أن حصتهم من الأرباح تأتي من صفقات غير مشروعة . فلو عرف المساهمون بأنه مقابل أرباحهم الهائلة ، الخيالية ، يجري خلق أفظع طابور خامس ضدنا ، ذاك الذي يولد دون أي أمل...

كان ميد يشعر تحت مظهره الهادئ بالدماء تغلي في عروقه ، وكما لو أنها تفور تحت جلده .

وكان البابا الأخضر ينظر إليه بعينيه الضيقتين الدوديتين ، من وراء عدستين سميكتين تشكلان مع أضواء منضدة المكتب دوائر متحدة

المركز ، كما لو أن العينين الصغيرتين المتسلطتين ، غير المعبرتين والثابتتين ، والرصاصيتين موجودتان في نهاية لفافتين مضيئتين ، في أقصى قناتين حلزونيتين .

ـ لو عرف المساهمون ما تعنيه زراعة قطعة من الأرض ، زراعتها بالموز ، ثم حمل الثمار عندما تطلع بعد ذلك مثل أعذب أمل في الحياة ، ونقلها بمشقة وحذر في عربات تجرها الجواميس أو على البغال ووضعها هناك حيث يمكن أن تباع ، والانتظار تحت الشمس لساعات طويلة ، والامتلاء بالأوهام حول الفائدة من ثمرة العمل الشريف ، ثم تلقي الرد السلبي المفاجئ من المراقب الذي يرفض شراء أقراط الموز لألف سبب تتدخل في هذه الأمور ، ويتحول الانتاج كله إلى الثمر المهجور بجانب السكة الحديد ، مثل شيء ميت ، مثل شيء بلا قيمة ، زُرِعَ دون جدوى ، لأنه بلا ثمن ، لأنه لا يمثل شيئاً ذا قيمة لأحد ، لا نفع فيه لمن أنتجه ، ولا للشركة ، ولا حتى لتقديمه هدية... ويبقى أحدنا مع جثة كائن غير ميت كلفه الكثير ، وهو غير ميت لأنه حي ، لأنه حقيقة خضراء ، حضور ثابت ، جلي ، ولكن رفض شراءه يُفقده قيمته في علاقات السوق التي تتحكمون بها على هواكم .

صمتُ البابا الأخضر لم يكن يُحبطه وإنما يهينه . كان ميد يشعر بأن جهوده غير مجدية . فالبابا الأخضر لا يعبأ بالحياة البشرية ، إنه كائن من أرقام ، إنه رقم مخطوط بالطباشير على الألواح السوداء في بوصة نيويورك .

ـ وإذا كان إنتاج هذا الخير الذي هو أمل إنسان ، وأسرة ، وشعب ، لم يتطلب قوة العمل وحسب وإنما التضحية بأثمن ما في الحياة ، بالصحة ، فلا بد من تقدير كل ما يعنيه الازدراء الذي يُقابَل به كل هذا الجهد ، وما يلقاه

الإنتاج من المفتش الذي لا يكلف نفسه حتى مشقة النظر لرؤية البضاعة ، لأنه يعرف مسبقاً بأنه يجب عليه عدم الشراء . محمومون ، مسلولون ، عميان بسبب الأبخرة السامة ، مصابون بداء الاستسقاء ، نسالات بؤس فسيولوجي ، دماء ، قيح ، عرق ، خمر...

البابا الأخضر الذي كان يتململ في مقعده ضرب بأصابع يده اليمنى على الطاولة قبل أن يقول :

ـ لدينا من أجل هذه الأمور مستشفيات ، عيادات...

ـ يا ـ ها... ، ها ، ها ، ها ، ها...!

أطلق ليستر ميد قهقهته المدوية التي كانت تُسمع عن بعد أميال في المزارع ، عندما كان يدعى كوسي ، والتي هزت الزجاج هنا .

ـ إننا نبيع لحماً رخيصاً وكل شيء نوفره بأسعار رخيصة في مناطق عملنا...

ـ يا ـ ها... ،ها ، ها ، ها ، ها...!

ـ وقد استثمرنا ملايين الدولارات لرفع قيمة أراض غير صحية ، ووزعنا في الرواتب والأجور أموالاً أكثر مما توزعه الحكومات نفسها...

ـ يا ـ ها... ، ها ، ها ، ها ، ها...!

رجل ذو وجه مدور ، وأنف أحمر ، يرتدي سترة قاتمة ، ظهر من وراء ستائر إحدى النوافذ ووقف إلى جانب البابا الأخضر حاملاً مسدساً رشاشاً صغيراً جداً مثل حيوان أليف . ولكن ميد لم يره ، فقد كان يخرج بخطوات واسعة ، وحين توقف المصعد عند الطابق الثالث والخمسين ، احتل حيزاً ضيقاً بين الأربعين شخصاً النازلين ، متحولاً إلى سمكة سردين ، وكانت عيناه تدمعان من ضحكه الصاخب ذاك ، من قهقهته المنفلتة .

الفصل الثامن

كانت ليلاند في المحطة . وقد أخفقت محاولتها في فتح زجاجة عطر . فوسط نفير سيارة كارل روس الذي أوصلها إلى المحطة ، وأصوات العجوز روسيليا وزوجة باستيانثيتو التي تدعوها إلى الإسراع ، لم تكن هناك طريقة لفتح الزجاجة ، ولو بتسخينها على لهب ولاعتها .

كان الرجال مصطفين ، بمحاذاة الجدار ، ينتظرون عودة ميد . هناك أخبار أشد سوءاً . لن يشتروا منهم مزيداً من الثمار . إنه عمل سنتين . وقد بقيت تذمراتهم مكبوحة من الأسى . كان الاخوة آيوك غايتان يلعنون كوتشو . لقد كانت ساعة شؤم تلك التي سمعنا فيها نصائحه . لو أنه ما يزال حياً لبصقنا في وجهه ، فالناس لا يأتون هنا للصراع مع البحر وإنما مع حفنة من أبناء العاهرات .

ـ لقد ورطنا ، لقد ورطنا ـ يقول مكاريو ، بينما أخوه خوان سوستينيس يكرر :

ـ لقد كنتُ محقاً حين قلت إن هناك مكيدة ، وهي مكيدة مزدوجة .

ـ أوضح يا خوان سوستينيس ما الذي تعنيه بمكيدة مزدوجة .

ـ الآن سينتزعون منا الأرض ، لأننا نهجرها بعد أن لم تعد تنتج لنا

شيئاً ، أو لأننا سنبيعها ، وعندئذ يستغلون هم ما نملكه هناك وانتهى الأمر .

ـ ولكن ، ألم تسمع بأنهم هم أيضاً لا يجنون كل موزهم...

ـ مجرد تكتيك ، يا لهم من خبثاء...

توقف قطار الركاب بصخب . ونزل ميد بقبعته ، وبغليونه ، وبحقيبتيه ، واحدة في كل يد . وقد تميزت هيئته بين حفنة المسافرين المهلهلين ذوي الوجوه النحاسية .

ـ فلنسرع ـ قال كارل روس بعد المعانقات ، والتحيات ، والمصافحات ـ ، لأنها ستمطر بغزارة .

باستيانثيتو ، وابنا لوثيرو ـ لأن لوثيرو العجوز لم يستطع المجيء بسبب ألم مفاصل أصابه منذ أيام ـ وأبناء آيوك غايتان ، قفزوا إلى خيولهم ، بعد أن استقبلوا القادم ، بينما كان يصعد إلى سيارة كارل روس كل من ليلاند وليستر وكذلك ووكر الذي كاد أن يتأخر في الوصول إلى المحطة .

ـ أتعرف الخبر ؟ ـ توجه ووكر بالسؤال إلى ليستر بينما كان كارل روس يشغل المحرك .

ـ لقد سمعته من فم البابا الأخضر... لن يشتروا مزيداً من الثمار . لقد أفلسنا .

ـ ولا بأي سعر ؟ ـ سألت ليلاند ، مظهرة رنة حزن كبيرة في الجزء الأخير من سؤالها .

ـ ولا بأي ثمن .

وابل المطر لم يتأخر طويلاً في الهطول . فقد بدأ يسقط من كل

الأنحاء ، وبدت سيارة كارل روس بكل وضوح ، أشبه بسفينة قديمة مخلعة .

ـ لماذا لم تبدل السيارة ؟ ـ سأل ميد ، حين كان الجميع يسخرون من ذلك الإبريق الضخم المتحرك بالبنزين والذي يتحولون فيه إلى حساء .

ـ لأنني رجل عاطفي ، ولهذه السيارة ذكرى عاطفية ، ولست أدري بماذا أشعر حين أفكر بأنهم سيلقون بها ، مع تلك الذكرى ، في إحدى الوهاد التي تملؤها الشركة بالسيارات المستعملة . لقد اضطررت للنضال من أجل أن لا يأخذوها للإلقاء بها ، حيث ستنقلب بين مئات السيارات على ظهرها كخردة عتيقة . إنها ما تزال تسير .

فقالت ليلاند :

ـ لو كنت مكانك لوضعتها في صالون بيتي ، مثلما يضعون عربات الملوك في المتاحف ، ولوضعت عليها لوحة تشرح مغزاها للسائحين ، وتشير إلى أن كارل روس قام فيها بمغامرة عاطفية بدأت على النحو التالي...

ـ ألن تنتهي من مزاحك!

ـ لا ، فأنا ما زلت في البداية ، وهذا ليس مزاحاً .

ـ فلنرَ كيف بدأت المغامرة... ـ قال ووكر بأفضل مزاج في العالم .

ـ من الأفضل أن أصمت ، لأنه قد يحطم العربة إذا ما تكلمت .

ـ لن يفعل ذلك ، لأنها مقدسة بالنسبة إليه . أليس كذلك يا كارل روس ، أليس صحيحاً أنك غير قادر على تحطيم السيارة ، وأنت تعلم أنها ستذهب بعد ذلك لتتعفن في وهدة السيارات العتيقة ؟

ـ لقد بدأ ذلك الفصل العاطفي إذن مثلما تبدأ كل المغامرات في السيارات... ـ سُمعت ضحكة ليلاند المكبوحة ، والتي واصلت القول : ـ ... بدأ بنفير السيارة مطالباً بإنجاز الوعد : نفير ، نفير ، نفير... إلى أن ظهرت الجميلة النائمة ، لأن الوقت كان ليلاً ، وليس لأنها كانت نائمة في النهار . فُتح الباب باللمس ، وبعصبية ، وأُغلق بخبطة قوية ، بعد أن صارت السيدة داخل السيارة ولم يعد بإمكانها الهرب لأنه أقفل الأمان من الباب الآخر . المحرك . اهتزاز المحرك يصعد من القدمين إلى الساقين ، ومن الساقين... ثم قليل من السرعة بعد ذلك من أجل كهربة البشرة ذات الشعر وإحداث وهن في الرأس المستسلم ، في كتف من يمسك بالمقود متابعاً منعطفات الطريق... تبديلات ضرورية للسرعة ، وما بين السرعات والطرفين السفليين للحبيبة تقوم علاقة تواصل ملهمة... السرعة الأولى ، الثانية ، والفخذ بنعومة لا أدري كنهها...

وأمام استحالة إسكات ليلاند ، ضغط كارل روس صفيحة السرعة إلى أقصاها . ثرثرات في مواجهة المحرك . وتوقف فجأة أمام بيت ميد . لقد نجا . لقد كبح السيارة وثرثرات ليلاند معاً .

فتح ميد إحدى الحقائب في حجرته وخرج حاملاً هدايا للأصدقاء الذين بدؤوا يصلون بعد قليل على خيولهم . أغلى هدية ، وقد رآها الجميع ، كانت مسدساً بديعاً أوصى عليه العجوز لوثيرو . وكانت هناك مناديل فاخرة للتباهي بها ، ومصابيح كهربائية ، وأشياء زاهية أخرى راحت تتلقاها زوجات شركائه وسط الملاطفات وعبارات الشكر .

ولكن على الرغم من الهدايا ، هناك موضوع أهم . هل استطاع أم لم يستطع تحقيق أي شيء ؟

ـ سنتكلم في الغد يا شباب ـ قال ليستر ، تستعجله عيون كل أولئك الطيبين الذين يستجوبونه بلهفة دون أن يتجرؤوا على مناقشة المسألة .

ابتعدت سيارة كارل روس يرافقه فيها إرنيه ووكر واختفت في ظلام المساء الحار ، وكذلك الخيول . ولكن الرجال لم يمتطوها . بل مضوا مشياً على الأقدام مع نسائهم وهم يجرون الخيول من أعنتها .

أحست ليلاند حين استلقت بجانب زوجها في تلك الليلة بأنها في حالة غريبة وعميقة من انعدام قدراتها . فشخصيتها السابقة للَحظةِ التي تعيشها كانت شيئاً مطموساً وغائماً . وأحست بأنها دون ذاكرة ، ودون إرادة . لقد كانت في أحاسيسها ، ولكنها ليست أحاسيسها التي كانت في السابق ، حين كانت الرؤية رؤية ، والسماع سماعاً ، واللمس لمساً . إنها تستلقي الآن إلى جانب زوجها ، ترى ، تسمع ، تلمس ، ولكن دون رؤية ، ودون سماع ، ودون لمس . أين تولد الغيوم ؟ أين تولد الأمطار ؟ أين يولد التكامل الغرامي للكائن المتعطش للعذوبة الذي تقدم له نظرة ليشربها ؟

ـ ليلاند ـ قال لها ، أكان يبكي ؟... ، أكان يهمس ؟... إنه صوت ، صوته وحسب ، ولكنه ودود بعمق بالنسبة إليها هي التي تعبده ، وترى فيه كائناً متفوقاً ـ . ليلاند ـ كرر قول ذلك قبل أن يواصل أفكاره التي تولد مثل نبتة غضة جديدة ما إن تولد حتى تداس بالأقدام ـ ، ليلاند ، لقد خسرنا العالم ؛ نحن الأمريكيين الشماليين خسرنا العالم .

أخمدت عبارته بقبلة طويلة على فمه ، إلى أن أغرقت رأسه في الوسادة ؛ وبعد أن قبلته أخرجت ذراعها من تحت الملاءة لتمر بأصابعها على الشعر الذهبي الأخضر . لم يكن الألم بسبب خسارة العالم ، فهذا يمكن استرجاعه ؛ وإنما الألم لأنهما يخسران نفسيهما ، موليين ظهرهما إلى

الله . من ينجو بعينين مفتوحتين ؟ الوحيدون الذين ينجون هم الذين يطبقون عيونهم ويهجرون كل شيء . جذبها إليه ، وشدها إلى صدره وهو مغمض العينين ، وحين أحست هي بمداعبة زوجها العنيفة والعذبة غطت كذلك كل عريها كزوجة بظلمة رموشها .

في الصباح الباكر رجع الجيران ، أولئك الذين بدؤوا جيراناً له وانتهوا ليكونوا شركائه ، جاؤوا يسألون ميد عما فعله من أجل ملاكي قطع الأرض الصغيرة المزروعة موزاً . فأجابهم ميد وهو يلتهم موزة ناعمة كالحرير :

ـ قبل أن أتكلم أريدكم أن تقدموا لي وعداً : أن تطيعوني طاعة عمياء ، لأننا مقبلون على صراع مع البابا الأخضر... ـ أنهى أكل الموزة ، وقطف واحدة أخرى من قرط الموز ، وبينما هو يأكل بدت لهم عيناه الخضراوان مثلما كانوا يرونهما بعد أن يقطع إحدى قهقهاته السابقة .

أبدت الوجوه البرنزية موافقتها وطاعتها العمياء . وأكدت بعض الأصوات المتمتمة ما قالته الوجوه . أجل سنطيع طاعة عمياء .

ـ ويجب أن تعلموا أن البابا الأخضر هو سيد يقبع في مكتب ويملك تحت تصرفه ملايين الدولارات . يحرك إصبعاً فتنطلق أو تتوقف سفينة . ينطق كلمة فيشتري جمهورية . يعطس فيَسقطُ رئيس أو جنرال أو مجاز... يحك مؤخرته على المقعد فتندلع ثورة . سيكون علينا أن نخوض الصراع ضد هذا السيد . ومن الممكن ألا نرى النصر ، لأن الحياة قد لا تمتد بنا للقضاء على البابا الأخضر ؛ ولكن من سيخلفوننا في الخندق سيرون ذلك إذا ما تحركوا مثلنا ، مثل الريح القوية التي لا تترك شيئاً منتصباً عندما تهب ، وإذا تركت شيئاً فإنها تتركه جافاً ويابساً .

ـ ولكننا لا نملك الوسائل... ـ ألح خوان سوستينيس وهو يهز رأسه من

جانب إلى آخر ، بارتيابه الدائم وتشاؤومه ـ ، ونحن نرغب الآن في العودة إلى قرانا ، فنحن لسنا من هنا . ومع أننا لن نأكل جيداً هناك ، إلا أننا لن نواجه مثل هذه المشاكل .

ـ علينا أن نستخدم رأسنا أولاً ، وأن نستخدم رأسنا ثانياً ، وأن نستخدم رأسنا ثالثاً . فنقطة ضعفنا ، نقطة الضعف الوحيدة لدينا التي تتيح لهم أن يهزمونا ويحققوا كل ما يريدونه هي ما قاله خوان سوستينيس ، إنها افتقارنا إلى الوسائل اللازمة للصمود ، والقدرة على الصمود هي الأهم في أي حرب .

فقال باستيانثيتو :

ـ نملك ديوناً متراكمة علينا... هذا هو ما نملكه!...

ـ وهنا جوهر القضية ؛ وهذا هو ما أريد الوصول إليه ، لكي نصوغ الخطة معاً . فهذا الصراع لن يكون صراعاً بمناجل الماتشيتي ، وليس صراعاً سنكسبه بالخطابات ، وفي محاولة إقناعهم ؛ لا ، إنه صراع متواصل .

فقال لينو لوثيرو شاكياً بصوت مفعم بالمرارة والتأنيب :

ـ ولكنهم لن يشتروا الثمار...

ـ أعرف ذلك . لقد أخبرني به البابا الأخضر . ولكن إذا كانوا لا يريدون الشراء فهذا لا يعني أن الثمار لا تنفع في مكان آخر ؛ سنبيعها لكي نواصل العيش ؛ أحضروا لي جدولاً بكل ما سيتوفر لدى كل واحد منكم خلال ثمانية أيام ، وأنا سأعرض الثمار في أسواق البلدات القريبة ، وسأذهب للبيع في العاصمة إذا اقتضى الأمر . إنني أنتظر فقط وصول شاحنة اشتريتها وستصل بين لحظة وأخرى .

فتجرأ خوان ، أبن لوثيرو الثاني ، على القول :

ـ هذا يغير الأمور ، وإن كان لا يغيرها...

ـ سنبيع الثمار لكي نبدأ بدفع الديون التي تكلم عنها باستيانثيتو ، ونعيش فقراء مثلما يعيش الفلاحون في أماكن أخرى ، مثلما كنتم تعيشون قبل أن تأتوا إلى هنا... ـ أخرج الغليون ، وأضاف بحسم بينما هو يحشوه بالتبغ :ـ السيئ في الأمر هو أن الأسعار الجيدة التي دفعوها لنا ثمناً للأقراط الأولى جعلتنا نعتاد على ازدراء النقود ونعتقد بأنهم سيدفعون تلك الأسعار دوماً ؛ فهدرنا كل شيء على أشياء لا نفع منها...

رأى مكاريو آيوك غايتان أن ذلك الغرينغو لا يمضي تائهاً . لم يكن مكاريو مثقلاً بديون كثيرة ؛ ولكن المهم هو الدفاع عن الأرض بالمتشيتي لأنها الشيء الوحيد الذي يمكن لهم أن ينتزعوه منهم . وقال بصوته القوي :

ـ أجل يا شباب ، يجب أن نختار... ما بين أن نعود إلى قريتنا وذيلنا بين ساقينا مثل كلاب مضروبة ، أو أن نصمد للعاصفة ، مثلما يقترح السيد ميد ؛ وكل شيء يعتمد الآن على وصول الشاحنة بسرعة ، وإلا فإننا سنموت هنا من هذه الحمى أو تلك ، وإن كان أسوأها هي حمى اليأس من وصول الشاحنة .

ـ لقد أحضرت الشاحنة معي ، في السفينة نفسها ، وهم ينتظرون فقد مجيء قطار شحن ليرسلوها إلى هنا .

ـ هذا جيد ؛ إذا كان الأمر هكذا فإن الأمور ستختلف... ـ تحمس باستيانثيتو ، وبدا أن الجميع قد استيقظوا من سبات اليأس الذي كانوا فيه ، يشويهم الحر ـ ؛ هذا يغير الأمور . فلنبدأ بإعداد الثمار ، ولنر كيف

ستكون الأوضاع ، لا بد أنها ستمضي على أحسن حال ؛ فأسوأ مهمة هي التي لا تنفذ... ـ نهض لينصرف وهو يمد يده إلى ميد ليصافحه بينما كان الآخرون يلتقطون كذلك قبعاتهم عن الأرض .

فقال ميد :

ـ لحظة واحدة . لقد رأينا الجانب السهل من الحل الذي أعرضه عليكم ؛ ولكن ما زال هناك الجانب الوعر... ـ فاكتست الوجوه المتحمسة بارتياب خفيف بأن ذلك كله لم يكن سوى خبزاً مرسوماً على الورق ، وأضاف ميد : ـ بإمكان البابا الأخضر أن يفعل كل هذا الذي يفعله لأنه يراهن على ضعفنا البشري ؛ وإذا لم تصدقوا ، فانظروا إلى ما يجري في مناطق أملاكه : فمن يجب أن يكونوا حلفاءنا ، لأنهم أبناء هذه الأرض ، هم أسوأ الأعداء ، بسبب الحماقة ، وبسبب الأنانية ، وبسبب الخبث ، أو أي سبب ترونه ؛ لقد عوّد البعض على إنفاق مبالغ كبيرة جداً من المال ، حتى وصل بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن المال ليس له قيمة ، ولهذا لن يرى هؤلاء حريتهم مهما كسبوا من أموال ، لأنهم استعبدوهم بهذه الطريقة ، بإعطائهم رواتب عالية ينفقونها هدراً ، أو بتسهيل الاختلاس لآخرين وتقييدهم بسرقاتهم ؛ أو بجعل آخرين يتواطؤون معهم في ممارسة الجور في أعمالهم اللصوصية...

إبنا لوثيرو ، لينو وخوان ، اللذان سمعا برعب في طفولتهما ضحكات ليستر ميد ، عندما كان يدعى كوسي ، بل وكانوا يخيفونهما بالقول لهما ها قد جاء «العجوز الذي يضحك» ، لم يراودهما الشك في أن هذا الرجل ، مع أنه لم يعد كوسي ، ما زال مجنوناً مثلما كان في السابق .

وأضاف ميد متسائلاً :

ـ ولماذا نزيد في القول... فنحن نعرف أن خوسيه لويس مرثول يغتصب

الصغيرات القاصرات مقابل بضعة أقراص من الكينين ، وأن خصيات المدراء تتنقل من يد إلى يد ما بين أرقى الزائرات ؛ وأنه في عزلات الروليت والبوكر يسيل الذهب أورقاً نقدية والروم والويسكي مع الصودا...

تثاءب باستيانثيتو . كلام كثير ولا شيء في الأطباق . وكان الآخرون يتململون بانزعاج . فليخبرهم بالجانب العملي دون مواعظ .

ـ وإضافة إلى خروجنا لبيع ثمارنا في الشاحنة ، يتوجب علينا أن نقيم اقتصاد الهندي . أنا لستُ من هنا وأعرف ما الذي يستطيعه الهندي بزهده ، ببساطته ، بتطبيقه الدائم لما هو سليم بالبديهة ، بطريقته في الكسب وفي إنفاق ما يكسبه . لقد مرت قرون وقرون ، ومن هم ليسوا هنوداً ، أي المتحدرين ولو بصورة بعيدة جداً من الاسبان ، يعانون كل يوم درجتين أو ثلاث درجات من حمى العظمة . وربما أكثر من ذلك هنا في المنطقة المدارية ، والأسوأ رؤية كيف ينفق الآخرون ما يكسبونه . فلنرجع إذن أيها الأصدقاء إلى اقتصاد النقود المعقودة بمنديل . فلكي ينفق الهندي يجب عليه أن يُخرج المنديل ، وأن يحل عقدته بأظفاره وأسنانه ، ولهذا لا ينفق نقوده بسهولة مثلما نفعل نحن الذين نمضي حاملين النقود في الجيوب والأيدي .

ورأى الجميع أخيراً أن العقلانية تستدعي أن يتشبثوا بالنقود القليلة التي سيكسبونها من بيع الثمار في القرى المجاورة وفي العاصمة ، وألا ينفقوها بتبذير .

*

ـ إنها جمعية لا يملكون فيها سوى الديون ، إنه جنون... ـ قال ذلك العجوز آديلايدو لوثيرو بعد أن حملوه إلى شمس الصباح ، وقد شله

الروماتيز ، وهو يفوح بمرهم له رائحة البنفسج ، بينما يتدلى من حزامه ، إلى الوراء ، المسدس الذي أهداه إليه ليستر ميد .

أبدت دونيا روسيليا التي كانت تحمل أحد أحفادها ، موافقتها للوهلة الأولى على ما قاله زوجها . ولكنها هزت رأسها على الفور وأكدت :

ـ وماذا عن الشاحنة ؟... هذه الشاحنة الحمراء التي يمضي بها محملة بالثمار كل يوم...

ـ إنها ادعاءات وحذلقات . سترين كيف أنه سيتعب يوماً ، حين يرون أن ما يكسبونه قليلاً ، وستنتهي الجمعية وينتهي كل شيء ، وسيكون هناك مزيد من الديون ، لأنهم سيأخذون الشاحنة منهم...

ـ لا أدري إذا كنتَ على صواب ؛ مع أنني أفكر بأن الإنسان عندما يهرم يستلقي مطلياً بالمراهم ولا يعود يرى سوى الهوة التي سيسقط فيها متخشباً بين لحظة وأخرى . أما الشباب فهم في أحسن حال .

ـ تعنين في أحسن حال من الخوزقة ، وهذا ظاهر عليهم . فهم لا يستطيعون أن يلبسوا ثوباً جديداً...

ـ لأنهم اتفقوا على ذلك ؛ فجمعية عدم الإنفاق تحظر عليهم ذلك .

ـ ولكن هذا يا روسيليا هو البلاهة بعينها ، يحرمون أنفسهم وهناك أشياء كثيرة جيدة ورخيصة ؛ لقد كنت أشتري لك العطور ، هل تتذكرين يا روسيليا ؟ يجب أن تكون لدى المرء الملابس التي يحتاجها جسده... لقد عملتُ كثيراً ، ولكني تمتعت على هواي .

ـ أنفقتَ ما كان يجب أن يكون مجتمعاً لدينا الآن ، ولو أني لم اقترح وألح على أن تشتري الأرض لأبنائك ، لكانوا الآن عمالاً في المزارع .

ـ لقد كنت أرى أن من سيأتي بعدنا عليه أن يتدبر أمره ، وأنه على كل شخص أن يحل مشاكله...

ـ ولهذا سيتمكن هؤلاء الشباب يا آديلايدو من مواجهة الشركة ؛ سيحققون ذلك يوماً ، إذا أصروا على البقاء متأهبين... فمن أجل إسقاط أولئك الأشرار لا بد من البقاء ضفدعاً ألف سنة... ولكن بعد ألف سنة ، ينتفض الضفدع مثلما تقول ساراخوبالدا عندما تمارس سحرها ، وينهار الجبل .

ـ وماذا سيفيدني ذلك ، ماذا سيفيدني حدوث كل هذا الذي تقولينه ، ماذا سأستفيد من كل ذلك أنا آديلايدو لوثيرو بينيا عندما سأكون قد صرت تراباً أكثر من التراب ؟

هرشت دونيا روسيليا رأسها بكل أظفار يدها اليسرى ؛ وكانت تحمل في ذراعها اليمنى حفيدها الذي أسند رأسه إلى كتفها الهرم .

ـ ولهذا أنا أعتقد يا آديلايدو ، اسمعني ولا تأخذ عني ، أن هذا هو ديانة جديدة . أنا أسمعهم فقط ، ولكنهم يتكلمون بجدية بأنهم سيقلبون كل هذا ، وأنا أؤمن بذلك ، فبما أنهم يعملون على أساس عدم إنفاق ما يكسبونه فإنهم سيتخلصون...

ـ سيتخلصون من الديون ؟

ـ أجل من الديون...

ـ من المؤسف يا روسيليا أن هذه الديانة الجديدة القائمة على العمل والتوفير لمنع الغني من الاستغلال ، قد جاءتني وأنا عجوز ومصاب بالروماتيزم ؛ لولا ذلك لرؤوا ما الذي يعنيه هواء عاصف!

ـ نحن يا آديلايدو مثل الكلاب الهرمة التي تنبح من الممر دون أن

ترفع رؤوسها ، لمجرد القيام بواجب إطلاق النباح بين وقت وآخر .

ـ ما الذي تعنينه بهذا ؟

ـ أعني أنني أنا أيضاً صرت أطرد بقسوة أولئك الذين يأتون إلى الباب ليعرضوا بضاعتهم ، أمشاط ، مرايا ، صابون ، مناديل...

ـ لو علم بذلك الرفيق ميد ، وهذه هي التسمية التي يتبادلونها الآن كما سمعت ، لشنقك : فقد كان يعيش على ذلك عندما كان كوسي ، عندما كان يضحك مطلقاً قهقهته تلك يا ـ ها ، ها ، ها ، ها ، ها!...

ـ وهو يقول الآن إن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً...

ـ إنهم يعرفون أنني رهن إشارتهم على الرغم من كوني عجوزاً ، إنني جندي عجوز ، ويمكنني أن أفرغ هذا المسدس في أي شخص .

لم يتركه الذباب بسلام ، وكان هجوماً مركزاً ، فالذباب يمضي ويعود من وجه الحفيد إلى وجه العجوز . وكانت هناك أسراب من الببغاوات تنشر غمامة خضراء ، يليها الزعيق . الجميع يعيشون وآذانهم تنصت إلى الهواء . وكان يروقهم كثيراً سماع هدير محرك السيارة .

الفصل التاسع

الشاحنة لم تصدر ضجيجاً اليوم . لأن الشاحنة لم تخرج . كانت ليلاند قد جهزت الفطور لزوجها منذ وقت مبكر ، ولكن ليستر فتح عينيه بعد أن ارتفعت الشمس . لقد كانت المنافسة قد بدأت . فآل فوبيه ، وهم أحفاد فرنسي جاء قبل أربعين سنة في زمن قطع الأخشاب الثمينة ، يمضون في شاحنة صفراء عارضين ثماراً رخيصة . خرج ليستر وخوان لوثيرو بعد الظهر للبحث عن أسواق جديدة . وداهمهما الليل وهما في الطريق . لقد كانت رحلة طويلة ، ولكنهما حققا أسعاراً أفضل . أوقفا السيارة في منتصف النجد . وسكب ميد من ترمس معه دفقة من الرز بالحليب . كم هو لذيذ ومنشط في برد المرتفعات الحاد ، هذا العقار الوسط ما بين الحساء والعصيدة . سخونته لدى تناوله في رشفات ، وطعم القرفة الذي فيه أبهج ليستر فأحس كأنه لم يتذوق شيئاً ألذ منه في هذه الدنيا .

استلقيا أسفل الشاحنة ليناما . كم من الوقت مضى على ميد والسماء فوق عينيه قبل أن يغمضهما ؟ إنه لا يعرف . فساعة معصمه القريبة من أذنه تذكره بأنه إنسان بلا زمن . عذوبة الصمت المنسكب ما بين الأشجار الهاجعة ، ما بين البهائم المنثورة ، يقطعها مرور الشاحنة . وقبيل الفجر ،

كان مصباحا السيارة الثقيلة يكنسان الطريق الترابي ، ما بين أحجار وطبقات غبار متراكمة ، طبقات غبار ناعم جداً يتحول إلى سحب بيضاء في الهواء . أضواء العاصمة التي لا تنطفئ كانت تتلألأ بالضياء الرقيق الذي بدأ يصبغ الأفق الشرقي بلون وردي . انحدرا نزولاً وقد أطفأا المحرك لتوفير الوقود وبتحكم كامل بالمكابح حتى لا يذهبا إلى الوادي . كان يظهر شبح متحرك بين وقت وآخر . وكان مصباحا الشاحنة يضيئان ظهور وأشباح المارة الذين يسيرون أمامهما ؛ وعند الاقتراب منهم وتجاوزهم بعد ذلك ، يبدون وكأن أرجلهم قد بُترت في الظلمة التي ما تزال كثيفة .

لقد تخاطفوا الثمار منهما . أجل ، لقد تخاطفوها فعلاً . فطيور الرخمة التي تجتمع على العربات المملوءة بالقمامة هي وحدها من يبدي مثل ذلك النهم والتهافت لانتزاع الفضلات . في لحظات قليلة لم يبق شيء من الحمولة ، وكان الرجال والنساء يتخاطفون أقراط الموز الكبيرة ويبحثون بعد ذلك عن حمالين ليوصلوها لهم إلى بيوتهم .

وبينما هما يبيعان الموز ، علّق ميد على جانب الشاحنة لوحة مكتوبة تعلن أنهما مستعدان لنقل حمولة على الطريق وحتى المحطة الأخيرة . وكان الحصول على الحمولة سهلاً جداً . فقد تعاقد معه شخص سوري لبناني(١) ليحمل له بضاعة . فشعرُ ميد الأشقر ، وعيناه الزرقاوان ، وسلوكه ووضعه الغرينغو كان يشكل ضمانة للحمولة أفضل من أفضل توصية . وكان السوري اللبناني يقول : إنهم أناس لا يسرقون شيئاً ، لأنهم يعلمونهم كسب عيشهم منذ الصغر . أما أهل هذه البلاد فهم مجرد لصوص ، مجرد لصوص .

---

(١) تُطلق في بعض بلدان أميركا الجنوبية والوسطى تسمية السوريون لبنانيون siriolıbanes على المهاجرين من منطقة بلاد الشام .

وفيما بعد نزلت بضاعة السوري اللبناني المهربة التي أُدخلت عبر الحدود دون دفع الضرائب ، نزلت إلى الساحل محمية بصورة ليستر ميد الذي لا تتجرأ السلطات على الطلب منه إظهار الوثائق . فبعد توقيع أوراق التسليم ، صار كل شيء نظامياً ، لأن ميد يجهل أن البضاعة مهربة . رجع إلى مقعد القيادة ، وحرر المكابح ، وشغّل المحرك عائداً إلى بيته .

الأسواق القريبة التي كان يغطيها آل فوييه بصورة وسطية ، لأنهم يقصرون أحياناً ، استبدلها ميد وجماعته بسوق العاصمة ، وصار يذهب إليها مرتين في الأسبوع .

ولكنه حين وصل إلى السوق في أحد الأيام واستقر في الموقع الذي صار يعرفه سيل المارة العابرين ، لم يقترب منه أحد . وسرت في جسد ليستر حرقة غريبة . فمن المستحيل أن يكون سوق العاصمة قد مات إلى هذا الحد بالقليل الذي يحضرونه مرتين في الأسبوع .

اقتربت بائعة خضار لها لون البطاطا النيئة لتنظر إلى الحمولة التي ما زالت مغطاة بورق الموز الأصفر دون أن تطرأ أي حركة على أقراط الموز لأنه لم يأت أي مشتر .

تشممت المرأة ، وتفحصت ، وزمت شفتيها... ثم قالت له :

ـ الآن لم تبيعوا شيئاً يا مستر... ، وكيف ستبيعون إذا كانوا يوم أمس وأمس الأول قد وزعوا الثمار مجاناً في المحطة...

انطلق ميد بالشاحنة ، ما بين كلاب هزيلة ، وروائح طعام لاذعة ، وهنود نتنين برائحة خمرة القصب وبائعة هنا أو هناك جاءت منذ الصباح الباكر بحذاء جديد . مضى في الشوارع ، وسط حركة المرور ، جاب

المدينة . ودخل مباشرة من بوابة واسعة مفتوحة تدخل منها شاحنات مواد البناء وسيارات إسعاف وعربات أخرى ، ومضى باتجاه ممر ظهرت منه إحدى راهبات الإحسان وهي تسجل ملاحظات في دفتر . حياها وقال لها إن هذه الثمار مهداة إليهم من شركة ميد ـ لوثيرو ـ كوخوبول ـ آيوك غايتان وشركائهم .

فقالت الراهبة :

ـ جيد أن يرسلوا لنا من هناك قطوف الموز هذه ، لأننا لا نتلقى من هناك سوى المرضى الميؤوس منهم! مرضى تركوا رئاتهم هناك . قاعاتنا ممتلئة وليس فيها متسع لمريض آخر ، مع أن هناك كثيرين ، وكثيرين جداً ينامون على الأرض .

وبينما ميد وخوان لوثيرو يفرغان الثمار ، دخلت سيارتا إسعاف . وحمدت راهبة الإحسان بعينين متوقدتين الله ربنا الذي أتاح لها إثبات أقوالها ، واقتربت من ليستر لتقول له بصوت خافت :

ـ هذه هي الثمار الأخرى التي تهديها إلينا تلك المزارع الهائلة ، حيث يجري تداول أموال طائلة ، أما نحن فلا يصلنا سوى البؤس .

بقي ميد يراقب مرور موكب الجثث الحية . عظام بشرية تسعل ، تبصق دماً . عيون خارجة من الوجوه المبللة بعرق ينضح بمرارة الكينين . أسنان تجرب ضحكة مأساوية ما بين الشفتين اليابستين . نتانة دموع وإسهالات . وكان المرضى الذين يستطيعون المشي يحملون ملابس الآخرين المحمولين على نقالات قماشية بلون القهوة ، يُنزلهم من سيارة الإسعاف ممرضون حفاة يرتدون أرواباً بيضاء .

ربت ميد على ظهر مساعده خوان لوثيرو الذي بقي يرافقه في رحلاته تلك إلى العاصمة . واختفت الراهبة في الداخل وكأنها تطير بجناحي قبعتها .

توقفت الشاحنة في محل لبيع قطع غيار السيارات .

ـ غير ممكن ، لقد اشتريت هذه العجلة بخمسة عشر بيزو أقل ؛ إنك تطلب سعراً غالياً جداً...

انحنى بائع الإطارات لكي يرى عن قرب رقم الإطار ؛ ثم نهض ليبحث عن السعر في لوحة وسخة وملطخة بالزيت ، وبعد أن ضرب أسنانه بقلم الرصاص ، قام ببعض الحسابات .

ـ سأبيعه لك يا مستر ميد بسعر أرخص ؛ ولكنني أرجوك ألا تخبر أحداً ، لأننا نبيعها الآن بسعر أعلى .

أشار خوان لوثيرو بعينيه داعياً ميد ، وأخذه جانباً وقال له :ـ هذا الذي تفعله حماقة ؛ الشركة هناك تملك أكواماً من الإطارات في حالة حسنة وهم يرمونها دون أن يستخدموها تقريباً . يمكن الشراء من هناك .

فرد عليه ميد :

ـ إنهم لا يبيعونها...

ـ وكيف لن يبيعوها إذا كانت ما تزال جيدة ويمكن استخدامها...

ـ لا يبيعونها ، يرمونها لتتعفن ، حتى وإن كنا نحن ، والبلاد بأسرها ، بحاجة إلى إطارات مستعملة...

ـ ولكن ، إذا عرضنا عليهم سعراً جيداً... إنهم يلقون آلاف الإطارات لتتعفن...

ـ تعفنها أفضل من استخدامها بالنسبة إليهم... ـ كانت الشاحنة تنطلق إلى خارج العاصمة بالعجلة البديلة التي دفع ميد ثمنها بسعر الذهب ـ ، ما سنشتريه منهم هو شيء من فضلات حظيرة خيول... ـ وبدا كما لو أن ميد يتكلم وحيداً ـ ، ... ولكن لا بد من أجل ذلك من البحث عن شخص لا يكون من جماعتنا ليذهب ويقدم لهم العرض... سنتكلم في ذلك مع... إنني أفكر... شخص... شخص لا يرتابون به...

لم تعد الشاحنة تضج في الذهاب إلى العاصمة وقليلاً ما كان يخرج بها ميد ، باستثناء بعض التنقلات القريبة ، أو من أجل الذهاب إلى البحر في يوم أحد خرجوا فيه جميعهم للقيام بنزهة .

سدّ مصبُ النهر الطريقَ أمامهم ؛ فالطريق ينتهي هناك ، بينما يواصل النهر تقدمه متوغلاً في البحر . مياه النهر الفسيح تصطبغ بخوف عذب ، مخضوضر ، قبالة العزلة النزقة والمالحة للأقيانوس العظيم . أشجار ثيبو أكثر ارتفاعاً من الأبراج ، ملساء دون أغصان حتى قمتها ، والقمة لها شكل السلة لتجمع الاتساعات الفسيحة . عيدان قصب طويلة جداً تتدلى من الأغصان ، ونباتات متسلقة طفيلية ، ولبلاب . وتكمن الخضرة في الأسفل لتحمي الرطوبة والظل ، وكأذرع لانهائية تلمع الأرض الرملية مثل مرايا مطحونة أو شواطئ ذات لون مائل إلى الحمرة مغطاة بغبار عقيقي .

صبية الموكب ، وهم من كل الأعمار تقريباً ، بينهم رجال صغار ونساء صغيرات ، يجمعون الأحجار والأصداف عن الشاطئ ، بينما الكبار يستلقون ، يخدشون الرمل . مرّ طائر مهيب ، منقاره أكبر من جسده ، محركاً جناحيه فوق السابحين العراة الذين يبدون مثل حيوانات أو مثل آلهة من البرونز .

لقد جاء أناس آخرون من المزارع ؛ معظمهم من عمال الشركة ، أشكال أراجيح النوم مطبوعة على أجسادهم التي تهتز أذرعاً ومؤخرات وهم يمشون وكأنهم معلقون بالسماء والأرض . إنهم يقضون معظم حياتهم في أرجوحة النوم ، ففيها ينامون ليلهم ، ويقضون القيلولة ، وفيها يستقبلون الزيارات ، ويسكرون ، ويلتجئون إلى البرودة من الحر أو إلى الحر من الحب الذي هو على الشاطئ اشتعال حيوانات ركوب . الظهر محدب ، وكذلك الإليتان ومؤخر الساقين ، وكل شيء فيهم يطابق شكل أرجوحة النوم المنفر والمتكاسل .

باستيانثيتو كوخوبول لم يذهب إلى النزهة . كانت لديه بداية ربو ، وقد ذهب لاستشارة الطبيب في المستشفى ، فنصحه بعدم الاقتراب من البحر . وبينما هو بين المرضى الذين ينتظرون في العيادة ، حيث النساء أكثر من الرجال ، سمع حديثاً استحسنه الجميع ، وجعل باستيانثيتو ، بالرغم من تظاهره بالضحك ، يرتجف في أسماله وكأنه مصاب ببرداء الملاريا . فالخوف يسبب برداء مماثلة .

كان هناك رجل غدته الدرقية متورمة بصورة هائلة ، يروي للآخرين قائلاً :

ـ لو . . لو . . لولا . . لولا قليل لكانوا أفلتوا عربة قطار على شاحنة أولئك الذين في الأسفل ؛ لو . . لو . . لولا قليل... كانوا يرصدون الشاحنة من أجل... حسن... لو . . لولا . . لولا قليل . . كانوا سيفلتون عربة القطار لتصدم الشاحنة على الخط الحديدي وتحولها إلى ... حسن... لولا . . لولا قليل لما بقي من الشاحنة شيء ، ولبقي ممن هم فيها أقل من ذلك... دم وقذارة... ولكن الشاحنة أفلتت من الشباب لأنهم مغفلون ، وعندما أفلتوا

عربة القطار ودفعوها ، كانت الشاحنة قد اجتازت سكة الحديد... لو تأخرت ثانية واحدة لكانت على السكة ، ولكانت تهشمت... ها ،ها ،ها... لولا قليل .

فقال آخر ممن كانوا في العيادة :

ـ ولكنهم لم يعودوا يبيعون الثمار هنا قريباً . فأبناء فوبيه قوضوا تجارتهم ، لأنهم عرضوا ثماراً بسعر أرخص ، وقد لاحقوهم إلى العاصمة أيضاً ، حملوا قطارات بالثمار وقدموها هدايا في المحطة المركزية .

ورد المصاب بتورم الغدة الدرقية بصوت قاطع وكأنه يطحن زجاجاً في حنجرته ويبصقه ، مثلما يبصقه من عينيه المتقافزتين :

ـ ولكن... ولكن... ولكنهم يفعلون شيئاً ، وإلا كيف يعيشون . يبدو لي أن هذا الغرينغو الذي يقودهم قد عقد حلفاً مع الشيطان .

وقال ضعيف البصر ذو الورم في جبهته :

ـ لا استغرب ذلك ، خصوصاً مع الصداقة التي تربط لوثيرو بالساحرة ساراخوبالدا .

حدثهم باستيانثون في مساء اليوم نفسه عن عربة القطار التي أُفلتت لتصدم الشاحنة ، وكيف مرت الشاحنة دون أن تنتبه إلى الخطر الذي كان يتهددها . ولكن الخبر لم يقلل من بهجة النزهة . ولم يزعجهم سوى عدم تمكن باستيانثيتو من الذهاب معهم .

تناول ليستر المبتهج كعادته أكورديون ليلاند الصغير وراح يغني بالإنكليزية أغاني عاطفية . صفقت له ليلاند سعيدة لرؤيته يغني وسعيدة لرؤيته سعيداً ، ولم يفهم الآخرون كلمات الأغاني ، ولكن الموسيقى أثرت فيهم كلهم ، فأظهروا إعجابهم بالتصفيق .

ثم تناول لينو لوثيرو جيتاراً وغنى :

آه ، أيتها النجمة الغريرة ،
كيف سقطتِ في البحر ،
في سفينة مغامرة
حملتك للإبحار .
يقول الناس إنك تبكين
حين يهطل المطر في أعالي البحر ،
ولكن قلبي البحار
سيغرق معك .

وكان وقت تناول البطيخ مبهجاً جداً ، فقد كانت ليلاند تأكل شريحتها وكأنها تمسك حلزوناً ذا قوقعة خضراء ولحم أحمر . وكان شعرها المغطى بقبعة قماشية يطلّ حريرياً ليتشعث فوق جبهتها ، ويشتبك بأنفها ويمر على لب البطيخ فيجعلها تبصق رحيقاً وانزعاجاً من الشعر . وكانت خضرة البحر المضيئة تكتنفهم بأجواء حقل قصب ذائب ، تجمع إلى جانب خضرة المياه العميقة زغباً ذهبياً من ضوء الشمس المنثور ؛ فكانوا يقتربون رويدا رويداً من الماء لتصدمهم الأمواج الزرقاء وليغتسلوا بذلك الوهج البحري ويشعروا ببلل الماء الأزرق الذي لا يمكن له ، لشدة حيويته ، أن يكون مجرد ماء وحسب .

كانت ليلاند تطل من بين الزبد بعينين مغمضتين رافعة يدها إلى حمالة صدرها لتثبتها أو لتشد طرف سروال السباحة الذي يرتفع ويشد على ساقيها البيضاوين البديعتين . وكان ليستر يلعب معها لعبة سمكة القرش ، فيفاجئها أحياناً وهي تسبح . كانت أسنانه تُطبق على فخذ ليلاند ، فتهز ساقها

برعشة كهربة عصبية ، وتصرخ وتخرج مذعورة . فيظهر ليستر ميد وراءها ضاحكاً وصارخاً :

ـ أعرف سيدة وقعت ضحية القرش الضاحك!

رآهم باستيانثيتو يرجعون من النزهة وقد تقدم الليل . كان في زيارة للعجوز لوثيرو . وقد خرج دون آديلايدو متثاقلاً إلى الممر ، مستنداً إلى عكازه ، ليحيي المتنزهين .

قال العجوز المصاب بالروماتيزم :

ـ إذا كان الأمر كذلك فلن يصلوا بعيداً ، لأنهم يحاولون قتلهم ؛ فمحاولتهم إفلات عربة القطار عليهم ، هو تحول من الرمادي إلى الأسود . هذا كثير . ولكن هذا الرجل ، على الرغم من أنه غرينغو وكل شيء ، إلا أنه متيقظ تماماً .

ـ سيقضون عليهم وسترى ذلك... حتى وإن قال رجلنا إنهم سينتصرون على المدى الطويل على البابا الأخضر .

ـ آه يا بني! هذا البابا مثل البابا الآخر الذي في روما ، لا تبدو له نهاية ، لأنه إذا مات أحدهم يأتي آخر ليحتل الموقع نفسه...

ـ إذن...

ـ هذا ما أقوله أنا أيضاً يا باستيانثيتو : إذن... لهذا أُقدر أنا هذا الرجل وأعرف كل قيمته : فهو لن يرى نهاية كل هذا ، ولكنه يضحي من أجل أن يراها آخرون لن نكون نحن منهم .

تنهد العجوز ، وكانت الليلة المضيئة ، والباردة قليلاً ، تتيح التنفس في «سميرأميس» . وكان باستيانثيتو وحده متضايقاً من تكرر نوبة الربو .

ـ من أجل هذا المرض سيكون مناسباً لك الويسكي .

ـ هذا ما يقولونه يا دون آديلايدو ، ولكنني لا أحب هذا الشراب الذي له طعم الدواء ، أشعر وكأنني أتناول حمض الفونيك .

ـ من الأفضل أن تذهب للراحة ؛ عليك أن تنام مبكراً ، فهكذا ستفيد من الإغفاءة الأولى ، حتى إذا ما داهمك السعال وأيقظك في الفجر ولم يتركك تنام ، تكون قد نمت بعض الوقت .

ـ طابت ليلتك ، تحياتي إلى دونيا روسيليا ، وغداً سيكون يوم آخر .

رفع العجوز رأسه . نظر إلى مثلث سبع النجوم المتلألئة... السماء بأسرها كانت مرشومة بأضواء تجعل المرء يصدق بأن هناك سيارات مضيئة تلعب لعبة السباق في دروب دائرية هائلة الاتساع .

الفصل العاشر

ليال لا تُنسى . ليال احتلت صفحات كثيرة في يوميات ليلاند . أي واحدة منها تفضل ؟ إذا ما طلبوا منها أن تمحو إحداها من ذاكرتها ، وكأنها لم تعشها ، فأي واحدة من هذه الليالي ستختار لتترك مكانها أبيض ؟

لا تدري في الحقيقة ، لأنها جميعها كانت مشرقة جداً وقاتمة في الوقت نفسه ؛ مشرقة بالنسبة إلى منطقة من وعيها وقاتمة بالنسبة لحبها الذي لامس في العماء ما هو مرئي في هاجرة الروح وحسب .

قلما يأتي الأصدقاء السابقون لزيارتها . ومع ذلك ، فقد جاؤوا في هذه الليلة حين لم تكن تنتظر قدومهم ، جاؤوا ليعرفوها على الزوجين أوبريند ، وعلى الآنسة مورغان والمهندس سمولت .

وقد كان الحديث مشوقاً جداً منذ اللحظة الأولى . فالجميع كانوا يبدون متحمسين ومفعمين بروح الطلبة الجامعيين ، الصاخبين ، الرومنسيين ، والمتحمسين بعض الشيء .

توجه كارل روس وهو يضع قرنفلة في ياقة بدلته الفاتحة إلى وسط الصالون الصغير ، وحاول تناول كأس الويسكي بالصودا بإمساك حافة الزجاج

بأسنانه ، ليرفعه ويسكبه في فمه دون أن يستخدم يديه ودون أن يهدر قطرة واحدة من السائل الثمين ، بل الأثمن من دم سيدنا يسوع...

ـ لا تجدف! قالت الآنسة مورغان محتجة ومبدلة حمرة وجهها الذي يبدو وجه شخص طيب المزاج على الدوام .

وافق توم على أن ذلك صعب ؛ ولكن الأصعب منه هو إشعال سيجارة بوضع علبة الثقاب في طرف القدم وعود الثقاب في الفم ، والسيجارة في الجيب ، في علبة سجائر غير مفتوحة .

انفجر الجميع بالضحك ، واقتربوا من الجماعة المؤلفة من المهندس سمولت والزوجين أوبريند وإرنيه ووكر وليستر ميد . كان ووكر مشغولاً بالاهتمام بالزوجين أوبريند . فهمس كارل روس في أذنه وهو يربت على ظهره :

ـ إنهما لاعبا بوكر جيدان... ، السيقان الجديدة تنسى القديمة...

رتب ووكر وضع خصلة الشعر الشقراء التي فوق جبهته ، وهز كأس الويسكي مع الصودا والثلج ، لكي يغطس الثلج إلى أسفل ؛ إذ كان يلمع فوق سطح السائل العنبري مثل قطعة كريستال قطبي ؛ وقال :

ـ أطالب بالاحترام للسيدة أوبريند ؛ فالمجتمع يقوم على احترام المتزوجين ، طالما أن هذا الاحترام لا يعني الحكم عليهم بالبقاء متزوجين إلى الأبد .

ـ محتال خبيث... ـ أطلق كارل روس العبارة في الوقت الذي كان يقرع كأسه بكأس إرنيه ووكر الذي كان يحمل الكأس والسيجار باليد نفسها ، فسقط رماد السيجار في لحظة قرع الكأسين .

ولكن هذه الحوارات القصيرة وسط الضحكات وقرع الكؤوس الودي وتقديم السجائر ، لم تكن تعكر صفاء المهندس سمولت وهو يعرض حالة أندرسون .

ـ إنه الرجل الذي جعل كل هذا ممكناً... فلولاه ما وُجدت هذه المزارع . لست أدري إلى أي حدٍّ هو أسطورة ، ولكن عندما نزور أماكن مثل هذه ؛ يتوجب علينا أن نتصوره كائناً خارقاً للطبيعة .

فقال السيد أوبريند :

ـ «أندرسون وطيران الفراشات الخضراء« هذا هو العنوان الذي تفكر فيه زوجتي لقصيدة الليدة التي تنظمها الآن ، بعد كل الذي سمعته عن اندرسون ككائن أسطوري ـ ولماذا «فراشات خضراء» ؟ ـ سالت الآنسة مورغان وهي تطل بوجهها المستدير من وراء دخان السيجارة .

فتدخلت ليلاند :

ـ من الواضح أنك حديثة القدوم ؛ عندما تعيشين بعض الوقت هنا ، وعندما يتحول عالمك إلى مربع هندسي ، وضمن هذا المربع يتحول ضوء نهاراتك وظلام لياليك إلى مجرد غمامة خضراء ، ستفهمين عندئذ لماذا كانت تخرج فراشات خضراء طائرة من جيوب أندرسون ، لتشكل هذا العالم ذا السماء تحت المائية .

وقال كارل روس :

ـ لقد أكملت ليلاند اللوحة ، لأنها عرفت أن أندرسون كان يتناول حفنات من تراب هذه الأمكنة ويضعه في جيوبه ، لكي يحلل فيما بعد هذا التراب ، كأساس للدراسة المُقْنِعة التي توصل إليها ، بأن هذه الأراضي مناسبة لزراعة ونمو الموز .

فهتفت السيدة أوبريند مقدمة إلى ليلاند عينيها الدراقيتين :

ـ جميل جداً! جميل جدا!... التراب الذي كان أندرسون يضع حفنات منه في جيوبه ، وكأنه شرانق ديدان من تلك التي تتعلق بأشجار المانجا هنا ، خرج في أحد الأيام وقد تحول إلى فراشات خضراء ، إلى أوراق الموز النحيلة هذه التي تترك تحتها نوراً هو طيران فراشات خضراء دائم .

وقال ووكر :

ـ ولكن ، ما هو جوهري فوق ذلك بالنسبة إلي ، هو أن أندرسون قد خلف دراسة مناخية ، فضلاً عن خرائطه للمنطقة بالطبع ، وتحديده لطبوغرافيتها ، والأمر الذي ساهم أكثر من سواه في موافقتهم على مشاريعه هو أنه عندما درس حركة الرياح ، استطاع أن يبرهن أن «الريح القوية» لا تهب على هذا الجانب من الساحل . وبالفعل ، فهي لا تهب هنا مطلقاً .

وأشار المهندس سمولت :

ـ إنه سيد معادٍ عظيم! فلا يمكن لمن لم ير ما يحدث عندما تهب ، أن يتصور ما هي هذه «الريح القوية» . إنها شيء مرعب . ويكفي أن أقول لكم إنني أنا الذي أبحرت كثيراً واجتزت عواصف عاتية في البحر ، وإعصاراً في كوبا ، لم تبعث فيّ أي واحدة من تلك الظواهر رعباً كذاك الذي سببته لي «الريح القوية» عندما ضربت الساحل الأطلنطي قبل ثلاث سنوات . يحس أحدنا بأنها تُغرقه ، تخنقه ، تحوله إلى هباء . إنها ريح إعصارية لا تهز وتنزع كل ما على سطح الأرض وحسب ، وإنما تقتلع الأشجار والأبنية من جذورها .

ورفع ليستر ميد الذي بقي صامتاً صوته :

ـ من يؤكدون أن الثروة تنتجها المؤسسات المركنتيلية حيث لا يوجد متسع لأدنى قدر من الحلم ، لأدنى قدر من الوهم أو الخرافة ، يجهلون أن هناك استثمارات أشبه بأحلام كبيرة ، وهذا هو واحد منها . فأندرسون حلم بمزارع الموز هذه ، وأصحاب المزارع يحسبون أنهم في حلم عندما يقرؤون الآن أرقام أرباحهم الخيالية...

فقالت الآنسة مورغان :ـ لهذا السبب يبدو لي أندرسون مثل الشيطان...

صوب ليستر ميد نظره إليها . لقد سبقته إلى ما كان سيقوله . فقد كان أندرسون في نظره أيضاً التجسيد التروبيكالي للوسواس . إنه شيطان . وقد قالت الآنسة مورغان ذلك .

ـ آه!... ـ وافقت السيدة أوبريند على الجلوس إلى جانب ليلاند على مقعد البيانو ، بينما كان الرجال والآنسة مورغان ما يزالون واقفين ـ ، إذا كان شيطاناً ، فلا بد لقصيدتي الليدة من أن تتخذ منحى آخر ، ألا ترى ذلك ؟ ـ قالت لزوجها السيد أوبريند الذي هرش رأسه قليلاً قبل أن يجيب :

ـ إذا ما سرتِ على هذا الطريق ، فسوف تنتهين إلى كتابة شيء يمكن تسميته «أندرسون أو الوسواس الأخضر» .

فقفز ليستر :

ـ الوسواس الأخضر ، هكذا سميتُ أندرسون على الدوام ، أليس كذلك يا ليلاند ؟ معارضاً إياه بالوسواس الجهنمي التوراتي الذي كان أحمر دون ريب .

ـ أجل ، فأنت تقول إن آلافاً مؤلفة من الرجال صعدوا إلى قمة جبل الآمال ، وهي قمة ذات لون أخضر ، فناداهم وقال : أتريدون امتلاك العالم ؟

ـ هذا جميل جداً! ـ قالت السيدة أوبريند ذلك في أذن ليلاند تقريباً بينما كان المهندس سمولت يحاول التصفيق بيديه اللتين كيدي ملاكم ، ويضيف بصوت عالٍ :

ـ أتريدون ثروات ؟

فاقترح ووكر :

ـ فلنترك ليستر يروي لنا ذلك ، ولكن علينا أن نملأ كؤوسنا أولاً ، ونجد مقعداً للآنسة مورغان .

فقال ليستر :

ـ لا أعرف قول ذلك أمام هذا العدد من الأشخاص الذين يحملون كؤوساً دون ويسكي ، وربما... لا ، أنا لا أريد المزيد يا ليلاند ، سأسحب كأسي ، لأنني شربت كثيراً...

ـ وأنا كذلك... ـ غطت الآنسة مورغان الكأس بيدها المفتوحة ، وأضافت : ـ لقد شربت كفايتي...

ـ ولكن قطرة لن تؤدي إلى فيضان النهر...

ـ شكراً ، إنك ودودة جداً يا سيدتي ، ولا يمكن لأحد مقاومتك...

دنا إرنيه ووكر من السيدة أوبريند ، ليشعر بأنها قريبة منه . لقد كان من الرجال الذين يقنعون بأن تكون المرأة التي يشتهونها قريبة منهم . أن يكون ضمن دائرة أنفاسها ، وأن يتناول من الهواء كل تلك الذرات غير متناهية الصغر التي تنبعث ، وهو أمر مثبت علمياً ، من فمها عندما تتكلم ومن أنفاسها عندما تتنفس . ويشم عطرها ، وهو عطر غريب ، تتحلل خلاصته في الجو المداري لتصبح شديدة تبعث النشوة .وبدأ ليستر ميد توضيحه :

ـ في ذلك اليوم ، صعد إلى الجبل رجال من سلالة قوية ، أبناء أناس متزمتين ؛ كل واحد منهم يحمل في جبهته مدينة الفضيلة ؛ وستجوب عيناه دروب نجوم طويلة ، إنعكاسات ضوء في الماء ؛ تقلبات الجو لم تعض لحمهم الذي من جذور ؛ لقد كانوا شديدي الصلابة بحيث لا يمكن لهم أن يضعفوا ؛ وكانوا طيبين كالأطفال ، لا يمكن لهم أن يكونوا أشراراً . وجميعهم كانوا ينامون تحت النجوم . وكانت هناك ظلمة فسيحة ذات بريق معدني ووميض أضواء في الأسفل ، حيث تبدأ المدينة . واقترب الشيطان الأخضر من أولئك الرجال ، وكان يخبئ في ظلمته لون أكثر الآمال واقعية ، إنه لون النقود في أشد تعابيرها إغراء : خضرة ـ ورق ـ النقد ـ الذهب . « أتريدون الثروات ؟ » ، سألهم ، دون أن يبدي وجهه جيداً ، منوماً إياهم مغناطيسياً بعينيه البقريتين . ورد أولئك بأن أي ثروة تحتاج إلى عمل كثير وأنهم قانعون بما يملكون ، لأنهم لا يريدون مزيداً من العمل . فضحك الوسواس في وجوههم « عمل ؟ أتقولون : عمل كثير ؟ » وخرج لهم من فمه لعاب أفاع مطحونة . «لن تكلفكم هذه الثروة الطائلة أي جهد أو عمل : افتحوا أعينكم ، انظروا هنا في الأسفل ، ابحثوا في برزخ بين بحرين عن هذه الأراضي الزرقاء ، الجبلية ، وأنا سأقدم إليكم البذور التي ستعطيكم شجيرات بلون النقد الأخضر ، شجيرات ستكون بفضل ثمارها وكأن كل أوراقها قابلة للتبديل في المصرف مقابل نقد ذهبي وسبائك ذهبية...»

وواصل ليستر :

ـ ووافقت سلالة الرجال الأقوياء تلك ، أبناء المتزمتين . والملايين التي تضاعفت بفضل مزارع الموز جعلت منهم أسياد العالم ، سادة الخليقة . وكان لا بد من زعيم ، فاجتمع مجلس المساهمين الذين كانوا يتربعون على سبائك

الذهب ، واختاروا البابا الأخضر . ليس هناك ما هو أشد إبهاراً من تلك المضاعفة الشيطانية للثروة ، على أساس لون أمل الرجال ، مقدمة إلى سلالة مدعوة إلى أعلى الأقدار ، لكي تفقدها في طريقها ؛ وقد كان أندرسون ، الوسواس ، هو الذي قدم لهم تلك الأراضي ، والثروة في تلك الأراضي دون أن يعملوا هم فيها ، لأن كتائب من الرجال المتعرقين ، من الرجال الملطخين بالشحم ، من الرجال المبتلين بأصناف الحمى ، الرجال الذين أعماهم البؤس ، الرجال الذين كان هذا هو قدرهم : العمل من أجل سلالة الوسواس القوية...

خيم الصمت لبعض الوقت بعد كلمات ليستر ميد الذي رفع إلى شفتيه آخر رشفة ويسكي ، وكانت ماء أكثر منها ويسكي ، لأن الثلج كان قد ذاب في الكأس بينما هو يتكلم .

قالت الآنسة مورغان بخجل :

ـ هذا غريب ، ولكنني أنا أيضاً كنتُ قد فكرت في هذه السلالة القوية ، وبثروة الوسواس الأخضر هذه التي حوّلتنا... حولتنا إلى ما نحن عليه... إلى مستغِلين ولا شيء سوى ذلك...

ـ لا ، أرجوكم ، لا نريد استخلاص نتائج ، لا! ـ صرخ بذلك توم وهو يستند إلى ووكر ، وكان صوته يُسمع مكرراً :

ـ بلا نتائج! لا تستخلصوا نتائج! ما قيل يجب أن يبقى مثلما قيل ، ولا شيء غير ذلك!

فقالت الآنسة مورغان بشيء من الغضب المهذب :

ـ لماذا نتحدث إذن ؟

ـ من أجل السيدة أوبريند ـ واستبقى وولكر حروف اسم السيدة

أوبريند الجميلة طويلاً بين شفتيه ، مستمتعاً بمذاقها ثم أضاف : ـ لكي تعرف السيدة كيف ستتوجه في نظم قصيدة الليدة ، أتنظمها حول أسطورة الرجل وطيران الفراشات الخضراء أم حول أندرسون الوسواس ، خالق الثروة الخضراء وحول البابا الأخضر...

عينا ليلاند وحدها أدركتا العاصفة التي مرت في قلب زوجها حين قال :

ـ النتائج ظاهرة للعيان ، ليست هناك حاجة لاستخلاصها أو توضيحها . ولماذا نفعل ذلك إذا كانت مرئية ؟ لقد خسرنا العالم من أجل حفنة من المال ، من أجل السيطرة على هذه المزارع ، من أجل الثروات التي تبلغ ، حتى وهي مقسمة إلى حصص أرباح ، ملايين وملايين الدولارات . لقد خسرنا العالم ، ولست أعني الهيمنة على العالم ، فهذه نملكها ، وإنما كسب العالم ، وهذا أمر مختلف . نحن الآن أسياد هذه الأراضي ، هذه الغوايات الخضراء ، إننا سادة ؛ ولكن علينا ألا ننسى أن زمن الهيمنة محدود وأن ساعة الرب آتية ، وهي ساعة الإنسان...

ـ إنها «الريح القوية»! ـ قال المهندس سمولت ذلك ليقطع الحديث بالحسنى ؛ فقد كان رجلاً عملياً ، وبدا له ذلك الكلام الطويل موعظة يوم أحد سيئة .

ـ لقد قالها المهندس ؛ ولكنها ليست «الريح القوية» التي تحدثْتُ عنها هنا كشيء مرعب ، كقوة طبيعية لا يمكن التغلب عليها... فساعة الإنسان ستكون «الريح القوية» التي سترفع صوتها المطالب والهادر ، وستكنسنا جميعاً .

فتناول توم بيكر مكنسة وجدها وراء الباب ، وبدأ يضرب الأصدقاء قائلاً لهم :

ـ اخرجوا خارجاً! خارجاً ، خارجاً...! أنا المكنسة ، أنا الريح القوية .

قفز الجميع لتفادي ضربات المكنسة على أقدامهم أو انحنوا إلى الأمام ليتجنبوا ضرباتها القوية على ظهورهم أو سيقانهم .

وصرخ أحدهم :

ـ فليرقص توم رقصة المكنسة!

وأخذت السيدة أوبريند تعزف لحناً مرحاً ، فانتهز الجميع ذلك ليقفزوا ويمسك كل واحد منهم بآخر مشكلين أزواجاً من الراقصين إلى أن بدأت الموسيقى تخفت ، وعندئذ يترك كل منهم رفيقه في الرقص ليستبدله بآخر ، أما من يرقص بالمكنسة فيفلتها ويبحث عمن يرقص معه . وفي أثناء تبديل كل راقص لرفيقه ، يتوجب على من يبقى وحيداً أن يمسك المكنسة ويرقص معها إلى أن تخفت الموسيقى مجدداً ويتجدد تبديل أزواج الراقصين .

وبينما كانوا يبدلون رفاقهم في الرقص ، دعا ووكر السيدة أوبريند للنهوض عن البيانو وطلب من ليلاند أن تواصل العزف مكانها . فالتقطت ليلاند الإيقاع وواصلت العزف . وكان السيد أوبريند على خير ما يرام مع الآنسة مورغان حتى أنه لم يعد يتذكر تبديل الراقصين ، وخصوصاً عندما كان يتوجب عليه إفلات رفيقته الشابة . وفي إحدى النوبات وجد السيد أوبريند أن زوجته قد بقيت من نصيبه للرقص معها ، فانحنى في الحال لالتقاط المكنسة . فرأى ووكر أن ذلك الرجل الرصين هو الزوج الكامل ، فشد إليه بحركة حميمة الصديقة العذبة ذات العينين الدراقيتين وهو يتظاهر بانهماكه في الرقص . لو أنه يستطيع تقبيلها بينما هو يحتضنها الآن! وبعد لحظة من ذلك كان عليه أن يراقص المكنسة . إنه تبدل أخرق ، ولكنه إجباري . مكنسة ، مكنسة حقيرة بدل ثمرته المحببة من «بستان شخص آخر» .

قال المهندس لليستر ميد :

ـ هؤلاء الأصدقاء هم الشيطان نفسه ، فأي شيطان أخضر . ولكن ، ما بدا لهم مبرراً للرقص ، سيتحول بالفعل إلى رقصة جهنمية مشؤومة ما لم يصلحوا أساليب تعاملهم . فالريح القوية ستكون ، مثلما قلت حضرتك ، وسيلة ثأر هؤلاء الناس الشغيلين المهانين المتألمين المستغَلين ؛ وأنا أفكر في أن أعرض الأمر هكذا وبكل وضوح عندما أرفع تقريري .

*

ـ لم تعد هناك مكنسة ، ولم تعد ثمة موسيقى ، ولكن الراقصين واصلوا تبادل رفاقهم... ـ كان ووكر يروي في اليوم التالي ما حدث ، بينما هو يحلق ذقنه ، لتيري دازين التي كانت تتابع الحديث معه من صالة الاستقبال . وأضاف : ـ الآنسة مورغان مع أوبريند .

فهتفت تيري دازين :

ـ يراودني شعور بأن هذا الشاب الهرم هو شخص عاجز .

ـ هذه مشاعر غيرة...

ـ مورغان ليست من النوع الذي يستهويني...

ـ أما أنا ، فأنت تعلمين ، لقد رقصتُ مع السيدة أوبريند الجميلة...

ـ إنها تعجبني أكثر...

ـ وأنا أيضاً...

ـ ومن هم أزواج الراقصين الآخرين ؟

ـ توم بيكر مع المهندس وكان كلاهما مخموراً...

ـ ولكنهما كانا متفاهمين أيضاً...

ـ لست أدري إذا ما كانا متفاهمين بالمعنى الذي تضفينه أنت على السؤال ، فالأسد يعتقد يا تيري دازين بأن الجميع يتفقون معه في الرأي ؛ ولكن الصحيح هو أن توم كان يريد تقبيل المهندس ، قائلاً إنه أبوه ، وكان المهندس يعانق توم قائلاً إنه أخوه . لو أنك كنت موجودة ، فمع من كنتِ تفضلين الرقص بدل المكنسة ؟

ـ مع ليلاند...

ـ في هذه الحالة ستخسرين...

ـ بالكامل . فهي مثلهن جميعاً ، مجرد امرأة طبيعية مقرفة ؛ وخصوصاً مع هذا الزوج المعتوه أكثر من معزى ، المواطن الجديد بيوتوبياه .

ـ لقد قدم موعظة هذه الليلة . قال إن ريحاً قوية غير معروفة ، أشد هولاً من الريح المعروفة بهذا الاسم ، ستهب على مزارع الموز لكي تكنسنا جميعاً ، عندما ينهزم الشيطان الأخضر أمام الرب في ساعة الإنسان .

ـ إنه أكبر سمج لا يطاق ، ولحسن الحظ أنه يعيش خارج هندستنا ، فأنا لا أعرف إذا ما كنتَ قد سمعته يتحدث عن الذهنية الهندسية المتوازية التي يصنفنا بها . فنحن محكومون بالمتوازيات حسب رأيه . المتوازيات التي تشكل معينات أفقنا في المزارع ، والتي تتكرر في مساكن العاملين ، وتُبقي فينا نحن جميع الكائنات التي لديها العقل ، ونعيش هنا ، حالة شيء لا يمكن بلوغه ، لا سبيل إلى بلوغه ، لأن المتوازيات ليست ما لا يلتقي وحسب ، وإنما هي تمضي متباعدة بعداً متساوياً ، وهذا البعد المتساوي يجعلنا نعيش منفصلين عن أنفسنا بالذات ، في شخصيتين متشابهتين ،

متماثلتين ، متوازيتين... وحسب رأي ليستر ، فإن العين البشرية تنطلق محلقة من النقطة التي تنتهي عندها خطوط الجداول المتاوزية ، تنطلق محلقة بصرياً أو تخيلياً ، بآلية الكائن العميق ، لتطيل تلك الخطوط ، ولا تتمكن من جعلها تلتقي لأنها تبقى على توازيها ذاك إلى ما لانهاية ؛ هذا يعني أن ثمة شيء فينا ، نحن من نعيش هنا ، لا يمكن له أن يتحقق أبداً ؛ لن يتحقق مطلقاً في الأفق ؛ وعندما يلجأ أحدنا يائساً إلى بيته بعد يوم العمل ، يجد أن بيته مصاغ بصورة هندسية مماثلة ، ما بين خطوط متوازية لا تنمحي إلا عندما يغمض النوم عيوننا...

ـ أنت واعظة للمذهب الجديد ـ قال لها ووكر بعد أن حلق ذقنه واستحم وارتدى ملابس زرقاء فاتحة ومد يده إلى تيري دازين ، فتلقى منها ، إضافة إلى المصافحة ، سيجارة .

وأضافت تيري دازين :

ـ وهذا كله ، حسب رأيه ، هو معادلة شيطانية وضع فكرتها البابا الأخضر حتى لا يشعر الناس الذين يعملون معنا مطلقاً بأنهم مستقرون ، وبأنهم يعيشون في مكان مستقر ، لأن محور آليتهم الحيوية ، في العمل وفي البيت ، من أجل أن يستقروا ، من أجل أن يشعروا بالأمان ، سيبقى موجهاً دوماً إلى حيث تلتقي توازيات المعينات ، أي إلى اللامكان .

ـ كل شيء سيكون على ما يرام ما دام بإمكاننا أن نرقص رقصة المكنسة ، لتبديل رفيق الرقص!

ـ آه ، وإذا أردت رأيه في الجنس... فهو أكثر جنوناً مني...

ـ لا بد أنه رغب في إقناعك بأنك رائعة إلى حد ما بسبب ميولك في التوازي...

ـ لا ، فميد شخص وقور ، وقد لا تصدق ذلك... إنه يحترم طريقتي

الرجولية التي أعيشها دون لحية ودون بدلة رجالية ، ودون سلوكيات الذكور الحمقاء .

ـ سأرى إذا ما كان بإمكاني تخفيف أحزاني بتناول «عنق حصان» ؛ أترغبين في تناول واحد ؟...

ـ الوقت ما زال مبكراً بالنسبة إليّ ؛ إنها الثامنة صباحاً فقط ؛ ولكن في هذا الحر الشيطاني ، أرغب في أن يلمس الثلج شفتي . . اسكب لي واحداً .

سكب ووكر بيد مرتعشة جرعتين كبيرتين من الويسكي في كأسين طويلين ، مثل عنق الحصان ، تغطي سطحيهما رسوم ماجنة ، ثم أضاف بعد ذلك الماء والثلج ، وبضع قطرات من الليمون .

ـ خذي هذه الكأس وانظري إليها ، إنها فتاة سمراء بديعة لها ساقان ممتلئتان ونهدان ناهضان .

بعد أن تمتعت تيري دازين برسم فينوس السمراء المنقوشة على الكأس ، بدأت بتذوق الويسكي ، وبعد الرشفة الأولى قدمت لصديقها سيجارة من علبتها ، وهي علبة ثمينة يظهر عليها فوق خلفية ذهبية رسم امرأة تبدو وكأنها تفتح ساقيها عند فتح العلبة .

ـ عليكِ أن تضعي لها هنا بعض فتات التبغ الأشقر لكي يبدو مثل شعر العانة...

ـ أنا أدخن تبغاً أسود .

ـ ها ، ها... ها... ها... ـ ضحك إرنيه ووكر ، ضارباً في أثناء ضحكه الثلج بجنبات الكأس .

ثم شربه دفعة واحدة تقريباً .

بعد كأس عنق الحصان انتقل إلى عنقه ، فتحصن ووكر وراء ابتسامة غامضة أظهرها على شفتيه وهو يدنو من تيري دازين ليقول لها بسرية إنه في مأزق .

ـ فزوجة أقدم آمر ، تلك التي تزوج منها للمرة الثالثة ، وهي شابة صغيرة ، جاءت قبل أيام إلى بيتي هنا و...

ـ ثلاث نقاط وقف...

ـ زوجها يبدأ اللعب منذ السبت ولا يعود إليها حتى يوم الاثنين ، وحين يكون هناك يوم عطلة بينهما ، يختفي من البيت ثلاثة أيام .

ـ عرفني عليها .

ـ هذه هي فكرتي ، تضليل الزوج الذي يغار مثل عطيل ، لأن هذا البائس لن يشعر بالغيرة منك ، وسيرى أن زوجته في حماية امرأة أخرى .

ـ لا يا عزيزي ؛ لقد استخدمني المديرون مرات كثيرة كستار . ولكن هذا دور يناسب قوادة . صحيح أن لي أخلاقياتي الجنسية المتهتكة ، ولكنها تسير في خط مستقيم : فأنا أقرف من دور القوادة ، لأن هناك في كل قوادة عاهرة لم تكتمل ، عاهرة تقف في منتصف الطريق .

ـ ولكن ليس هذا هو المأزق الأكبر ، فما يقلقني هو أنهم ينسبون إلي أبوة ابنة أحد أولئك الشباب الذين في الأسفل ، وهي ليست مني وإنما من كارل روس .

ـ آه ، لا . ابحث لك عن آخر لتمحو خطيئتك غير هذا الدون جوان المنحط!

ـ فلننسبها إذن إلى توم...

تعيش في أقفاصها! إنه الجحيم ، لأن أحدنا يذهب إلى الجحيم ليحترق ، مثلما يحترق هنا ، ولكن ربما لا يوجد هناك عذاب ما لا يمكن الوصول إليه ، ما لا يمكن تحقيقه ، ما هو موجود في آخر ما هو بلا نهاية!

جالت عينا ووكر المحتقنتين ببطء على الصالة التي هو فيها . وكانت صورة أمه في إطار فضي ذي نقوش ناتئة تظهر في أقصى الصالة بين نصف دزينة من الكتب . فقال بصوت متهدج :

ـ أولئك الناس كانوا سعداء ، لماذا... ـ ترك كأس الويسكي على المنضدة وهز نفسه قليلاً ، محركاً كتفيه ، بينما كانت تيري تكمل فكرته :

ـ لا حاجة إلى التفكير كثيراً لقول ذلك إذا ما اتبعنا نظرية ليستر ميد . لقد كانوا سعداء لأنهم لم ينساقوا لغواية الشيطان ، رفضوا عالم الثراء ، عالم الأرباح الهائلة ، والهيمنة الاقتصادية التي كان يعرضها عليهم من فوق جبل الأمل . لقد كان لدى أولئك الناس ما يكفي من الفضيلة والصلابة لصده . أما أجيالنا نحن فأصغت إلى صوت الوسواس ، وقبلنا عقد الحلف معه ، فوقعنا في القفص...

ـ الثروات تتضاعف هنا بصورة مذهلة . إنها أرقام فلكية . لو أن طفلاً بدأ بعدّ ما كسبه من الموز ، ليس بالبيزو ، وإنما بالألف بيزو ، فإنه سيبلغ الشيخوخة قبل أن يصل إلى الرقم الأخير .

ـ إنك تبالغ!

ـ والسلطة ، السلطة يا تيري دازين... السلطة بالنسبة إليّ هي الشيطانية ، الثروة توفر سلطة يمكن لها... إن باريس تستحق قداساً[1] .

(١) عبارة «باريس تستحق قداساً» قالها الملك هنري الثالث عندما اضطر إلى التحول من المذهب البروتستانتي إلى الكاثوليكي ، لكي يتمكن من الوصول إلى العرش . وقد سارت هذه العبارة مثلاً يشبه في معناه «الغاية تبرر الوسيلة» .

نهضت تيري دازين لتنصرف ، فقد اطلعت على ما دار في سهرة بيت آل ميد . فوضع ووكر قبعته ليرافقها . لأنه هو أيضاً يريد الخروج .

قال وهو يغلق باب البيت :

ـ بما أنني تخلفت عن المكتب اليوم ، فسوف أذهب لأرى ما سأفعله بشأن تلك الوليدة التي بلا أب .

ـ ولكنك وجدته ، إنه مسؤول المخزن...

ـ الأمر ليس سهلاً ، فالرجل يريد أن نتوسله ، لديه وساوس ضمير...

ـ مثلما كانت لدينا جميعنا ؛ ولكن جاءنا الوسواس ، ومن يمكنه مقاومته .

الفصل الحادي عشر

بابا ـ تشتشيغو ، هذا هو اللقب الذي كانوا يطلقونه على مسؤول المخزن ، وهو بائع قاتم اللون ، ولكنه ليس أسمر لامعاً ، وإنما أسمر رمادي ، له جلد حرشفي ، وأسرة كبيرة العدد مؤلفة من أبناء شقر . عندما أطل إرئيه ووكر بخصلة شعره المتهدلة على جبهته ، حاملاً قبعته بيده ، توقف عند الباب وقال بلكنة إنكليزية واضحة ، وهو مخمور قليلاً :

تيم مارين ،
من اثنين! ، من تراه كان ؟
كوكارا ، ماكارا ،
أنت ستكون الأب...

البائع الذي لم يستظرف هذا الشعر المبتذل كان يقرّع أحد المقيدين الكثيرين إلى أسلوب البيع بالتقسيط ، والذي كانت عظامه ، أمامه ، تُستشف من خلال ملابسه المؤلفة من قميص وبنطال ، مع منديل معقود حول عنقه .

ـ وانظر أنت ما يناسبك ؛ فإما أن تدفع ما هو متأخر عليك أو تعيد إلي الأشياء التي أخذتها .

ـ ليس من اللائق أن تعاملني هكذا ، فنحن أقرباء من جهة ابنتي التي حبلت منك ؛ وما الذي حصلنا عليه ؟ أنا حصلت على معزقة وحسب ، وكل ما سوى ذلك كان ملابس تافهة لها تصورتْ أنها كرمٌ منك .

ـ كان تصورها خطأ كبيراً إذن ؛ في هذه المبيعات الصغرى التي أقدمها بالتقسيط لا يوجد متسع للتمييز . عندما يكون فمكم مفتوحاً بتثاؤب الجوع تهرعون للتزلف إلى البائع ؛ فأصير عندئذ مثل قديس من لحم وعظم ؛ وعندما يتوجب الدفع ، تظهر التعللات... قبل أيام صرخ بي واحد منهم ، لا أعرف ما اسمه ، بأنني سأكون أول من سيعلقونه على أحد الأعمدة .

خرج الزبون دون أن يقول شيئاً ؛ ولكن بابا ـ تشيتشيغو رأى أنه من المناسب أن يواصل خطبته أمام ووكر...

ـ يريدون أن يعلقوني أنا ، لماذا لا يعلقون مدير مبيعات البضائع ؟ لا يمكن لأدنى شخص ، مثلما هو حالي ، في الجهاز الذي ينتزع من العمال ما يكسبونه ، أن يدفع الثمن ، فهم... أعني أنتم ـ وسدد إصبعه الطويل ذا العقد إلى ووكر ـ ، أنتم من تلجؤون إلى هذه الحيل لتكسبوا مزيداً من المال . ألا تخجلون وأنتم تكسبون الملايين ، من الالتفات إلى جني ما يمكن تسميته سرقة... ولماذا يعلقونني أنا! فليعلقوا أمهاتهم هؤلاء البائسين الذين مروا من هنا في ليلة سابقة وهم يصرخون بأنهم يريدون سلخ جلدي... اللعنة... ومن حسن الحظ أنك هنا يا مستر إرنيه ، لأنك في قائمة من سنُعلق على الأعمدة مثل أقراط الموز إلى أن تصفي طيور الرخمة الحساب معنا .

ـ أنا ، لماذا ؟

ـ لأنك عاهر ؛ لديك من النساء أكثر مما لدى سلطان ؛ هناك ستة من أسياد الحريم سينتقلون إلى الحياة الأفضل ؛ إنهم أبناء العاهرات ، ابتداء

بك ، والخلاسي سيفوينتيس ، ودون ميداردو ، ومستر ابيرنثي ، و التوأمين ، وذلك الآخر الذي يدعونه مينور ، وهو أكثر من يتشوقون إليه .

ضحك البائع قبالة لحيته ، أو بكلمة أصح قبالة خصلة الشعر الشقراء في جبهته ، متشمماً فمه ، ومستمتعاً بطعم الويسكي في أنفاسه .

ـ هو ، هو ، وممن هم في القائمة أيضاً آل رايبي ، والسيد اندراد أو أندراديس ، لا أعرف كيف هو اسمه ، والسيد العظيم خوانتشو مونخي... كثيرون ممن يذهبون في أسبوع الفصح إلى العاصمة ليحملوا الصليب في المواكب وهم يلبسون الأسمال لكي يغفر الرب لهم كل قذاراتهم مع العذراوات والمتزوجات ، وهم يجدون الغفران هناك ؛ أما هنا فالأمور متأججة ؛ ومسؤول المستودع هذا هو الترمومتر... يا لأبناء النفاق... جميعهم يرفضون الدفع... ها قد رأيت هذا الذي كان هنا... لقد كان واحداً من أكثر المنتظمين في الدفع... كل أسبوع يأتي بقسطه المستحق... وهذا الكلام عن الأقساط يبدو لي كريه الرائحة ، ولكن رائحته أسوأ بالنسبة لمن يدفع... إنهم لا يدفعون الآن ، لا بالترهيب ولا بالتوسل ، لا بهذا ولا بذاك...

خارج ظلال المستودع الحانية مثل كهف بارد ، كانت الشمس قد بدأت تحرق بنارها البيضاء في الظهيرة . دخل أحد مراقبي العمال حاملاً قبعته بيده ، وكأنه يجر نفسه متثاقلاً ، وسُمع وقع مهمازيه طويلاً في صمت المتجر ، حيث تتنقل الجرذان من جهة إلى أخرى وكأنها بندولات ذات أعين .

ـ اللعنة ، لم يعد بالإمكان الاتفاق مع أحد ؛ فقد تمرد حتى الهنود الذين كانوا وديعين على الدوام .

احتفظ البائع وإرنيه ووكر بالصمت ، بينما واصل مراقب العمال قائلاً :

ـ ولكنهم لا يفعلون شيئاً ، إنهم أناس غاطسون في خمرة القصب ، محفوظون بالسكون نفسه ، بالحزن نفسه ، باللحم الميت نفسه الذي للأجنة المحفوظة في قوارير مملوءة بالكحول! همم... السكارى ليسوا رجالاً ، وإنما هم أجنة كبيرة مغموسة في الكحول ، وأما أنت يا مستر ، فمغموس في الويسكي .

بقي إرنيه ووكر ينظر إليه باستياء ، ودنا منه البائع ليرى ما يريده .

ـ أريد أن أخبركم بأنهم قد ضربوا ساراخوبالدا . همم... ولا تفعلون شيئاً... لقد بدؤوا...

البائع شديد الضخامة والسواد والقسوة أبدى تكشيرة طفل صغير عندما سمع مراقب العمال يقول بأنهم قد ضربوا ساراخوبالدا .

ـ أنا سأغلق المخزن وأختبئ ، لحسن الحظ أن المكان واسع هنا ، ولكي يعثروا علي يتوجب عليهم أن يقلبوا ألف كيس مما هو موجود هنا .

وقال مراقب العمال :

ـ لقد تركتُ ساراخوبالدا في المستشفى . يا للمرأة المسكينة ، كانت وكأنها مسحوقة .

وبالفعل ، كانت ساراخوبالدا ذاوية في المستشفى مثل خرقة قديمة ، برأس أكثر شيباً ، وكأن الرعب العظيم الذي أصابها حين دخلوا بيتها قد شيَّبها .

لم تولِ ساراخوبالدا التهديدات اهتماماً في البدء ، ولكنها حين صارت وسط المعمعة ، حين رأت أشربتها السحرية على الأرض ، وضفادعها تتجمد

مثل زمرد ذي قوائم ، وأوراق اللعب الخاصة بقراءة الطالع ملقاة على الأرض ، ورأت تحطم قنينتين مرصودتين لم تكن قد دفنتهما بعد...

والأسوأ أنها بدأت تنزف دماً ، لأنهم حين دفعوها ليدخلوا إلى المطبخ الذي تستخدمه كمخبر ، رفسوها على مؤخرتها فسقطت أرضاً . أشفق عليها واحد منهم ، واحد تنقصه إحدى عينيه ، فحملها إلى المستشفى . وبما أنها كانت تنزف سائلاً أحمر في كل خطوة على الطريق ، فقد قرر أن يحملها . ألقى بها على كتفه مجازفاً بأن تلوثه بالدم وتلقى عليه المسؤولية . ولكن الأعور قال لنفسه إما أن يُعمل المعروف على أحسن وجه أو لا يُعمل ، وهكذا وصل إلى المستشفى حاملاً ساراخوبالدا على كتفه .

تولى الحالة طبيب له عينان واسعتان مخمليتان ، ووجه منتفخ ، وذراعان قصيرتان . وقد قال لدى رؤيته ساراخوبالدا :

ـ لقد دفعت هذه الساحرة العجوز الثمن أخيراً... ـ ولكن ساراخوبالدا التي كانت بوجه دون دم ، وكان الموت مرسوماً على سحنتها ، لم تره إلا من خلال احتضارها وهو يضيف قائلاً : ـ.. وأي ثمن... لقد دفعته على يد زنجي ما... هؤلاء العجائز يتحيّنّ الفرص للعودة إلى رذائلهن... لا بد أنها قالت الحرب هي الحرب...

آنسات يغطين أيديهن بقفازات لها لون أزهار البيغونية الوردية ، أخرجن من خزائن زجاجية أدوات معدنية ومزيداً من الأدوات المعدنية .

وفي أثناء ذلك خرج منسلاً ذلك الأعور الذي صنع معروفاً بحملها إلى المستشفى . فهو ليس زوجها ليبقى هناك ؛ ولكن الصحيح أنه لم يغادر قبل أن يرى كل شيء في ساراخوبالدا ليعرف كيف هي .

وأوضح الطبيب :

ـ ليس لهذه البائسة من مهمة أكثر من بيع سوائل تشويش الأدمغة . لقد وقعتِ الآن في يدي ، فلماذا لا أفعل الشيء نفسه ؟ لماذا لا أستدعي الذي اغتصبك وأقول له ها هي ذي عفونتكِ ذات الشعر كي يخيب أمله دفعة واحدة ؟

أحست ساراخوبالدا بقلبها الذي ينبض في داخلها ، بأنهم يحلقون شعرها الذي في الأسفل بآلة حلاقة من تلك التي يستخدمها الرجال لحلاقة ذقونهم .

وواصل الطبيب :

ـ وهذه كانت مسؤولة ، حتى ولو قالوا عكس ذلك ، عن تحول العواطف الذي وقعت ضحيته زوجة العجوز جون بيل ، وعن قذارات أخرى...

صمت الطبيب ليبدأ العمل بأدوات تشبه الملاعق ، بينما ساراخوبالدا تزم شفتيها من الألم وهي ترتعش من خصرها حتى رأسها ومن خصرها حتى قدميها ؛ وكل هذا لأن إحدى مساعدات الطبيب أدخلت لها هناك في الأسفل جهازاً أحست به مثل طقم أسنان اصطناعية ، لكي يتمكن الطبيب من التجريف .

وبقي الطبيب يتكلم بصوت مرح بعد التجريف ، وبعد أن خلع قفازيه ، عندما كان الماء يتدفق من صنبورين ليزيل عن يده وعما بين أصابعه رغوة الصابون البيضاء كبياض أسنانه ، ثم ضحك وهو يتناول المنشفة ليمسح يديه وكرر :

ـ الحرب هي الحرب ، أليس كذلك أيتها العجوز الشيطانية ؟

كان الجو حاراً ، والمراوح تئز دون توقف . وكانت تنتشر في صالة العمليات رائحة البرمنغنات الحرّيفة التي غسلها بها قبل أن يغطيها بالشاش القطني .

تولى مراقب العمال لدى خروجه من المخزن رواية خبر الهجوم على ساراخوبالدا في كل مكان . وكان أكثر من أحس بالذعر هم دون أندراديتو وخونتشو مونخي وأمثالهما . فعلى الرغم من مسدساتهم اللامعة ، ومن بنادقهم ودقة تصويبهم ، وعلى الرغم من صلواتهم التي ينثرونها الآن على الزجاج الذي يغطي لوحات القديسين التي كانت منسية في بيوتهم من قبل ، وكأنها أنفاسهم أو لهاثهم ، ولم يعد أي واحد منهم يشعر بالأمان . كان عمال المزارع ينظرون إليهم مثلما كانوا ينظرون إليهم على الدوام ؛ ولكنهم يشعرون بأنهم ينظرون إليهم بطريقة أخرى ، لا يعرفون أن يوضحوا كيف ، ولكن... كما لو أنهم يتلمسونهم ليروا أفضل مكان يوجهون فيه إليهم الضربة القاتلة عندما تحين ساعة تصفية الحساب .

صارت زوجاتهم يعتمدن عليهم في البيت في كل وقت . فقد كان من الخطر الخروج للمشي خارجاً . إنهم يأتون من العمل إلى البيت ليقرؤوا قليلاً في مجلات وكتب قديمة ، وليتابعوا شؤون الأولاد ، وتجديد القناديل التي تضاء أمام القديسين ويسوع ليلاً ونهاراً . كتل صامتة ، بحر من الحزم ذات القبعات ، يد عملاقة لها أصابع درنية قاتمة وأظفار غرانيتية ، شفرات معدنية طويلة تشق الهواء الذي يتنفسونه هم . . الآمرون ، والقباطنة ، والعرفاء .

يفكون أزرار قمصانهم ليتفسوا . فلا بد لهم من فتح الذراعين على مصراعيهما ، كما الأبواب ، للخروج من أنفسهم نفسها ، للخروج من « هم » المرتعبين التي في داخلهم . سباق سباحة في ظلمة الليل المتلألئة بندى لم

يكن ندى وإنما عرق ، عرق المسيح الموزع على ألف جبهة تنحني على الأرض حتى الإنهاك .

الآمرون والقباطنة والعرفاء ينامون وأسماعهم في كل مكان . ولدى أدنى ضجة يقفزون من فراشهم ، يقفزون عراة مثلما ينامون ، عراة ومطهوين بالحر إلى جانب زوجاتهم العاريات ، وأبنائهم العراة ، ويخرجون للبحث في عمق ظلمة سطح الأرض الخضراء ـ السوداء ، وليروا إذا ما كانت هناك كتلة تتحرك ، ظل يتحرك . وفي بعض الأحيان يطلقون النار في الليل على خوفهم نفسه . كلب ينبح ، نسمة هواء نذلة تنفذ وتطرق الباب ، حركات الطيور الهاجعة في الأقنان .

ـ لقد وصلت بنادق رشاشة!... الكثير منها ـ كان هذا هو الخبر العظيم ـ ، لقد وصلت بنادق رشاشة... وجنود... وهم يعسكرون هناك فيما وراء المحطة!...

خرج الآمرون والقباطنة والعرفاء منذ الصباح الباكر ليقنعوا أنفسهم . وكانت جماعات من العمال تتجول هناك أيضاً . ولم يعد أولئك يبقون في بيوتهم بعد انتهاء يوم العمل . لقد نسوا القراءة ، والأبناء... يا للملل!... ونسوا كذلك صلواتهم . فقد كانت البنادق هي أفضل صلاة ضد التهديدات السفيهة التي وجهها إليهم آباء أو أخوة أو أقارب أو مجرد معارف الفتيات المغرر بهن .

مسؤول المستودعات ، مثل من يجر سلاسل ثقيلة ، كان يسحب كل ليلة سريره الحديدي في أرجاء المستودع ، لينام في كل ليلة في مكان مختلف . وكان يقول :

ـ لقد رأيت هذه البنادق الرشاشة في بلادي... إنها تأتي الآن لحمايتهم

هم ؛ فالجنود أناس من الشعب ، إنهم هنود مثل العمال ويجب عدم الاطمئنان كثيراً... هذه البنادق ستأتي في أحد الأيام لتكنسنا نحن ، ها... وستتذكرونني عندئذ ، أنا بابا ـ تشيتشيغو .

اقتادوا صفاً من المعتقلين ومن بينهم باستيانثيتو كوخوبول وخوانتشو لوثيرو ، وكل الشجعان الذين لا يعرفون الخوف أمام أي خطر ، أولئك الذين يقولون للموت تعال هنا .

من وجوه النساء اللواتي جئن إلى المحطة ملتصقات بأزواجهن ، وسط الجنود ، انطلق البكاء عندما حشروهم جميعاً في شاحنة لنقل المواشي . رفع باستيانثيتو بصره وتطلع دون تأثر ، بينما رفع لوثيرو يده المحمصة والمقرحة ليقول وداعاً لذويه .

في اليوم التالي سافر ليستر ميد إلى العاصمة بقبعته ذات الحواف العريضة ، والغليون في فمه وحقيبتة في يده .

جاء القطار متأخراً جداً . فاضطر إلى الانتظار لساعتين وأربعين دقيقة جالساً على أحد مقاعد المحطة ، قبالة المشهد نفسه ، إلى جانب ليلاند . لم يتكلما . كانت ليلاند تشعر بأنها على ما يرام وهي تجلس إلى جانبه بصمت . الكلاب المتشردة كالذباب ، هياكل عظمية كئيبة على أربع قوائم . وبين حين وآخر يأتي واحد من أولئك الزبائن الذين لا يعرفون إلى أي مكتب عليهم أن يتوجهوا ، ويسألهما إن كانا يعرفان في أي ساعة سيصل القطار . فيردون عليه . الضوء والحر نفسيهما . والصمت نفسه . والذباب نفسه . ومن بين الأشجار التي تبدو في البعد غمامات دخان منخفضة ، من بين أشجار النخيل وجوز الهند ، ظهرت القاطرة متمايلة مثل بطة . صفير ، أجراس . وداع .

ذهب ليستر ميد إلى محاميه ، وهو موظف قانوي سابق يستدعي سلوكه نبش نعوت مدفونة لم تعد معروفة ، مثل : نزيه جداً ، غير قابل للرشوة ، طاهر ، غير قابل للإفساد ، وبكل هذه الصفات ، بدا مثل مسيح هائل .

كان المحامي يرتدي بدلة مهلهلة ، وقميصاً أُدخل المستشفى مرات ومرات ، وربطة عنق على شكل فراشة حُنطت ألف مرة ، لا يكاد يثبتها زر الياقة ، وحذاء أكبر من مقاس قدميه ، وقد أوضح لزبونه بأنه فور تلقيه برقيته ذهب إلى المحكمة العسكرية ليتفحص لوائح الاتهام ، ولم يجد شيئاً .

ـ لا يوجد شيء ويبقونهم مسجونين!

ـ دعني أكمل يا سيد ميد . الشيء الوحيد الموجود هي أوراق مطبوعة ، الكثير من الأوراق المطبوعة ؛ ولكن ليس هناك ما يبرر سجن المتهمين .

ـ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أن رجالي مسجونون ؛ وهذا يعني يا سيدي المحامي أن هناك شيئاً .

ـ بالطبع ، ولكن الأمر بالنسبة إليَ هو بكل تأكيد تصرف غير شرعي وغير دستوري بصورة جلية تماماً ؛ إنه إجراء تعسفي الهدف منه عدم تكرار هذه الأحداث ـ أخرج المحامي سيجارة ، مصنوعة في البيت ، أشعلها وأضاف بعد النفس الأول منها بصوت البائس الخجول الذي أوصلته إليه نزاهته :ـ أنا أرى أنه إذا كانت المحاكم تعمل بعيداً عن أي قاعدة قانونية ، فإن إتباع الطرق القانونية سيؤدي إلى زيادة وزيادة حجم الأوراق في القضية ، دون التوصل إلى إطلاق سراح الموقوفين .

ـ وبماذا تنصح أيها السيد المحامي .

ـ يجب علينا سلوك السبل الملتوية ، الملـ... تـ... ـو... ية...

استقصى ليستر ميد على الفور عمن يكون محامي شركة «تروبيكال للموز المغفلة» وذهب إليه مباشرة قبل انتصاف النهار .

كان مكتب المحامي يعبق بفخامة عابرة محيطات توفر الراحة لحركات المسؤولين والموظفين في المكاتب اليانكية . وكان المحامي يرتدي بدلة متقنة مفصلة في نيويورك ، وقد أدخل ميد إلى مكتبه حين رآه يدخل فوراً ، بالرغم من وجود عدة زبائن ينتظرون في الردهة .

ـ الزبائن الأجانب أولاً ـ قال له المحامي ذلك وهو يحني رأسه بينما كان يغلق باب مكتبه .

جلس ميد على أريكة من الجلد ، وبعد أن استقر المحامي وراء مكتبه ، قال له :

ـ أنا أملك أرضاً مجاورة لمزارعين اعتقلوا يوم أمس ، وكجار لهم أحاول أن أرى ما الذي يمكنني عمله من أجلهم . وأعتقد أن حضرتك تمثل جهة الادعاء في هذه القضية .

ـ أشكر لك زيارتك ، ولكن عليّ أن أخبرك بأننا لم ندّعي على أحد . كل ما نفعله عندما تسوء الأمور ، أننا نوعز إلى الصحافة لتنشر أخباراً موجهة إلى الجمهور ، وهو بالنسبة إلينا أفضل حكم في مثل هذه القضايا . وقد رأيت حضرتك كم من الأوراق امتلأت بالأخبار والتعليقات والصور حول ما لا يمكننا أن نطلق عليه تسمية تمرد ، وإنما حادثة شغب صغيرة ، وهكذا قررت الحكومة الغيورة على النظام ، بالنظر إلى أخبار الصحف المثيرة

للذعر ، أن تضع حداً لذلك قبل فوات الأوان ، فأرسلت القوات إلى مكان الأحداث واعتقلت الرؤوس المدبرة .

نهض ميد ، وصافح يد محامي الشركة الذي كان يثبت ربطة عنقه الحريرية بدبوس من الماس ، وخرج متوجهاً إلى إحدى أوسع الصحف انتشاراً لكي يطلب نشر توضيح للأحداث ، حتى ولو دفع أجراً مقابل ذلك .

في الصحيفة ، ما بين لفافات ورق ضخمة كانوا ينزلونها من شاحنة ، فتهز كل لفافة منها كل شيء حين تسقط على الأرض ، ثم يدحرجونها رويداً رويداً بواسطة عتلات ما بين حشد من الفضوليين ، تمكن من الوصول إلى قاعات التحرير ، وهي مكاتب من زجاج وخشب حيث تصل ضجة آلات اللينوتيب وكأنها صوت مطر ناعس .

استقبله صحفي وجهه منخور بالجدري ، له عينان ذكيتان وشفتان غليظتان وأسنان غير مكتملة . فأوضح له ميد ما يريده . سجل الصحفي بعض الملاحظات من أجل التوضيح التالي للأحداث ، ولكنه توقف فجأة وقال إنه من الأفضل في هذه الحالة مناقشة المسألة مع المدير .

قال ذلك واختفى في الحال ليعود بعد ثانية تقريباً ، ويشير إلى ميد بأن يرافقه إلى مكتب المدير . ولدى الدخول التقت عينا الأمريكي الشمالي الخضراوان برجل ضخم القامة ، متكور البطن ، قصير الرقبة ، يتخلل الشيب شعره الذي يتساقط ، ولبشرته لون القهوة الطفيلي اللاحم .

كان يأتي صوت آلة كاتبة من بعيد ، ولكنها أقرب من الخلفية المسرنمة التي يضفيها مطر آلات اللينوتيب الذي لا ينقطع . بعد أن حيا المدير ميد ، جلس ليوقع رسالة بقلم حبر ذهبي ، ثم لمس زر جرس كهربائي بطرف إصبعه الحبيس ما بين عاج زر الجرس وعاج ظفره المشذب

بدقة على يدٍ مقلمة أظفار متخصصة . ثم التفت للاهتمام بالزائر طالباً منه برقة فرانسيسكانية أن يوضح له القضية .

بعد أن استمع إلى ميد خلال خمس دقائق ، رد عليه دون أن يبدل نبرة صوته الناعم والمقنع بأن إحدى القواعد المتبعة في صحيفته هي عدم تصحيح الأخبار المنشورة ، اللهم إلا في الحالات التي يفرض فيها القانون ذلك أو عندما يتعلق الأمر بأخبار حول أحداث وقعت على مرأى من الجميع .

ـ يمكن عمل ذلك إذن في مساحة مدفوعة ـ قال ميد وهو يمد يده إلى محفظته التي يحملها في جيب فوق صدره .

ـ ليست هذه هي المسألة . فالنقود هي آخر ما نفكر به في هذه الحالة .

ـ أنت تعني نقودي بالذات...

ـ من الأفضل أن تفهم حضرتك الموقف . هذه المساحة المدفوعة ستكون ضد مصالح أحد أفضل المعلنين لدينا ، أعني «شركة تربيكال للموز المغفلة» . ومع ذلك ، فمن الأجدى لحضرتك أن تزور صحفاً أخرى ، وستجد صحيفة تتولى نشر توضيحك .

ولكنه لم يجد . فمديرو الصحف الأخرى قالوا له الشيء نفسه بقدر أقل من الكياسة .

في تلك الليلة التقى ليستر ميد في النادي الأمريكي بمدير الصحيفة الأولى التي زارها ، وكان يلعب البلياردو .

ـ هل توصلت إلى ما كنت تبحث عنه ؟ ـ توجه المدير بالسؤال إلى ليستر ميد .

ـ لا يا سيدي ، لم أجد مكاناً أنشر فيه حقيقة ما حدث للرجال الذين اعتقلوهم ، ولكن الأخطر من ذلك أنني ذهبت إلى المحكمة العسكرية حيث

تتواصل المحاكمات ، وصحفكم هي جزء من الادعاء . فما نشرته الصحف ، حسب ما قاله لي محامي الشركة ، هو ما أخبرتكم به شركة تروبيكال للموز . والشركة هي طرف ذو مصلحة في القضية ، قدمت لكم المعلومات ، وهذه المعلومات التي انتقلت إلى المطابع والصحف ، تحولت إلى الدليل على الأحداث المزيفة بالكامل .

ـ سأتناول كأس كونياك... ـ قال الصحفي وهو ما يزال يحمل عصا البلياردو في يده ويهزها مثل قوس الكمان ـ . اسمع أيها الساقي ، أعدّ لي كأس كونياك وإلى جانبه كأساً من الجن مع الثلج . ماذا يمكنني أن أقدم لك ؟

ـ شراب نعناع...

ـ وكيف تريده يا مستر ميد ؟

ـ مع ثلج مسحوق .

فحدد الساقي :

ـ آه ، أجل ، شراب الهوغونيتي!

وقال مدير الصحيفة :

ـ أنت ترى أننا نسيء التصرف في ما نفعله ؛ حين يكون المرء مثالياً...

فقاطعه ليستر :

ـ أنا رجل عملي ، ولست أرى أنك تسيء التصرف أنت وزملاؤك في ما تفعلونه . ولكن ما يبدو لي غير جيد هو أن صحيفتك ، ويمكنني أن أعمم وأقول كل صحف البلاد ، تعلن أنها ناطقة بلسان الرأي العام ، بينما يستدعي الإخلاص والصراحة تسميتها باسمها الحقيقي : الناطقة بلسان «شركة تروبيكال للموز» .

ـ بالضبط ، بالضبط!... عندئذ سيخسر الزبون وحده ، لأننا في هذه الحالة سنفقد فعاليتنا في نظر الجمهور .

ـ وهنا يكمن السوء : استخدام الحرية من أجل القضاء على الحرية ؛ هذا هو ما يجري في هذه البلدان... بعضها أكثر... وبعضها أقل ـ كان ليستر ميد يرشف شراب نعناعه مع الثلج ، وكان السائل أخضر مثل عينيه ـ . تمتلكون الحرية ، وعندما تستخدمونها تفعلون ذلك للقضاء على الحرية!

ـ هل تنصحنا حضرتك إذن بوضع قيود ناظمة .

ـ لا أدري ما أقول ؛ إنني أنكلوسكسوني وأرى أن حرية الصحافة هي من طبيعة ليست أفضل من هذا التزييف للرأي العام الذي تمارسونه في صحف ليست حرة ، ولكنها تظن وتسمي نفسها حرة لدى أدنى محاولة رقابة أو وضع قيود ناظمة .

أغلق الصحفي عينيه بأكياس جفونه ليشرب رشفة الكونياك الأخيرة . وحين رفع ذراعه انفتحت سترته ، ورأى ليستر مسدساً قاتماً مثبتاً في حزامه من الأمام .

كان باستيانثيتو كوخوبول وخوان لوثيرو قد حوكما بتهمة التمرد وعصيان السلطات والتشرد ، وهو ما لخصه المحقق العسكري بكلمة واحدة : الخطورة . وكانوا قد قصوا لهما شعر رأسيهما بالكامل وألبسوهما القميص والبنطال المخططين التقليديين .

قال المحقق لميد :

ـ نحن لا نملك مختبرات مثل تلك الموجودة في الولايات المجتمعة (هكذا كان يسمي الولايات المتحدة) ، لقياس مؤشر الخطورة لدى هؤلاء

الأشخاص . فالعلوم الجنائية تطورت كثيراً في الولايات المجتمعة ، ولم تعد هذا الذي يقال عن القانون ولا شيء غير القانون وعدم الخروج عن القانون .

توقف موظف يرتدي الأزرق المائل إلى البنفسجي عند الباب ، وحين رأى أن هناك زائراً لدى رئيسه ، أراد الانصراف ، ولكن المحقق استدعاه :

ـ تعال يا دون كاسيميرو ، فأنت من تتولى ملف المشاركين في مشادة الساحل . ـ ثم توجه إلى ليستر قائلاً : ـ إنها أمور لا تحدث في الولايات المجتمعة . فأحدنا يشعر بتأنيب ضمير لا أدري كيف أصفه وهو يرسل أناساً بائسين لتكسير الصخور ، ولكن إذا لم نعاقبهم مثلما طالبت الصحافة ، فسيتجاوز الجميع حدودهم ؛ وإذا كان يؤلمهم أنهم فقراء فليكتموا في قلوبهم ، ولكن عليهم ألا يتمردوا ، فمن أجل هذا وُجد القانون .

ـ المحاكمة تشمل سبعة عشر شخصاً ـ أوضح السكرتير ، وهو دون كاسيميرو نفسه الذي أراد الدخول قبل قليل ، وقد راح يقترب الآن من طاولة المحقق حاملاً قنطاراً من أوراق القضية .

ـ هل حضرتك محامٍ من الولايات ؟

فرد ليستر ميد :

ـ لا يا سيدي...

ـ ربما تكون إذن أحد رؤساء شركة «تروبيكال للموز»...

ـ لا ، لستُ كذلك...

ـ ولكنك تمثل جهة الادعاء دون شك .

ـ لا يا سيدي ، لقد جئت الآن ، وكنت قد جئت من قبل ، لأن اثنين

ممن تسمونهم متهمين ، وأعني كوخوبول ولوثيرو ، هما شريكاي .

عندئذ لم يراود المحقق العسكري الشك لحظة واحدة في أن هذا الأجنبي شريك هذين الشخصين الخطرين ليس سوى فوضوي من أولئك الذين يلقون القنابل على الملوك ويبصقون في طبق القربان

و...

قطع أفكاره . وأعاد إسناد مؤخرة من أمضى حياته جالساً ، لكي يواجه الفوضوي المزعوم .

هناك شرطي نائم في كل محامي ، أما في هذا المحامي ، فكانت تنام كتيبة من الشرطة .

ـ أريد رؤية وثائقك قبل أن أريك ملفات القضية .

وجد أن كل الوثائق نظامية .

ـ حسن ـ قال بعد أن تصفح جواز السفر ودفتر الخدمة العسكرية وبعض الوثائق الأخرى ـ حسن ، لا يمكن الإفراج عن مرتكبي هذا النوع من الجرائم بكفالة ؛ ولكن بما إن الأمر يتعلق بمالكي قطع أرض مزروعة ، فإن الوضع يتبدل ، ويمكننا البحث عن مخرج . قدم لي عريضة بهذا المعنى . يمكن للسيد السكرتير هنا أن يكتبها لك .

فهمس دون كاسيميرو بما يشبه المزاح ، ولكن التلميح كان مباشراً :

ـ يجب أن يكون «التامال»[1] ملفوفاً جيداً بأوراق خضراء...

---

(١) التامال Tamal : نوع من الطعام الشائع في بلدان اميركا الوسطى ، وخاصة في المكسيك ، يصنع من الذرة المهروسة مع اللحم والبهارات ، ويغلف بأوراق الذرة والموز عند طهوه .

ورد عليه ميد وقد التقط التلميح مباشرة :

ـ لن تعدم وجود أوراق خضراء... ثم أضاف بنبرة ساخرة : ـ هذا إذا وضعت ناراً كافيه تحت التامال لكي ينضج بسرعة .

ـ متى تريد حضرتك المغادرة ؟

ـ بودي أن أغادر في الغد ؛ ولكنني أستطيع الانتظار إلى أن يصبح كل شيء جاهزاً .

ـ ما رأيك في يومين ؟ ولكن يجب البحث عن أوراق موز خضراء تمنح التامال طعماً لذيذاً .

ـ هذا ما أراه ؛ فتامال الشركة يبدو لذيذاً جداً...

ـ إنه تامال حلو ، ألا ترى ذلك ؟

أخرج ليستر من محفظته رزمة أوراق نقدية خضراء كأوراق لف التامال ، أوراق خضراء ، أوراق موز . ولأن باستيانثيتو كوخوبول وخوان لوثيرو يملكان قطع أرض مزروعة وهي قيد الإنتاج ، ولا بد من وجودهما من أجل إنقاذ المحصول ، إضافة إلى بعض الاعتبارات الأخرى ، رجع ليستر ميد برفقة شريكيه .

سافروا في القطار الليلي ، على مقاعد عربة الدرجة الثانية ، ووصلوا في صباح اليوم التالي بعد ليلة قطارية . كانت هناك ستائر ناعمة من سحب ذات لون أزرق مائل إلى الخضرة ، وخبازي ، ووردي ، وأصفر شاحب معلقة في سماء الساحل في ساعة الفجر العظيمة تلك ، عندما يكون الحر خفيف الوطأة ، ولكنه يُشعر بوجوده .

*

أجبرتهم رائحة نتانة الموت على تقليب موجودات المستودع الثقيلة بعد عدة أيام من التعليقات حول اختفاء مسؤول المتجر بابا ـ تشيتشينغو . لقد هرب . إنه مجرد مكسيكي في نهاية المطاف . هرب بكل أرصدة المتجر . لهذا السبب كان يُحصّل ويحصل الديون في الأيام الأخيرة . لم يعد يتحمل سخرياتهم . لقد أصابه جوع حمل فطيم لتحصيل الديون . من لا يستطيع أن يدفع عشرة بيزوات ، فليدفع ثمانية ، وإذا لم يكن ذلك ممكناً فإنه يرضى ببيزوين اثنين . عملية سلب أخيرة لتقليص الديون ، وامتلاك رصيد ، فالنقود المبعثرة كثيرة جداً . كانت هذه هي ذريعته . ولكن ما جرى هو أنه حصّل ما استطاع تحصيله واختفى . وكل الأبناء الذين تركهم ، حشد من الرؤوس الشقراء ، خرجوا من هنا ، ومن هناك ، ومن كل مكان مثل صيصان تزقزق . جاء رئيس المبيعات ، وهو غرينغو له ساق من الفلين ، وتسلم المفاتيح وبدأ بمراجعة سجلات وقوائم البضائع .

ولكنه لم يتمكن من الدخول إلا لحظة واحدة ، خرج بعدها من المستودع وقد تفتتت ساقه الفلينية وهي تدب على ألواح خشب الأرضية بدوي ناقوس خشبي . وحين صار خارجاً ، بقي يكبح معدته ، فقد كان يوشك على التقيؤ ، لأن رائحة ميت قوية ونتنة ملأت أنفه الأفطس . طلب إحضار عمال ليفتشوا المستودع ، وفي أحد الأركان ، فوق السرير الحديدي المخلع ، وتحت كومة من أكياس البن وعلب مسحوق الحليب ، كان البائع يرقد وصدره ملتصق بظهره . ففي ذروة خوفه من أن يقتله العمال ، كان يجر سريره ليلة بعد ليلة من مكان إلى آخر ، مصدراً ضجة كأنها ضجة السلاسل ، مختبئاً من الظلمة في الظلمة نفسها ، وفي إحدى تلك الليالي ، اختطفته ظلمة الموت ، ولفه الظلام النهائي ، فسحقه في فراشه . حضرت الجنازة نساء من كل الأعمار ، إنهن النساء المزعومات اللواتي حملن منه ،

مع أنه لم يكن يعرفهن ، ذلك أنهم كانوا يدفعون له جيداً مقابل كل ابن يوافق على تبنيه . كانت هناك قدر طينية قديمة ، تغطي سطحها طبقة من الرماد وتحتها طبقة من الفحم ، لكي تبدو وكأنها موقد ، وفيها كان يخبئ كنزه . ومرت النساء واحدة بعد أخرى ، مع أبنائهن الشقر ، ليتسلمن من الغرينغو ذي الساق الفلينية ، النسبة التي خُصصت لكل واحدة منهن من كنز بابا ـ تشيتشينغو .

الفصل الثاني عشر

ـ مهما يكن ، فأنا قلما أتأثر ، أو لا أتأثر أبداً بالمأساة الشخصية ، وما يقلقني هو المأساة الجماعية! فإذا قالوا إن الحيوانات بدأت تنفق بسبب نقص الماء ، أشعر بعطش أشد ، ولكنني لا أقدر في الوقت نفسه أن أشرب أكثر من كوب ماء . إنه تأنيب الضمير من امتلاك فائض كثير في حين هناك آخرون محتاجون!...

ـ الحقيقة أن هناك طباعاً تتأثر بالمأساة الجماعية... ربما لأن المرء يكون قد عاش مأساته الشخصية الصغيرة وعرف أن كل مأساة فردية هي مأساة مصغرة ومحدودة ؛ بينما الأخرى ، الكبيرة ، التي لم تتولد من المنفعة المحبطة ، أو من جرح الكبرياء الشخصية ، وإنما هي الواقع المباشر ، الأعمى والفسيح للغالبية العظمى . ـ كانا في عربة السولكي ، وكانت ليلاند تضع شريطاً أخضر يشد شعرها مثل تاج ، تاركة الهواء يداعب خصلاته الحريرية التي من ذهب أخضر ، بينما كان هو منطفئاً بعض الشيء من أعمال اليوم ، بذقن غير حليقة ، يمضغ السيجار في فمه .

ـ الهنود لم يعيشوا في هذه المناخات القائظة ولهذا استطاعوا ابتداع

آلهة طيبين ، كرماء ، إنسانيين ، يشبهون كثيراً آلهة الجزر اليونانية . أما في هذه الرطوبة الحارة فكل شيء يبدو وكأنه يحترق ، ولا مجال لظهور ألوهية عطوفة . إنه حريق عظيم وكئيب دون لهيب...

ـ وأنا أيضاً يا ليلاند أشعر أحياناً بالحنين إلى أولئك الآلهة الطيبين ، وأرغب في الخروج من هذا الجحيم المداري .

ـ ستخرج يا ليستر ، وحين نصير بعيدين سيبدو لنا لذيذاً حينئذ طعم العرق الذي يحرق وجوهنا وكأننا نبكي من كل مساماتنا . أجل ، فنحن ـ دون أن نشعر ـ نبكي ، نتعرق...

الجسور الممتدة فوق أنهار صغيرة ما بين ضفتين مزهرتين ، كانت تعيدهما إلى واقع عجلات العربة التي كانت تضيع مثل نيزك ما بين حقول الموز ، الحقول الهندسية التي ما لبثا أن خلفاها وراءهما ليواصلا قدماً ما بين غابات تملؤها جلبة الحشرات وصوت الهواء الساخن الخانق كأنه الساعة .

مشيا كثيراً . ربما لم تشعر ليلاند بالطريق . وتوقفت العربة عند ممر جبلي ضيق من رمل وقصب خيزران عتيق ، لكي تمضي بعد ذلك في واد صغير وتصل إلى أرض منبسطة تلمع في منتصفها بحيرة صغيرة يغمرها ضوء القمر . وقالت ليلاند : ها هو ذا أخيراً شيء يذكرنا بوجود البرد ، القطب ، الرطوبة ، يذكرنا بليلة شتائية إلى جانب المدفأة ، بشارع تغطيه سجادة الثلج ويلهو فيه المتزلجون وتزقزق العصافير متقافزة عليه .

مضت عربة السولكي بمحاذاة الصفيحة البلورية ، الفضة القاتمة العميقة ، حتى وصلت كوخاً ليس فيه سوى السقف وأعمدة الدعائم الخشبية . وهناك توقفا . استخدم ليستر مصباحاً يدوياً صغيراً لكي يضيء الجلبة التي تحولت تحت حزمة ضوء المصباح إلى زاحف أسود اللون ملطخ ببقع حمراء .

تشبثت ليلاند بزوجها بكلتا يديها ووقفت وراءه لتشعر بأنها في حمايته .

- إنه حنش... قال ليستر ذلك وهو يرفع زوجته عن الأرض ، وكانت ليلاند ترتجف وكأنها أصيبت بحمى قاتلة ، وأجلسها في مقعد العربة .

- امسكي الأعنة - قال لها بعد أن أجلسها وداعبها بتربيت ودود لينجلي خوفها - ، أمسكي الأعنة ، وأنا سأقود الحصان ، سنذهب من هنا لنرى ما أردت أن أعرضه عليك .

ما بين القمر وانعكاس القمر المتعرق في الماء ، رأت ليلاند ظلاً راح يتضاعف عدة مرات متخذاً الشكل نفسه . لقد كانت ظلال خيول . ولدى الإحساس بضجة العربة انتفض أحد تلك الحيوانات وصهل . وبدا كما لو أن الهواء كله قد اهتز بذلك الصهيل الحاد والمديد .

- الفرس الشبقة صهلت حين شمت رائحة الحصان .

- ولكنهن كثيرات...

- كم عددهن برأيكِ ؟

- حوالى مئة...

- سبع وخمسون فرساً ، والسبع والخمسون معشرات - اقتربت العربة إلى ما بين الأفراس وتوقفت . دنا ميد من إحدى تلك الأفراس وضرب بيده المبسوطة على بطنها المشدود ، فرنّ مثل صندوق خزنة ، وأضاف ليستر ضاحكاً تحت ضوء القمر : - هم يخبئون صناديق خزنتهم في المصارف ليحموا ثرواتهم ، أما أنا ففي بطون هذه الأفراس الجميلة ، وسنشتريها بأبخس الأثمان . . يكفي أن أخبرك بأنهم لم يأخذوا في الاعتبار كونها حبلى كلها عندما طرحوا السعر .

ليلة الأحصنة ، هكذا كانت تدعوها ليلائد ، دون أن تميز ما بين حصان وفرس . ثم مرّا بعد ذلك في دروب طويلة معرشة شُقت وسط الآجام ، وأوضح ليستر :

ـ هذه الأراضي لآل فوبيه ، أولئك الذين كانوا يبيعون الثمار بسعر أرخص منا عندما بدأتُ البيع في الشاحنة ؛ وهم سيبيعون هذه الأراضي الآن وأنا أفكر في شرائها ، ولكنني أنتظر أن يشتد الحبل حول عنقهم أكثر . فمن ورثوا أملاكهم ، مثلما هو حالهم ، لا ينتظرون طويلاً ليتخلصوا من ممتلكاتهم في سبيل مواصلة اللهو التبذير . هذه الأراضي كانت مزروعة بأشجار البن فقطعوها كما لو كانت عشباً ضاراً ليزرعوا الموز .

ـ حمقى!

ـ ليسوا حمقى ، لا تظني ذلك ، لأن أسعار الموز بلغت حينذاك حداً لن تعود إليه . ولكن السيئ في الأمر هو أنهم ظنوا أن البقرات السمان لن تنتهي أبداً ، وعندما انهار سعر الموز ، لم يبق لديهم شيء ، لأنهم كانوا قد أنفقوا كل شيء في السفر والحرير بدل أن يوفروه ويستثمروه في زراعات أخرى . ويقال إنهم الآن لا يتناولون على الفطور والغداء والعشاء سوى حساء القواقع النهرية... ، هش أيها الحصان!... ـ وجه الحصان الكستنائي القاتم الذي يجر العربة ثم تابع قائلاً :ـ ولكنهم سرعان ما خرجوا أيضاً ليبيعوا الثمار بسعر أرخص منا في شاحنة أهدتها إليهم الشركة . عندما يحل الفقر بالغني ، يكون من السهل دفعه إلى التواطؤ في أي عمل جائر .

في كتلة السماء النباتية الخضراء التي بلون أوراق الجيرانيوم في الجهة المطلة على البحر ، كانت النجوم تتلألأ بنورها المخفف بوميض القمر وكأنها نقاط صغيرة مطموسة . وبدأ تلاطم الأمواج يُسمع بقوة . فقد كانت الأمواج

الكبيرة المدورة ، كعجلات عربات زَبَديّة ، تكاد تظهر وهي تخرج من السطح لتتحطم على الصخور .

وتوالت الأيام...

كانت عينا ليلاند تغمضان في يوم الأحد ذاك . وكانت تشعر بتعب ونعاس شديدين وهي ترى مياه النهر الفسيح تنساب بسكون ملاءة تغطي نفساء بعد مخاض عسير ، سطح من بودرة طينية يختفي تحتها شص زوجها مثل إشارة استفهام ، بينما هو يجلس والغليون في فمه ، متحولاً إلى تمثال ، ومنتظراً بصبر أن تلتقط الطعم إحدى الأسماك المفضلة : ذات الفم الأحمر ، أو السانبوكو ، أو الخويلين... أحجار متكومة ينتحب فيما بينها الماء ، كتل أعشاب تكاد تتحول أنهاراً ، باقات زهر ببريق ميناء أسنان في البلور ، بلشونات وردية ، وأخرى بيضاء بلون السكر ، بط ، حرذونات ذات نظرة زجاجية منومة ، طيور طويلة الساقين تصطاد الأسماك بسرعة خاطفة ، وطيور أخرى لها مناقير تشبه المغرفة ، والحر الثابت يتعرق حَرَّهُ الشديد على الأرض .

كلاب كارل روس ، وهي ثلاثة كلاب صيد كبيرة ، جاءت معلنة عن قدومه . التفتت ليلاند بوجهها لترى الصديق الذي كان يقترب خطوة خطوة ، دون أن يعرف كيف يمشي ما بين الأحجار والوعورة بعد أن نزل من سيارته ، وهي كوبيه آخر موديل ، على الطريق ، أو ما يمكن إطلاقه من تسمية على تلك الوهدة .

فكرة غريبة هذه التي خطرت للزوجين ميد ، وهما يزدادان غرابة أطوار أكثر فأكثر . فقضاء يوم الأحد في صيد السمك بدل تنظيم لعبة بوكر أو حفلة موسيقية . ثم إن الأزمنة ليست مناسبة لخروجهما منفردين إلى الوعر . فالعمال يكشرون عن أسنانهم بتلك الابتسامة الجليدية التي اعتادوا أن

يستقبلوا بها كل شيء ، بما في ذلك الضرب ؛ ولكنها الآن رغبة خفية في العض لانتزاع قطعة .

ـ يا للعنة المجيء إلى هنا! ليلاند المرأة العاقلة تترك زوجها يعرض نفسه ويعرضها لانتقام العمال... ـ اقترب من ليستر وصرخ في أذنه : ـ أتسمع ؟ ألا تشعر بالخوف ؟...

ورد عليه ميد كرجل آلي دون أن يتحرك :

ـ لا ، لأن سفني الحربية ترصد البحار!

فهتف كارل روس وهو يلطمه على ظهره :

ـ مجنون... ، «سفني الحربية ترصد البحار»!

ظنت الكلاب أن لطمة روس هي إشارة إلى طريدة ، فانقضت على ميد متلاعبة ولاهثة بحماسة وبأفواه مفتوحة ، ألسنتها متدلية وأعينها سعيدة بالحرية ، لأنها كانت تقضي معظم الوقت محبوسة في كوخها الصغير .

ـ إنني أشعر بالخطر بين كلاب هذه الشركة الأمريكيين الشماليين الخنازير أكثر مما أشعر به مع العمال!

قال ذلك ليزعج كارل روس واستلقى على الأرض ليلعب مع كلاب الصيد ، بينما أمسكت ليلاند بأدوات الصيد متخذة الوضع المتصلب والجدي الذي كان يتخذه زوجها . بل أقدمت على ما هو أكثر من ذلك ، فقد أفلت زوجها غليونه وهو يلاعب الكلاب ، فالتقطته هي ووضعته بصورة كاريكاتيرية في فمها .

ـ برافو!... برافو! ، إنك الصيادة المثالية! ـ صاح روس مصفقاً لليلاند . ثم قال : ـ ألا تخافين أنت يا مارتينا الصيادة أن يجرفك النهر ؟

فردت ليلاند محاكية صوت زوجها :

ـ لست أخاف . لأن دبلوماسيي يحرسونني!

ـ يا للحراس الرعاع! قال ليستر ميد وهو يخرج من بين الكلاب التي كان يداعبها ، متلبداً وبشعر مشعث .

وقال كارل روس :

ـ يبدو لي أن كل هذا سينتهي نهاية سيئة . إنني أفكر في طلب إجازتي لأذهب ولا أعود .

كان ميد قد نهض واقفاً بعد أن أُنهك دون أن يُتعب الكلاب ، نفض ملابسه وسوى شعره ، و...

ـ آه ، لا ـ صرخت به ليلاند ، دون أن تتوقف عن منازعته قصبة الصيد ـ ، لقد اصطدنا ما فيه الكفاية لهذا الصباح!

وشارك كارل روس في عدم تمكينه من إمساك قصبة الصيد ، ثم رجعوا ، واحداً وراء الآخر ، ترافقهم الكلاب .

زمجرت السيارة وعادم دخانها مفتوح على الغابة المدارية المتشابكة التي تغص بالطيور والأزهار ، والمصممة على عدم الخضوع لهيمنة الإنسان .

كان ميد يتساءل : لماذا غامر كارل روس بالمجيء للبحث عنا حتى ضفة النهر إذا كانت الأمور تسير سيراً سيئاً ؟ ولم يتأخر طويلاً في معرفة السبب .

فوسط زمجرة المحرك خرج صوت الصديق الذي يقود السيارة قائلاً :

ـ المدعو للتدخل في النزاع مع من ينتجون الموز بصورة خاصة هو

أنت ، لأنك من يقود جماعة كوخوبول ـ لوثيرو ـ آيوك غايتان... ـ ثم توقف عن الكلام ، دون أن يُفهم إذا ما كان يريد بذلك أن ينتبه إلى حركة مقود السيارة أم أن يجرح ليستر بعبارته الساخرة .

ـ ليكن معلوماً لديك إذن أن شركة كوخوبول ـ لوثيرو ـ ميد ـ آيوك غايتان ، لا تعرض للبيع هذه المرة قرطاً واحداً من الموز ، مع العلم كذلك بأنها اشترت أراضي آل فوييه . فنحن لدينا مخططات أخرى . يتوجب على «التروبيكالتانيرا» الآن أن تنجز تعهداتها ، يجب عليها أن تنجزها ، وأنا لا يمكنني أن أتدخل في هذا الأمر .

ـ فلتُبعث الجثة حية أو فليدفنوها! ـ قالت ليلاند ذلك بعاطفية أشد من زوجها .

ـ إنهم يرفضون ثماراً كثيرة ، وهذا غير ممكن ؛ من يرون أن الشركة لا ترفض منهم شيئاً حين تكون مضطرة ، مصممون الآن على أن ترفض منهم بصورة منهجية ، دون استئناف ، ودون أية وسيلة... اذهبي أيتها الملعونة ، هكذا يقول الموظف وكأنه الإله ، لأقراط الموز المحكوم عليها بالرفض! هذا غير ممكن! إنه يُبكي دماً!...

اجتمع مزارعو الأراضي المزروعة موزاً في القرية ، وتبنوا الصرخة التالية : شركة «التروبيكالتانيرا» ستحني رأسها!

شبكات الهاتف والتلغراف تتصل بالمكاتب القريبة والبعيدة . الكابلات البحرية تحمل الأخبار ، لكن ذبذباتها لا تترك أثراً على المعدن المحمي بأحزمة كتيمة من هجمات المياه البحرية القارضة ، ولكن ليس من قرض المعلومات المزيفة .

«التروبيكالتانيرا» ستحني رأسها ، إنها صرخة الحرب التجارية ،

المباحة في كل سوق . ولكن الرسائل الهاتفية والتلغرافية والسلكية تبدل مسار السفن الحربية وتوقظ غيرة الدبلوماسيين المسعورين .

أوقف كارل روس سيارته على مسافة حذرة . وبدا الجو الخانق كما لو أنه حساء من عدة طبقات من الحر . وكان الخطباء ينهون كلامهم الطويل وقد أفقدهم العطش صوتهم ، وبللهم العرق ، وكأنهم كانوا يلاكمون لا يتكلمون . «التروبيكالتانيرا» ستحني رأسها!

كان الخطباء يزعقون . في كل مرة تزداد الثمار المرفوضة . إنهم يرفضونها على هواهم : فالموز نحيل ، أو أنه مفتت ، إنه قديم ، إنه مرضض ، ولا يوضحون لماذا في السنة الماضية ، في مثل هذه الأيام تقريباً ، حدث الشيء نفسه . صدفة أن تكون الثمار اليوم مثلما كانت قبل سنة . وجماعات كبيرة من منتجي الموز تصرخ : «التروبيكالتانيرا» ستحني رأسها .

انحرف كارل ورس بالسيارة إلى محل لبيع البيرة الباردة . وشربوها من فم الزجاجة ، بين ذباب يطن وزبائن بقمصان مفتوحة ، بعضهم لا يلبس سوى السروال الداخلي والقميص الخارجي الذي يعقدون أطرافه السفلية من الأمام . قرع أحد هؤلاء كأسه ذي الرغوة بكأس زميله .

ـ حسن أيها العجوز ، فليكن ثمة سبب... ـ وبعد أن كرع نصف كأسه أضاف دون أن يمسح الرغوة عن فمه... ـ أسوأ ما في الأمر أنه لا يمكن القول إن «التروبيكالتانيرا» هي الأسوأ ، يجب عدم نسيان الأشياء الكثيرة الطيبة التي تقوم بها ، دون أن يكون هناك من يطالبها بذلك .

ـ أجل أيها العجوز ، ولكن تذكر أنها تفعل ذلك لأنه يناسبها أن تغطي عيون الناس . إنها لا تفعل ذلك كرماً . بل وفق حسابات . ألا ترى أنها لا

تكاد تقوم بأحد هذه الأعمال التافهة حتى تنشر الصفحات الكبيرة في الصحف ولا يتوقفون عن امتداحها .

ـ شيء أفضل من لا شيء . يجب ألا نكون متطلبين جداً .

ـ لا بأس . أنت تعني أنني إذا قدمت لك معروفاً فيمكنني أن أخل بما توصلت إليه من اتفاق معك . ولكن الجدار بدأ يتقوض من حول الغرينغيين وعندما لا يعود هناك ما يستندون إليه ، ستكون قليلة مناجل الماتشيتي التي لن تشارك عندما تتحول المناجل إلى ألسنة لهيب لا تنطق إلا بالصواب .

لم تعد ليلاند قادرة على الوقوف . وكان الحر شديداً . فمع أن البيوت مسقوفة بالقنب ، إلا أنها كانت تلتهب من الداخل والخارج في كل أنحاء القرية . قرروا العودة إلى البيت ، بينما الخطباء ما يزالون يصرخون بعيداً : «الترويبيكاالتانيرا» ستحني رأسها . ولكن يوم الأحد ذاك بدا لليستر غير موات منذ نذير النحس بعدم اقتراب أي سمكة من طعم شصه . ولم يقتصر الأمر على عدم اصطياد أي شيء ، وإنما ظهر لهما كذلك كارل روس الذي بدأا يريان فيه جاسوساً فضولياً .

وحين رأى ميد أن الأخوين لوثيرو والأخوة آيوك غايتان الثلاثة ينتظرونه في البيت ، سبق ليلاند وروس اللذين كانا يتكلمان عن ماركات السيارات ، وقال لشركائه بصوت خافت ، ولكنه كافٍ مع ذلك لأن يسمعوه :

ـ قولوا إنكم جئتم لتهنئتي بعيد ميلادي .

وشارك كارل روس كذلك بالبهجة الودودة التي أعرب بها الجميع عن تهانيهم لميد . وسكب بعضهم البيرة الباردة وآخرون الويسكي مع الصودا والثلج . وحين غادر كارل روس استبدل الأصدقاء وجههم الاحتفالي . فهناك

رسالة من تشيندينت تعرض عليهم شراء كل ثمارهم ، وتنبههم إلى الامتناع عن قطف المحصول ، لأن شركة السكة الحديد ترفض تقديم خدمات الشحن .

ـ هذا أمر سأتكفل أنا بترتيبه ـ قال ميد ذلك ما بين اختناق الحر والاستياء الذي مرمر فمه ـ لاستكمال يوم الأحد ـ كما لو أن تلك الرسالة المريرة قد سكبت بين أسنانه كأساً من إفرازات الغدة الصفراء .

منذ وقت مبكر كان ميد يجلس على مقعد المحطة بانتظار مجيء وكيل الشحن . الغليون في فمه ، والقبعة المتصلبة على رأسه ، ولكن الحر يرطب تصلب القبعات ، فتأخذ بالارتخاء وتغطس حتى الأذنين .

ـ لم آت لأرى إن كان ذلك ممكناً أم غير ممكن ؛ إنها خدمة استثنائية سأدفع ثمنها فوراً ودون أي حسم ، بل يمكنني أن أدفع السعر مضاعفاً ، لأنني أريد أن أشحن أخشاب طوف ؛ ولكنني أريد أن توقع لي على كفالة بألا يكون هناك نقص في العربات عندما أحتاجها .

ـ سيكون السعر... حسن ، سيرتفع السعر كثيراً...

ـ لست أسأل عن السعر ؛ أنت تطلب وأنا أدفع .

ـ ولكن علي أن أستشير...

فحرك ميد رأسه مشيراً إلى جهاز الهاتف الذي بجانب مسؤول القطارات وقال له بشيء من التوعد :

ـ استشر ، وأنا سأنتظر هنا .

ـ ولكنني أنبهك إلى أنه قد لا يكون هناك أحد في المقر الرئيسي ، فالوقت ما يزال مبكراً هناك .

ـ سأنتظر على أي حال .

خرج ميد إلى ردهة المحطة . مرت امرأة تبيع القهوة بالحليب . كانت تحمله في خابية ، فطلب منها ميد كوباً . كان السائل أقرب إلى الماء مما هو إلى الحليب . ولكنه بدا لذيذاً . واشترى آخرون من المرأة قهوة فقط مع قطع من خبز الذرة .

ـ الأمور إلى أسوأ ـ قالت المرأة لسيدة وقفت لتبادلها الحديث ـ ، الحقيقة أن الأمور كانت هكذا دوماً ؛ من الأفضل أن... لا ، لم يطلقوا سراحهم ، إنهم يسجنونهم في العاصمة... هذه هي الحال ، ولكن لم يعد بالإمكان الآن الحصول على ما يسد الرمق . يقولون إن مزيداً من الجنود سيأتون وإنهم سيأخذون مزيداً من السجناء . يا الله ، يبدو أن الرجال جميعهم قد تحولوا منذ بعض الوقت إلى محبين للعراك ، كما لو أن حشرة خبيثة قد لسعتهم .

أخبر مسؤول الشحن ميد بأنه قد تم ترتيب قضيته ، ودفع له ميد على الفور شيكاً . ولكن السيئ في الأمر هو أن مسؤول قطارات الشحن لم يستفهم عن الفترة التي يمكن لميد أن يواصل خلالها شحن أخشابه الطوفية ، وبينما هو يقوم بالاستشارات عبر الهاتف ترووك ، ترووك ، ترووك ، ترووك كان جهاز الهاتف يرن حين يدير مسؤول القطارات الذراع ، ترووك ، ترووك ، ترووك . فرجع ميد إلى المقعد الخشبي في ردهة المحطة .

جلس بجانبه مولّد هندي يرتدي قميصاً مخططاً بالأزرق . وأكثر من إحساسه بكتلة جسده ، أحس برائحة قوية تنفجر فوقه فارضة عليه حضورها بغدده العرقية .

ـ في هذه الأوضاع يا مستر ، من الأفضل إظهار القوة : ستجري هنا

مذبحة ، كل أراجيح النوم تتحرك ليلاً ، ريكي ، ريكي ، ريكي ، طوال الليل والناس يتكلمون ويتكلمون ؛ النقود لا تكفي ؛ الأبناء جائعون ؛ النساء جائعات ، جوع الناس ليس جيداً...

ـ ولكن سيأتي جنود ، ورشاشات ، وحراب... ـ قال ميد لكي يدفع إلى الكلام ذلك الرجل الذي أبدى له عينين ودودتين .

ـ أجل ، سيأتون...

ولم يقل أكثر من ذلك . وكانت «أجل» تكشف تماماً ضعف الرجال الذين يتوجب عليهم بسبب أفتقادهم للأسلحة ، أن يتقبلوا ما يفرضون عليهم من شروط عمل قليلة الإنصاف ، كي لا نقول إنها جائرة .

ـ يمكن للعقد أن يستمر لسنة... ـ صرخ رئيس المحطة لميد من خلال نافذة ، من مكتبه ـ ، طالما كانت هناك عربات جاهزة للشحن...

فاقترب ميد ليقول :

ـ هذا شرط لا أوافق عليه ، اللهم إلا أضفنا بنداً...

فقاطعه مسؤول القطارات بصوت ودي ومتواطئ :

ـ يا سيد ميد ، شركة السكة الحديد لا توافق على بنود تفرض عليها التزامات . إذا كانت قوانين البلاد لا تنطبق على السكة الحديد ، فأي قيمة ستكون للاتفاقيات . وقع الاتفاق مثلما هو واشحن ثمارك... وعندما يكتشفون الخدعة سيقولون إنه لم تعد ثمة عربات جاهزة للشحن ، وعندئذ تنظر ما ستفعل .

*

وتوالت الأيام .

ترك خوان سوستينتو آيوك غايتان الشاحنة عند نزل قريب من مسرح كولومبس... فالغرينغو ميد سيجدها هناك . حزم بنطاله ، لأنه اعتاد أن يتركه مفتوحاً عندما يقود الشاحنة ، وخرج ليقوم بجولة ، لكي يحرك ساقيه . وغير بعيد من هناك ، على بُعد حوالى كوادرا واحدة ، وجد كنيسة . ويبدو أنه كان هناك قداس وحفلة . دخل ، وحين رأى أناساً كثيرين راكعين ، جثا هو أيضاً بركبتيه على الأرض الجليدية . كان يتذكر رسم إشارة الصليب وصلاة « أبانا » ، ولكنه لم يكن قد صلى منذ وقت طويل ، فأثارت انتباهه صلاة « أبانا »...

لقد وجد لها معنى لم يكن يوليه أهمية من قبل ، عندما كان أبوه على قيد الحياة . فكم هو لذيذ الآن ، حين لم يعد لديه أحد ، أن يقول بين حين وآخر كلمات تبدأ بعبارة « أبانا » تلك .

ـ أبانا الذي في السماء...

وفكر : ليست حماقة . إنه هناك في الأعلى . لا بد أن الأب الذي في السماء هو أب جميع من مات آباؤهم . وبما أن هذا الذي في السماء يمكننا التوجه إليه بـ « أنت » دون تكليف ، فليس هناك حاجة إلى « حضرتكم » التي يجب التوجه بها إلى الآباء على الأرض . من الممتع أن يقول الرجل : « أبانا الذي في السماء »...

انطلقت موسيقى مبحوحة عظيمة أصمت مسمعيه . فلم يعد جسده كله في الكنيسة ، ولا وسط الناس الراكعين ، وإنما وسط موسيقى الضجة العظيمة ، الدوي الهائل الذي يخفت أحياناً ، ويعود قوياً بعد لحظة . تلك الموسيقى تشبه مطر الساحل . فهو يبدأ قوياً فجأة ، ثم ينقطع قليلاً ويبدو

مـثل نائـم وهو يهطل لوقت طويل ، ويزداد ويـزداد ، وكـأنه ليس وابلاً من المطر وإنما ضرب سياط . كان قد خرج إلى الردهة و«أصاخ السمع» . بم يعزفون هذه الموسيقى ؟ بجوقة مزامير .

كانت الجمعية قد اشترت في الأيام السـابقة أراضي آل فوييه ، وكذلك الشـاحنة الصفراء التي صار يقودها الآن خوان سوستينيس الخارج من ردهة الكنيسة إلى الشـارع ، حيث رأى من بعيد شـاحنة مستر ميد الحمراء تقف وراء شاحنته عند باب النزل .

يبدو أنه قد وصل . حث الخطى . كان ميد قد أحضر معه بقية الشركاء وناموا ليلتهم هناك جميعاً .

احتج باستيانثيتو كوخوبول ، لأنه ليست ثمة حاجة ماسة لأن يقضوا الليل في العاصمة ، مستلقين على سرير ضيق في نزل . ولكن ليستر ميد لم يكن يقبل المساومة بشأن هذه النفقات .

ـ لا فرق بين سـريـر ضيق وسـرير كـبيـر حين يـكون المـرء في حـرب . ومن ينسى منا أنه يقف على خط النار ضد البابا الأخضر ، فهو جندي سيئ . الهندي ينام على الأرض ، ولا ينفق مـا يجنيه في الفنادق ، وهو الوحيـد الذي يرجع غنياً من جحيم المـوز ذاك . ونحن أيضاً سنرجع أغنياء! سنرجع بعربات القطار التي استأجرناها محملة بثمارنا ، ونحن نغني!...

فقال الأشعر مكاريو آيوك غايتان :

ـ في ذلك اليوم لن يكون سيئاً أن نضع بعض أولئك الذين تعرفونهم على سكة الحديد ليمر القطار فوقهم .

ـ سـوكـوريتـو كـروث... ـ نادى موظف الجمارك الذي يتولى مـسؤولية بوابة أحد المستودعات .

ـ إنها أنا ـ قال صوت نسائي وراء ليستر ورجاله ، ومرت من بينهم امرأة ممتلئة ، قامتها ليست طويلة جداً .

ـ أنا سوكوريتو كروث ، وهذا هو نينيو دي غويا...

وأطل من ورائها إسباني ذو وجه بلا طعم تحت قبعة قرطبية .

سألهما موظف الجمارك :

ـ هل أنتما صاحبا طاحونة دقيق الموز ؟

ـ طاحونة ماذا... ؟ ـ سأل نينيو دي غويا .

وقالت سوكورو :

ـ اللعنة على من فكر باستيراد هذه التفاهة! ولعلمك ، نحن جئنا من أجل ملابسي وملابس هذا!

ـ أنا لم أكن أعلم حتى بوجود مثل هذه الآلة!

ـ ما هو موجود بالنسبة لي يقتصر على عذراء البيلار وحدها!

ـ وهذه يمكنها طحن النجوم... عندما تبدأ في طحن عيونها يسقط الضوء متحولاً إلى ذهب...

ـ هذا هناك في إسبانيا! أما هنا في أميركا فإنهم يطحنون ما لا يجب طحنه ؛ لأنه باستثناء القمح يا نينيو دي غويا ، ليس هناك ما يمكن طحنه . فالطواحين تكون وقورة حين يكون ما تطحنه هو القمح ، حين تكون هناك هناك فتاة الطاحونة كما في المسرحيات ؛ وما سوى ذلك هو كلام فارغ .

سأل موظف الجمارك الإسبانيين :

ـ كم صندوقاً لكما ؟

ـ إنها ستة وثلاثون صندوقاً فقط ـ أجاب النينيو دي غويا ـ وفيها كل ملابسنا وديكوراتنا... .

في بوابة أخرى أنجزوا معاملة أصحاب طاحونة دقيق الموز . وسحب ليستر ورجاله الصناديق الثقيلة والأقفاص الكبيرة التي تضم الآلات ، وكان حجرا الطاحون هما أثقل الأشياء . وحملّوا كل ذلك بواسطة البكرات والكرّاجات في الشاحنتين .

رفعت سوكوريتو كروث تنورتها لتشد رباطها . ورأى ليستر ميد لحمها الذي بلون وتر الجيتارة ففارقته راحة البال ، ولم يكن يخالط رغبته بها سوى بعض الغضب لما قالته عن الطاحونة . فطحنها هي نفسها انتقاماً ليس بالكثير . تذرع بأنه عليه أن يجري اتصالاً هاتفياً مع نيويورك فور سماعه بأن أمتعة الممثلين تنقل إلى فندق باريس ، ورؤيته الشاحنتين تنطلقان واحدة وراء الأخرى محملتين بطاحونة دقيق الموز .

كانت سوكوريتو كروث تقيم وحدها في غرفة تطل على الداخل وعلى الشارع ، والغرفة المجاورة يشغلها نينيو دي غويا . وغير بعيد عنهما استأجر ميد واحدة من الغرف الشاغرة .

أمضى اليوم الأول في مراقبة تحركات الراقصين . وقد انتبهت سوكوريتو كروث إلى نظرات ذلك الرجل الضخم والأشقر الذي حياها فيما بعد بإيماءة من رأسه . فقالت لنفسها : إنه لطيف حقاً ، فالرجال في إسبانيا لا يحيون الثور ولا المرأة ، إلا عندما يحسمون أمرهم : في لحظة هز الرداء ، وعند غرس السهام في عنق الثور ، وعند موته .

وقد كان إقتحام موتٍ ذاك الذي دخل به ميد إلى غرفتها . أحست هي بالخطوات . لأن نينيو دي غويا لا يكاد يُصدر ضجة عندما يمشي . فالتفتت سوكوريتو برأسها ببطء ، لتعطي انطباعاً بأنها واثقة من نفسها وبأنها سيدة لا تسمح لشخص مجهول بأن يفاجئها بتعسف . ولكنها لم ترفع صوتها كذلك لطرده خارجاً ، لأن ذلك سيؤدي إلى فضيحة وستحكم عليها الفضيحة بأنها امرأة خفيفة .

ـ هل أخطأتَ حضرتك بالغرفة ؟

ـ لا...

لقد سحقها ميد بتلك الـ « لا » المدوية ، وبخطواته المتوعدة باتجاهها .

ـ ما الذي تريده ؟ ـ قالت سوكوريتو مذعورة وهي تتراجع نحو حاجز بارابان من حرير عتيق .

ـ ما أرغب فيه هو ما أراه أمامي!

ـ ما هو أمامك يمكنك أن ترغب فيه ، ولستُ أقول لك إنه ليس شهياً ؛ ولكن له من يملكه ، له سيده .

كان ميد قد أمسكها من ذراعيها ، وأحست هي التي كانت تبدو مثل دمية بكشاكش ، بيدي ذلك الرجل الكبيرتين الحارتين ، فلم تقاوم . لقد جردتها المفاجأة من مقاومتها كامرأة غازلها الكثيرون ولم تستطع عمل شيء حيال سلوك ذلك الضخم الذي يتصرف كتلميذ مدرسة . وكانت دماء ميد تنبض بقوة وهو يغرس أصابعه كلها في ذراعي سوكوريتو . إنها الرغبة في المرأة ، ولكنها الرغبة في طحنها أيضاً .

ـ لا ... ـ قالت محاولة صده ؛ ولكن رفضها كان مثل مهماز بالنسبة للرجل الضخم ، روح الطاحونة ، ابن أسوأ كلبة .

ـ بل نعم... ـ رد عليها ميد ، وهو يغرس عشر «نعمات» على شكل أظفار مع أصابعه في اللحم الأسمر الذي صار ملكاً له بحق الرجولة ، ولأنه الأقوى ، السيد الذي يتحكم به .

وحاولت سوكوريتو أن تحبطه :

ـ بما أنك دخلت هنا معتقداً أنني هذا الذي تبحث عنه ، فسوف أوافق على عمل ذلك إذا كنت تملك ما يكفي من المال لدفع الثمن الذي أساويه .

ـ كل ما تشائين... ـ سارع ميد إلى الرد بفم يملؤه اللعاب ، وكان يرتعش ، وعيناه الخضراوان تحدقان بثبات بفحمتي سوكوريتو كروث السوداوين .

فقالت بقهقهة عصبية :

ـ ألف دولار...

خفض ميد عينيه الخضراوين ليراها ، ليس باعتبارها دولثينيا دل توبوسو[1] بعيدة المنال ، وإنما كشيء رخيص يخصه . أفلت ذراعيها وأخرج دفتر الشيكات ووقع الشيك . تناولت سوكوريتو الورقة بيدها التي تحس بها مخدرة ومتصلبة . وكان ميد قد كتب ألفي دولار .

ـ هناك خطأ ـ قالت وهي تحاول ابتلاع لعابها ، وعيناها السوداوان تنظران إلى عيني ميد : ـ لقد كتبت ألفي دولار .

---

(١) دولثينيا دل توبوسو ، حبيبة دون كيخوتي وملهمته في رواية ثيرفانتس الشهيرة .

شكرها ميد لأنها انتبهت إلى ذلك ، ومزق الشيك ثم كتب شيكاً آخر ووقعه وقدمه إليها . وكان قد سجل فيه خمسة آلاف دولار . وكان مستعداً لأن يدفع أكثر من ذلك مقابل أن يسحقها ، أن يحولها إلى دقيق ذهبي من نوع آخر ، أن يمررها مثل رحيق عصارة الموز عبر أسنانه الطاحونية ، عبر عضلاته ، عبر رغباته الرجولية ، عبر أصابعه ، عبر ركبتيه ، عبر خاصرتيه ، تحت بطنه ، تحت صدره ، تحت ثقله ، تحت كل ما كانه هو فوقها ، لا شيء ، لا أحد ، مجرد رجل دفع خمسة آلاف دولار .

ولم يفعل . بل غادر الغرفة بخطوات واسعة . فقد كانت رغبته في الانتقام أقوى من رغبته المجنونة في نيل تلك المرأة . إهانة بإهانة ، احتقارها في اللحظة التي استسلمت فيها له مقابل المال يعادل ما فعلته به في الجمارك ، عندما قالت بينما كان يبحث بعينين متلهفتين عن صناديق طاحونته : «اللعنة على من فكر باستيراد هذه التفاهة!»...

ـ آي!... خرجت دون حذاء ، إذ أنها كانت قد خلعته ، وركضت في اثره ـ ، تعال وخذ نقودك... ـ وبما أنها لم تستطع اللحاق به ، فقد صرخت : ـ سأمزق إذن هذه الورقة ، لأن أحداً لم يسخر مني من قبل... جاء نينيو دي غويا راكضاً وأراد أن يمنع سوكوريتو من تمزيق الشيك ، ولكنه لم يستطع ، إذ كانت قد مزقته إلى نتف صغيرة ـ إذا كان يظن أن هذا نقود ، فإنه بالنسبة إلي مجرد قصاصات متناثرة .

الفصل الثالث عشر

عينا دونيا روسيليا دي لوثيرو صارتا ماء لكثرة ما بكت ؛ فهي تبكي ليلاً ونهاراً منذ أن نهض زوجها بالرغم من آلام الروماتيزم ومن كل شيء ، فاستعاد حركاته بعنف ووقف منتصباً في وجه ابنه لينو لوثيرو ، ليطرده من البيت بعد مشادة لم يضربه خلالها الأب الغاضب بحد الماتشيتي وهو يوجه إليه الضربات بصفحته لأنها تدخلت وهجمت عدة مرات .

كانت دونيا روسيليا تستعين بالثالوث المقدس ، وبالقديس كارالامبيو ، والقديس خوداس تاديو وسط الغبار الذي كان يثيره الأب وابنه ، ولم تستطع أن تفلت العنان لبكائها الذي كانت تبتلعه كيلا تُغضب الزوج المنهار بمرارة على كرسيه وهو يتعرق من كل مساماته ، إلا بعد أن رأت لينو يختفي شاحباً ومرتعشاً ما بين التلال وحقول الموز .

عندئذ انصاعت دونيا روسيليا وجاءته ببعض الماء وجلست القرفصاء بجانبه . بدا بيت «سميرأميس» غريباً من دون الأبناء ، فقد اجتمعت المصائب معاً ، إذ أنهم اقتادوا خوانتشو سجيناً بسبب مشاركته في التمرد ، ولكن ذلك لا يسبب الألم للأب العجوز . فلو أنه سُجن لأنه سارق لكننا دفنا

أنفسنا . ولكنه مسجون لأنه يطالب بالحرية ، وهذا يعني أنه رجل حقيقي . هذا ما يحدث . صمت الجدان . وهما الأبوان ، صمتا . لكن الجيل الثالث هو الذي سيتكلم عن الجميع ، عن الأحياء وعن المدفونين .

ساراخوبالدا التي ذهبت دونيا روسيليا لرؤيتها بسرعة بقيت ساكنة مثل الأرض التي تقفان عليها عندما أخبرتها صديقتها على الفور بأنه... لم تتجرأ على قول ذلك... بأنه... وكانت تجعد المنديل المتضمخ بالعرق والدموع... بأنه... وتمر بالمنديل على جبهتها وعلى عينيها... بأنه...

كانت ساراخوبالدا تعرف ما تريد قوله ، وساعدتها :

ـ إنه... مولع بامرأة بحر...

ـ آه ، يا لما انتهى إليه ابني! على الرغم من طيبة امرأته ، ومن معاناة هذه السوداء ، وبما أنه ليس هناك رجل لا يجن ، فقد كنت أطلب من الله دوماً ألا يهجر فجأة أم أبنائه ، ويا للأولاد المساكين . كل هذا وليس هناك من رأى خطيئة من زوجته .

ـ لا أحد يا صديقتي...

ـ وهو يراها هكذا مثلما هي . تذكري أنه كان مسرنماً في صغره . وأنتِ ـ بعد الله ـ من خلصه من ذلك النهوض وهو نائم ، النهوض مفتوح العينين ، ولكنه نائم... وكان ذلك يخيفنا كثيراً... وربما كان سيئاً ما فعلناه ، إذ كنا نضع ماءً تحت السرير ، فيستيقظ حين تغطس قدماه في الماء البارد . أنا أرى أن ابني قد شفي من السرنمة ، ولكنه ما يزال نائماً يا ساراخوبالدا .

ـ وماذا عن خوانتشو ، ما هي أخباره ؟

ـ لقد ذهب مستر ميد إلى العاصمة ليرى إذا ما كان بإمكانه إطلاق سراحه ، لأنهم أخذوا باستيانثيتو أيضاً . كل شيء يسوء يا ساراخوبالدا ، وتنزل كل هذه النكبات بإحدانا وهي عجوز . ولكن ما يؤلمني أنا هو مسألة لينو . فأولئك السجناء لهم مخرج . . أما لينو . لو أنك تستطيعين بحث المسألة مع التشاما .

ـ لم يعد يظهر أثر لريتو بيراخ في أي مكان ؛ ولكن مسألة لينو في نظري ، ولينو هو ابني بالعماد...

ـ أجل ، إنه ابنك بالعماد ، فقد أحسنتِ إلينا...

ـ مسألة لينو في نظري هي نوع من الهرطقة...

ـ الهرطقة ؟

وصمتت ساراخوبالدا دون أن تجد توضيحاً .

ـ حسن ، فلنجلس يا صديقتي ؛ ليس مهماً ما يعنيه ذلك...

ـ أجل يا صديقتي ، فلنجلس ؛ فأنا أكاد أقضي الزيارة واقفة من شدة قلقي .

ـ وأنا تقلقني أشياء كثيرة ؛ وهذا الذي قلتِه ، فقد كانوا فيما مضى يحرقون الهراطقة .

ـ ربما سيكون من الممكن أن يشفى مما هو فيه لو جرى تدليكه بزيت مبارك . عسى أن يشفى من حاله هذه!

ـ آه يا صديقتي ، لقد صار المسكين عظماً .

ـ سأرى إن كنت سأجد ريتو بيراخ . لقد تفحصتُ سبعَ حبات الرز

المقشورة ، ووضعتها على الأحجار السبعة ثم نمت والحبات السبع في أنفي ، حتى طلع الصباح عليها وقد لانت ، فعطستها قبل أن يصيح الديك فوق نار أشعلتها بصنوبر من غابة الصنوبر الزرقاء .

ـ غابة صنوبر زرقاء يا صديقتي ؟

ـ أجل ، إنها الغابة التي تنمو فوق أعلى القمم وتبدو أشبه بحية تزحف . لقد كانت لديّ بعض الجمار منها .

ـ ولكن ريتو بتراخ .

ـ أجل ، يمكن لريتو بتراخ أن يقدم نصيحة طيبة . إنه حكيم لأنه يربط أربعة أطراف الجسد بأربعة أطراف السماء ؛ ويمكن لقوة عينيه أن تأخذ اللقمة مما هو غير مرئي ؛ وله فمُ أسنانٍ نظيفة من الكلام ، مثل الثياب البيضاء المنشورة ؛ وأصابع طويلة مثل أغصان الكانيافيسول ، وأظفار بلون القرن المحروق .

بقي لينو لوثيرو يسمع كل ضجة الجبل ، مساقط الوهاد العميقة حيث يجتر الماء لدى مروره رمالاً مثقلة بالظلال ، وهي ظلال ليست غير محسوسة ، وإنما قاسية وقاطعة في كل حبيبة دقيقة من حبيباتها السوداء . وأخيراً ، بعد كثير من السماع والرؤية ، دون النظر إلى شيء في الظلمة ، بقي وفراغُ يده ملتصقاً بالفم المالح والحلو في الملمس ، مثل جرح صغير مفتوح في اللحم الأخضر لجذع شجيرة موز .

التهديدات لم تنفع ، وسيخنقها مع كل شيء ومع شهقاتها التي مثل شهقات حيوان من لحم الموز ، من طحلب وظل متضمخ بالعرق والماء .

وغرست هي فيه أسنانها بكل قواها ، إلى الحد الذي استطاعت أن

تضغط فيه فكيها الكلبيين على اللحم ؛ ولكن بعد ضغط أنياب كلبة الماء الحادة ، والإحساس بسائل دم لينو لوثيرو الساخن في لثتيها اللحميتين الزرقاوين ، راحت تفلت العضة شيئاً فشيئاً واستلقت على الأرض ، هناك حيث تلتقي مزارع الموز بالبحر .

لم يُضع لينو الوقت . كان أنفه يوشك أن يتركه دون أنفاس ، ولم يعد الفم يكفيه ، وكان مبللاً بالعرق ، وكل شيء يطفر من جسده في كل الاتجاهات . لم يضع الوقت وانحنى فوقها غارساً ركبتيه في الأرض بغم من ينوي قتلها . وبدأت يداه تصعدان تحت ما يشبه ملابس من طحالب ، فوق ساق وحيدة فقط ، لم يكن لها ساقان . وانتفخ كله فجأة ، بغم من يريد أن يمزق جلده ليخرج منه ، من لا يتمكن من الوصول إلى حيث سيترك ما يحمله ، ما يجهده التخلي عنه ، ما لا يتخلى عنه ، ولكنه يتخلى عنه أخيراً ليتمدد ويتكبل بالقيود .

وقفزت هي ، واختفت .

ـ لينو! أنت أيها اللعين!... ـ أيقظه مكاريو آيوك غايتان بطرف قدمه في حوالى الرابعة فجراً... ـ ، انظر أين نمت... وامرأتك خرجت من البيت تبحث عنك... لقد كنتَ مخموراً... وكنت تعانق جذع شجيرة موز... ولكنك تظنها امرأة... لأن شيئاً مثل هذا حدث لي...

وفي ضبابية الفجر الحارة ، انكمش لينو لوثيرو على نفسه مثل دودة بجانب مكاريو آيوك غايتان ، الأشعر ؛ فهذا وحده هو من يستطيع أن يفهمه . وقد أوضح له :

ـ لقد حدث لي مثل هذا ؛ ولكنني كنت بكامل حواسي الخمس وبكل اتزاني ؛ أحسستُ بِحرٍ ثقيل في روحي فخرجت لأتمشى ؛ وجئت إلى هذه

الأنحاء ؛ كان هناك هلال وحر ؛ حر في الأرض ، وحر في الهواء ، وحر في كل ما ينضح حراً ؛ لم تمض لحظة واحدة أو ربما مضى زمن طويل ، وكنت أمضي متسكعاً عندما رأيت ذراعين خضراوين ، ممتلئتين ، طازجتين ، تخرجان من إحدى أشجار الموز ، مثل أيدي أولئك النساء اللواتي يمتن عذراوات ويراهن أحدنا في أحلامه فيما بعد... ولخشيتي من أن تكون شيطاناً ، أسرعت بالانقضاض عليها بالمتشيتي ووجهت إليها عدة ضربات .

ـ يا لك من جلف! ـ قال لينو ذلك وارتعش بكامله وكأن جسده هو الذي يتلقى الضربات القاطعة .

ـ أجل يا لينو ؛ كم كنتُ فظاً ؛ تَقَطَّع الجذع وهجم علي ؛ ولكنه لم يكن نبتة ، وإنما امرأة بساق وحيدة ، وسمعت بأذني الأوراق تكلمني ، وأحسست بلطخة رحيق فرع أخضر وقمر تبلل وجهي... أنا وحدي أعرف يا أخي تلك اللذة البديعة... لقد تقلبت من الأنثى... والمؤسف ، المؤسف أنني أخرج الآن لأبحث عنها ولا أعثر عليها...

صمتنا . البحر الساخن ، المالح ، الماجن ، والحر الذي تشتد وطأته قبل أن تطلع الشمس .

ـ ورؤية أن أحدنا... لأنني قدرت أن ما حدث لي مماثل تماماً لما حدث لك ، ولهذا رويت لك قصتي . وها هو بجانبك جذع الموز الذي كنتَ قد عانقته .

ـ لا أعرف يا مكاريو ، ولن أعرف أبداً... ما الذي جاء بي إلى هنا ؟ في أي ساعة خرجتُ من بيتي ؟... ولكن ما يمكنني تأكيده هو أن المرأة التي رأيتها في الليل ليست من شجر الموز ، وإنما من البحر ؛ لقد رأيتها تختفي ، بقفزة واحدة ، في زبد الشاطئ ، هناك ، انظر ، حيث ذلك الضياء المعتم... وخفتُ من اللحاق بها...

ـ حمداً لله يا رجل! لولا ذلك لوجدوك غريقاً ، أو أنك كنت ستتحول إلى سمكة قرش أو حرذون بحر أو سمكة . هل فكرت أنت يا لينو بما يقوله ريتو بيراخ ؟...

كان لينو يرتعش محموماً .

وواصل مكاريو الأشعر موضحاً :

ـ إذا كان يوجد هنا على اليابسة كل ما نراه ، فهناك في البحر ، على بعد مئة متر عنا فقط ، مسوخ لهم رؤوس بشر وعيون بواشق ، وهم ملتصقون بالصخور مثل أشجار متحجرة ، ولكن يتحرك ما بين أغصانهم لعاب حلم مثل أجسادهم... وهناك سرطانات نهمة جداً ، إذا ما سقطت دابة حية في البحر ، تلتهمها على الفور ، ولا تترك منها عظماً ولا وبراً ولا نتفة جلد ، تلتهمها بالكامل ، وتتولى آلاف الأسماك الصغيرة التي بلون الذهب تنظيف بقع الدم خلال دقائق... وهناك نجوم بحرٍ تمشي وتتكلم...

ـ لا تضايقني ، فمع رعشة الخوف الذي أنا فيه ، تأتي أنت لتحدثني بهذه الأمور!

ـ ما يناسبك الآن ، لكي تتخلص من الرهبة ، لأنك تشعر دون شك كما لو أن عجلاً قد لحس جسدك ، هو أن تضع قطعة نقد فضية على جبهتك في الظهيرة ، عندما تكون الشمس في أوجها : فبرودة المعدن تصل إلى القلب وتزيل التعب الذي تخلّفه الأنثى .

*

ـ لا يمكن للينو لوثيرو أن يأخذني إلى بيته ، لأنهم لا يأكلون في بيته ما آكله أنا!

ـ وما الذي تأكلينه أنتِ ، أخبريني ؟

ـ أوبار أسماك قاع البحر...

انقض عليها لينو متلهفاً لتقبيلها ، ولكنها أبعدت فمها ولم تُره سوى أسنانها البيضاء ، المتلألئة في الليلة الحارة المفعمة بالنجوم . عيناها عينا عنزة بحرية ، وجبهتها غائرة قليلاً ، وشعرها أسود ، أملس ، ينضح ماء مالحاً وعرق امرأة حارقة .

ـ لا يمكن للينو لوثيرو أن يأخذني إلى بيته ، لأنهم في بيته لا ينامون مثلما أنام أنا .

ـ وكيف تنامين أنت ؟

ـ في ملاءات ماء عميقة وعلى فراش من الزبد .

التقط فمها بفمه . وسُمع ما يشبه التأوه عندما مالت برقبتها تحت وطأة شفتيه لتسند رأسها إلى أرض حقل الموز الرطبة ، الإسفنجية ، والتي هي رمل مع جمرات شمس في بردها الحُبيبي والمعدني بعض الشيء .

ـ لينو لوثيرو لا يمكنه أن يأخذني إلى بيته ، لأنهم في بيته لا يشربون ما أشرب... ماء من قاع البحر .

ومثل جسد امرأة مطلية بالصابون تملصت من عناق لينو ومضت راكضة ، جاعلة ذيلها على شكل دوامة مائية ، خفيفة مثل النسيم ، بينما هو يلحق بها دون أن يبلغها . وأخيراً أمسك بها . هي تركته يمسك بها . أمسك بها ، فركها بصدره ، ضمها إلى لحمه ، قبّلها بقوة . وكانت تضحك مختنقة ، ساذجة ، وعيناها تلمعان من الحر .

لم يكن مكاريو الأشعر يغفل عن لينو ، وتوغل بحثاً عنه بينما كان

بعض الأصحاب الذين ذهبوا إلى الصيد يساعدون معارفهم في إلقاء الشباك ، ليس في البحر ، وإنما في مصب النهر الفسيح ، في الأماكن التي يتسارع فيها الماء في تفرعات ضيقة بين وحول متحركة ، ورمال ، وما يشبه الأشجار ؛ صخور وعالم في تحلل .

انضم لينو لوثيرو يقوده مكاريو آيوك غايتان إلى جماعة الصيادين ، إلى الأصوات التي كانت تصرخ من الضفاف :

ـ أنا أريد سمكة بيتشو!...

ـ وأنا سمكة غوابيتي!...

ـ أما أنا فأكتفي بذات فم أحمر!...

قدم الأشعرُ الجيتارة إلى لينو هامساً في أذنه :

ـ الجيتارة لها شكل تلك الأنثى ، والفرق الوحيد هو أن ذيلها يتجه نحو الأعلى .

وقبل أن يعزف لينو لوثيرو ، قلَّب الجيتارة ، داعبها ، مرّ بروؤس أصابعه على الأوتار التي جعلته يرتعش .

حمامة الطين الكئيبة
يا من انكسرت في الظل!...
أين ذهبت يا حمامة
فلم أعد أراكِ ؟...
وابل من الدموع
انهمر من أشجار الصفصاف ؛
لقد بكيتكِ كثيراً . . كثيراً ،

حتى تحولتُ إلى صفصافة...

الصيادون الذين خارج الماء كانوا ينتظرون على ضوء المواقد المشتعلة لإبعاد الضواري التي تُسمع خطواتها على الأوراق المتساقطة حين يخفت دوي البحر قليلاً ، وكان أرباب الصيد يلعبون الورق ويشربون الروم من فم الزجاجة .

انتحى لينو لوثيرو جانباً من جديد بعد أن غنى ، مثل مسرنم في وسن حر منتصف الليل ، عيناه خامدتان في حلم عميق ، وجسده الذي بلون الطين مغطى بحبات عرق كبيرة .

أمسكتها يده من شعرها وجذبتها مجدداً إلى حيث كان مستلقياً على الشاطئ يرى انفجار الأمواج الهائجة الهادرة . كانت جذع شجرة موز ولحم امرأة ، فانقلب فوقها ليقبلها طويلاً وقد فقد النطق ، فقد السمع ، فقد البصر ، ولم يعد سوى شبقاً وروحاً .

لم يكن يُسمع أي شيء . البحر كان يُسمع ، ولكن باستثناء البحر ، لم يكن يُسمع إلا لهاثه وقد تحول إلى بهيمة وتحولت هي إلى كائن بشري . . من ماء حي ، متلألئة بالنجوم ، وعميقة مثل الصمت الذي يرافق مصب النهر .

ـ لماذا تزعجني أنت! ـ قال لينو لوثيرو محتجاً .

ـ لا يا رجل ، لن أتركك ، لأنك قد تغرق! ـ يقول له الأشعر آيوك غايتان وهو يعيده ثانية إلى حيث تسطع مواقد المخيم ـ ربما يناسبك أن تشرب جرعة من الخمر ، فقد يخرجك ذلك من هذه الحال...

ـ هيا...

وأمسك لينو الزجاجة وبقي يشرب إلى أن انتزعها منه مكاريو ؛ نصف زجاجة روم تقريباً مرت من حلقه ، دون أن يأخذ نفساً .

حان موعد سحب الشباك ، وثار جدل عندئذ . فقد كان هناك من يرغبون في إلقاء أوراق البارباسكو لكي يقتل سم هذه النبتة أسماكاً أكثر ، ويرجعون بصيد أوفر .

وبدا كما لو أن مساً من الجنون أصاب لينو لوثيرو . لم ير أحد من قبل رجلاً يصيبه ما حل به عندما سمع بأنهم سيُلقون البارباسكو إلى الماء . كان أكثر من مصاب بالجنون ، فصرخ به أحدهم :

ـ ما هذا ، وكأن أحد أفراد أسرتك في الماء!

قفز لوثيرو وهو يشهر الماتشيتي الذي كان معلقاً على خصره ، فجرده أحدهم من سلاحه بضربة على يده ؛ وأسرع بعضهم إلى التقاط الماتشيتي عن الأرض .

وصرخ أحدهم :

ـ لا ، هذا غير ممكن . . هذا المجنون يشرب أربع جرعات ويريد تقطيع أحدنا!... إذا كانوا لا يعرفون كيف يشربون ، فلماذا يشربون!... الشرب من شؤون الرجال... ، وأنت يا لينو يجب ألا تشرب أبداً!...

ولكن لينو كان مثل مجنون تجاوز نوبة جنونه القصوى وتحول إلى خرقة . فعند انتزاع الماتشيتي منه ، بدأ يتذلل . . جثا على ركبتيه وتوسل إليهم بحق أحب ما لديهم بألا يلقوا بارباسكو في الماء .

وحين رأى مكاريو كل تلك السخرية ، أوضح الأمور :

ـ أنا أعرف ما يقوله هذا الصديق يا شباب ، ولماذا يقوله ، إنه واقع في عشق امرأة ـ سمكة...

أطبق على الجميع صمت مكفهر ترافقه أسئلة وأجوبة يتداولونها هم أنفسهم في رؤوسهم . واقترب منه ذاك الذي أراد لينو أن يقطع رأسه وعانقه :

ـ سامحني يا لينو ، ولكنني لم أكن أعرف أنك عاشق متيم وتؤمن بهذه الأشياء!

ـ حسن ، لن نلقي البارباسكو في الماء . من يريد أن يلعب الورق ؟

لم يكن لينو راغباً في اللعب ، ولكنه لعب وبدأ يكسب ، ويكسب ، ويكسب . لم تكن هناك ورقة يحتاجها إلا وتأتيه في الحال . كان يطلبها فتأتيه .

التصق به أحد رفاقه وقال له :

ـ من الأفضل أن ألتصق بك ، فربما تجلب المرأة السمكة الحظ ويصيبني شيء منه .

ـ أنت قلت ، وأنا أيضاً أريد أن يصيبني شيء!

واقترح آخر :

ـ أعطه الجيتارة ، فمن الأفضل أن يغني ، حتى لا ينتف ريشنا . أنت محظوظ يا لينو ، وحظك في لعب الورق منحتك إياه السمكة!

بدت الأسماك التي كانت تخرج في الشباك وكأنها مخمورة وهي تختنق في الجفاف . كانت عيونها مدورة ، زجاجية . وكان ضوء الفجر الأزرق الذهبي يزداد سخونة وسط خضرة البحر غير المتناهية وظلال أشجار الموز الخضراء .

وكان لينو يغني بصوت ثمل :

يا سمكة البحار ،
تعالي وانظري حالي
وما سببته لي من غمّ ؛
فأنا في داخلي أسوأ حالاً!
أقول وداعاً لغواتيمالا ،
لأنني سأتزوج
في ميناء آمابالا
من حورية بحر!

فور رجوع ليستر ميد من العاصمة ومعه السجينان باستيانثيتو وخوانتشو ، زاره مكاريو زيارة غريبة وغامضة ليحدثه بحذر عن غراميات لينو مع امرأة البحر . وجاءت دونيا روسيليا فيما بعد إلى بيت الزوجين ميد ، لا لتقديم الشكر على إخراج خوانتشو من السجن ، وإنما لتطلعهما على ما جرى للينو ، كي يتدخلا ، حباً بالرب يا سيدي...

كان ليستر يحرك حدقتيه اللتين من لحم أخضر فوق قرنيتيه شديدتي البياض دون أن يبدي رأياً ، ودون أن يفعل شيئاً ، وهو أمر غريب جداً . لم يبد رأياً ولم يفعل شيئاً . بل إنه لم يحاول تنبيهه أو نصحه ؛ أو عمل شيء يثني لينو عن مغامرته تلك . لا شيء . فقضية لينو وضعته في عالم ميت .

وقال بعضهم :

ـ كيف تريدونه أن يتكلم يا شباب... ، لقد بقي صامتاً لأنه هو نفسه ابن امرأة من البحر ، وقد خرج إلى هذا الساحل مقهقهاً!

ـ هذا صحيح ، فعيناه الخضراوان هما عينا حورية بحر ، ولحمه الأبيض لحم سمك!

ـ إنه ابن سمك مصفى ، ولهذا لا يتكلم!

قالت له ليلاند إنها كانت قد تحدثت مع زوجة لينو . وإنها تبكي بغزارة ، ولكنها قانعة راضية .

فرد عليها ليستر :

ـ لحسن الحظ أنها راضية .

ـ ولكنها لا تؤمن كثيراً بالطبع بتلك الضرة السمكة...

وهتف ميد وكأنه يطلق شيئاً لم يعد يستطيع الصمت عليه :

ـ إنها ترى أنه كمن خانها مع راقصة إسبانية .

ـ أنت مدعو على أي حال للتحدث إليه كرجل ، لا يمكنه أن يستمر على هذه الحال... كلّمه ، قلْ له أن يبدل طريقة حياته... فهذا كله حماقة...

لم يرد ميد عليها . فقد كانت تمنعه من الكلام حوريته التي تدعى سوكوريتو كروث ، والتي لحمها من أوتار جيتارة ، ولأصابعها رائحة خشب الصندل .ثم اقترح على زوجته بعد صمت طويل :

ـ تكلمي أنت في الأمر . تدخلي لمصلحة لينو ، قولي لهم أن يتركوه وشأنه ، أن يتركوه بحاله ، ولا بد أن تنقضي هذه الحالة السيئة . يبدو أن العجوز لوثيرو قد طرده من البيت وكاد أن يضربه بحد الماتشيتي... أحمق!... فجميع الآباء تقريباً يبدون همجيين حقيقيين حين يؤنبون أبناءهم ؛ ولكن هذا لا يفهمه أحد إلا نحن الذين لم ننجب أبناء .

بعد أيام من ذلك ، فُتح الموضوع على المائدة من جديد بسؤال وجهته ليلاند حول صحة وجود حوريات البحر .

ـ إنه أمر لا يثير استغرابي ـ قالت السيدة أوبريند المختنقة بالحر الذي يضاف إلى الطعام مثل بهار لاذع جداً ليزيد من تعرقها .

ـ كل امرأة غير الزوجة هي حورية جميلة! ـ أعلن السيد أوبريند وهو يجاهد للتخلص دفعة واحدة من العرق الذي يبلل وجهه بغزارة ، باللطم بمنديل كاسفنجة على خديه ، على أنفه ، على ذقنه ، على جبهته ، ووراء أذنيه حتى قذاله .

وقال ليستر :

ـ هذه... ، هذه!...

فأضافت السيدة أوبريند :

ـ هذه السماجة!

وقالت ليلاند :

ـ فلنرجع إلى الموضوع ، هل تؤمنون أم لا تؤمنون بوجود حوريات البحر ؟...

ـ في شبابي ، أثناء دراستي الجامعية ، وجدت نفسي مجبراً على معرفة شيء عن حوريات البحر . وما زلت أحتفظ بذلك في ذاكرتي .

فهتفت ليلاند :

ـ أخبرنا به!

فسارعت السيدة أوبريند إلى القول :

ـ لا ، بالله عليك ، فأنا قد حفظته عن ظهر قلب ؛ إنه يردده على مسامعي كلما كنا معاً ننتظر القطار ، أو الحافلة ، أو عندما يحلق ذقنه ، أو عندما يتعب من القراءة .

ـ ولكننا لا نعرف ذلك ونريد سماعه : إنك أنانية يا سيدتي...

وبدأ السيد أوبريند قصته قائلاً :

ـ لقد سمعتُ أحاديث عن حوريات البحر...

ـ ها قد بدأ الدرس! سأتمشى قليلاً بينما السيد زوجي... ـ هتفت السيدة أوبريند وهي تنهض عن المائدة حاملة فنجان قهوة ، واختفت باتجاه الظل الساخن ، الساخن والقاتم ، وكأنه من قهوة أيضاً .

ـ لقد سمعتُ أحاديث عن حوريات البحر ، ولكني لم أكن أؤمن بوجودها . كان الحر شديداً في تلك الليلة المدارية في عرض بحر الأنتيل . ولم يعكر بداية نومي أي شيء . كانت السفينة تطفو وسط ريح مواتية وفوق بحر هادئ ، لقد كانت تتهادى مثل مهد طفل ، تتبعها النجوم من بعيد ، وكانت النجوم كثيرة حتى أن السماء بدت نسمة ذهبية مرصعة بالنجوم . وفوق ما كان ظلمة عميقة ، ومثل سمكة من ألماس يتكسر ، ظهر واختفى وميض نور خلّف تلألؤاً في الجو . قفزت من نومي ، أكانت حورية بحر ؟... قفزت وأنا نائم ، لأنني لم أنتبه إلا بعد وقت طويل إلى أنني كنت معرضاً لخطر الوقوع في البحر . ولم أر مزيداً . هل كانت حورية بحر ؟ لدي مبرراتي للاعتقاد بأنها كذلك . فمنذ تلك الليلة أشعر بأن جسدي مغطى ببريق لبني ، بارد وساخن ، إحساس بمرهم منعنع يطلي جسدي كله ، ويُخيل إلي أنني أشد لطفاً ، وأشعر بأني . . كيف أقول ذلك . . بأني قادر على الإبحار في الماء... لا يسخرن مني من لم يعرفوا ما حدث لي . ولست أريدهم أن يشفقوا علي أيضاً . فليسمعوا وليفركوا أعضائي بأيديهم العادية عسى أن تنتهي بذلك الفتنة التي فيّ ويتوزع فيهم شيء من نور تلك الحورية . ولكنني أتساءل وأسألكم ، أتعتقدون بأنني رأيتها حقاً ؟ يمكنني

أن أقول نعم لقد رأيتها ، على الرغم من أني لا أتذكر وجهها ، ولا جسدها ، ولا لون عينيها . إننا نستيقظ من أحلام كثيرة مروعين من تعرفنا الذي لا نستطيع تفسيره على شخص تبدو لنا هيئته ، وهي هيئة شبحية ، مجهولة تماماً . وفيما بعد ، تضافر شذى تلك الليلة ، والهواء الدافئ ، والبحر المتراقص فالساً هادئاً ، وظل أراجيح النوم المجدولة من رموش ،... كل شيء تضافر وساهم في تكوّن شبقية ، ولا شيء سوى شبقية ذكرى ذلك النور تحت البحري الذي استنفده المدى على جسدي في برهة واحدة ، عند حافة الهاوية .

استعدت ليلاند للتصفيق ، ولكن ليستر ميد تدخل قائلاً لها :

ـ لا تقاطعيه ، لم ينته بعد . أكملْ حضرتك ، فالقصة مشوقة ، وذاكرتك جيدة .

ـ النمل يأكل حوريات البحر التائهة في المدار ، في الدروب الساحلية الخضراء المغطاة بالآجام وأشجار الموز ، هكذا يقول الرحالة ، وأحياناً تسحبُ أمواج البحر حورية من هذه الحوريات ، وعليها ملايين النمل التي صارت مضيئة بعد أن قضمت جثة الحورية ، فتخلّف على الشاطئ أثراً مضيئاً في المياه العكرة .

*

متعباً من التجول بين النائمين ، واحداً بعد آخر ، واحداً بعد آخر ، حيث سكة الحديد تلتف في انحناءات كبيرة مثل ذيل حورية بحر ، يجلس لينو لوثيرو حين يستطيع تبادل الحديث مع واحد من عمال إصلاح خطوط السكة الحديد ، أو أنه يجلس ليغفو وحسب . يجلس هناك معطل الساقين ، وكأنه مكسور عند الخصر ، قبعته متهدلة إلى الوراء ، ويُسمع متكلماً بينما

هو يحك الأرض وكأنها جزء منه ويأكلها . إنه يرغب في العمل في إصلاح خطوط السكة ، ولكن في الليل فقط . فالعمل تحت الشمس منهك . وكان عمال إصلاح خطوط السكة ، وبعضهم زنوج يحملقون بعيونهم ويكشفون أسنانهم البيضاء ليضحكوا من خواطر هذا السائر في نومه . فالشمس ليست سيئة في أثناء العمل . إنها تلسع ، ولكن الشغل لذيذ تحت ضوء الشمس . كان غبار قطار الحصى يسبب للينو العطاس . ولم يكن يخرج من أنفه مخاط ، وإنما هباب فحم . فلكثرة ما استنشق الدخان الأسود ، براز القطار الذي يطلقه في الهواء ، صار مثل عمال سكة الحديد دون أن يكون واحداً منهم . هؤلاء الرجال الذين يحملون في داخلهم غبار ودخان القاطرات ، وزيتاً وسحب غبار تمنحهم صوتاً حرشفياً مستنفداً كأصوات الرجال المسنين .

كانوا كومة لحوم لامعة بالعرق والشمس ، عضلات تتلاعب لدى أدنى حركة ، وكأن تحت جلودهم دمية تشريح متحركة . بعضهم يدخن السيجار أو السيجارة ، وآخرون يكرعون زجاجات الخمر في جرعات كبيرة . وكان لينو لوثيرو بينهم ، بين كومة عمال إصلاح السكك ، المطارق الكبيرة كانت دمى في أيديهم ، والعوارض عيدان ، وخطوط السكة هلام جوافة .

جميعهم أحاطوا بالمسرنم وطلبوا منه أن يغني «مَنْ ، مَنْ» . وبعد أن داعب لينو الجيتارة ، أومأ لهم برأسه ، فبدؤوا جميعهم معاً : من–من ، من ـ من ، من ـ من ، من ـ من ، من ـ من...

وأشار لهم لينو بأن يخفضوا صوتهم ، دون أن يتوقفوا عن ترديد : من ـ من ، من ـ من ، من ـ من...

من يغني ، من يأكل ، من

يغني بجوار حمارة النار... ؟

عامل سكة الحديد!...

وصوت الجوقة : من ـ من ، من ـ من...

خطّا السكة ، خطّا السكة ،

وتران للجيتارة...

والجوقة : من ـ من ، من ـ من ،من ـ من...

من يغني ، من يأكل ، من ينام

بجانب خط النار...

عامل سكة الحديد!

الجوقة : من ـ من ، من ـ من ، من ـ من...

ستة أيام ، ستة أيام ، ستة

أيام في الأسبوع...

من ـ من ،من ـ من ، من ـ من...

من يدري ، من يدري ، من

يدري يا عامل سكة الحديد ،

من يدري إن كنتَ حياً أو ميتاً... ؟

من ـ من ، من ـ من ، من ـ من...

سنة ، سنتان ، عشر

سنوات وتنتهي الحياة...

من ـ من ، من ـ من ، من ـ من...

هذه الحكاية المغناة تستمر إلى ما لا نهاية وتصبح بذيئة أحياناً . وفي

أحيان أخرى تتخللها مقاطع بهيجة :

من يشرب ، من يشرب ، من
يتغوط ملتصقاً بسكة القطار... ؟
عامل السكة!...
من يدفع ، من يدفع ،
من هو البراز الذي يدفع لنا
في سكة القطار... ؟ إنه الغرينغو!...

ويبقون هكذا حتى غياب الشمس ، يدخنون ويشربون ويغنون من ـ من ، من ـ من ، من ـ من... حرارة أول الليل تخدرهم . وتبدو الزيزان والضفادع والنعاس كما لو أنها تواصل من–من . فينطلق لينو بصمت ، تائهاً ، للبحث حسب قوله عن المرأة الإلهية الفاتنة ذات اللحم الأخضر مثل خضرة البحر النباتية التي تتحول إلى شجرة موز فور خروجها إلى اليابسة . ولكنه لم يكن يجدها . وتخور ساقاه من شدة السكر . وكان غايتان الأشعر يعني به . وكان يقول له الكلام نفسه دوماً : لديك أبناؤك ، لديك امرأتك ، ولديك أشياؤك ، وليس لديك ما يجب أن يكون لديك!... فيكتفي لينو بهز رأسه من جانب إلى آخر وعيناه جامدتان وشفته السفلى متهدلة .

وفي أحيان أخرى يقضي لينو الليل مخموراً بين عمال التحطيب ، وهو يغني لهم :

عندما أموت
وأنا آكل موزاً ،
لا تدفنوني في بلدة
تأكل موزاً ،

ادفنوني في مربع
يأكل موزاً
حيث تدرس المواشي
ما خلّفته...
من طرف ،
من طرف موزة!...
ضعوا فوق رأسي
موزة حمراء ،
ولوحة تقول :
هنا دفنا بائساً
من موز كله ،
من موز كله ،
من موز كله...

ويتوسل إليه أخوه خوانتشو لوثيرو :

ـ بالله عليك يا رجل! أنت لا تترك أي أمل! من الأفضل أن تموت . لأنك تُميتنا جميعاً . أمنا لم تعد ترى لكثرة ما بكتْ . لو أنك تذهب لاستشارة عرابتك ساراخوبالدا ، فربما تشفيك . إنك تسوء يوماً بعد يوم . داؤك هو حورية خمرة القصب! حورية خمر لها شكل الزجاجة!

كم هي صعبة استشارة ريتو بيراخ ، التشاما ، فالإشارة التي وصلت إلى عرابته هي وجوب معرفة إلى من توجه الاستشارة ، أإلى ريتو أكون بيراخ ، أم إلى ريتو كنت بيراخ أم إلى ريتو سأكون بيراخ . ومن أجل التواصل معه كان لا بد من القول له دون تردد ودون خطأ : ريتو أكون بيراخ ، إذا كان

ريتو أكون هو الأب ، وريتو كنت بيراخ إذا كان الجد ، وريتو سأكون بيراخ إذا كان الحفيد .

ولم يكن يفكر في استشارته أبداً ؛ ولكن أبداً هذه يحين موعدها أخيراً . فقد حاصرته الملاريا . ملاريا أفعى تُبقيه مثلجاً ، يداه متجمدتان ، والشعر مثل ميت ، والأسنان بطعم مرارة ثور ، مع تصلب في المفاصل . ولولا المرض لما كان استسلم .

كان التشاما يغلق إحدى عيني الباب عندما أطل لينو لوثيرو بوجهه المسرنم . كانت قد بدأت ليلة عظيمة ، عظيمة ، لقمر عظيم يطلع هناك في الأفق . أحد تلك الأقمار الساخنة ، أقمار الساحل التي توزع لدى انطلاقها رعشة خفيفة من البرودة . وكان حظه عظيماً ، مثل ذلك الليل ، حين أصاب في مناداته :

- ريتو كنت بيراخ...

اليد التي كان الجد يستند بها على الباب الآخر ، ليغلقه ، توقفت . أحنى رأسه الشائب إلى الخارج . وفي الظلمة تلاشى ريتو أكون وريتو سأكون ، ولكن لينو أكمل ببداهة :

- وليلة طيبة أيضاً لريتو أكون ولريتو سأكون بيراخ...

ولمعت ثلاثة أطقم أسنان من ذرة صفراء في الظلمة ؛ ولكن الوميض انطفأ في أحد أطقم الأسنان وخرجت كلمة ترحيب رقيقة ، مكتسبة بالأعمار بواسطة صوت الجد الذي حياه وأدخله .

ملمس يدي العجوز القاسيتين ، اللتين هما عظام محاطة بخواء ميت ، أخفته في الضوء الكئيب المنبعث من قدة الأوكاتي(١) المشتعلة في المطبخ

(١) أوكاتي ocote نوع من الصنوبر الذي يشتعل بسهولة ويعطي ضوءاً .

الصغير المتصل بالغرفة التي كانا فيها ، حيث سجاه التشاما على حصيرة طويلة .

لم يكن يجد نفسه هو ، لينو لوثيرو ، على الرغم من لجوئه إلى طرقه المعروفة في التفكير ؛ يسمي نفسه باسمه : لينو لوثيرو دي ليون ، ابن آديلايدو لوثيرو ورسيليا دي ليون دي لوثيرو ، أخ خوانتشو لوثيرو ، وأخ الحرذون ، والصديق الحميم للأشعر غايتان ، والشريك في التعاونية...

لا شيء محدد . أنفاس التشاما أعادته كتلة مجردة ، صمت لحم أمه وأبيه ، صمت لهفة الاثنين التي لا يمكن بلوغها ، وهما معاً ، حين مارسا الحب في الزمن الذي لم يكن الزمن محسوباً بالنسبة إليه .

متى بدأ حساب الزمن بالنسبة إليه ؟

في يوم سادس من نيسان... عام ألف... ألف... لقد نسي حتى تاريخ ميلاده .

التشاما أذابه ، حمله معه في أطراف أصابعه ، في ارتعاش أنفاسه الجزعة كأنين شيخ هرم ، إلى كهف الخفافيش ، الخفافيش القانطة بسبب البراغيث والحر ، ودون أن تتمكن من الطيران لأنها كانت نائمة . خفافيش الريح هذه التي تملك في أغشية أجنحتها الريح مطوية في شباك عنكبوت ، وتطلقها مرة كل مئة سنة ، ما لم يفلتها التشاما قبل ذلك . البراغيث الجائعة كانت تنتفخ بالدم عندما مرّ من هناك يئز مثل بعوضة بحمى المستنقعات ، ومن عينيه بدأت تخرج له دوائر بصل مقطعة ، دوائر ودوائر ودوائر ، وكأنما قد أُلقي حجر في كل واحدة من عينيه . جبهته بدت وكأنها جلدة حمال محمصة . وكانت يد التشاما تصفي العرق اللزج في شعره ، حتى لا يسقط على حواسه ، وكان قد طلاه بعجينة من أوراق النعناع .

لم يعرف سوى أنه كان نائماً عندما استيقظ في بيته ؛ ولكن ليس في بيت زوجته ، وإنما في بيت أبويه ، وسمع ، مثل خرير ماء صافٍ ، صوت أمه تشرح لزوجته الشربة التي أمر التشاما بإعطائه إياها عندما يستيقظ .

بمعجزة بذور الإيكي دنيا وحدها سمن واستعاد قوته خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . تُكسر البذرة وتزال القشرة السوداء التي تغطيها وتطحن وتعطى بمقادير صغيرة لمقاومة الوهن ، وبمقادير أكبر قليلاً للحفاظ على فحولة الرجال .

وكان العجوز لوثيرو يردد من شلل روماتيزمه :

ـ لقد كان جيداً طردي لابني ، لأنني هكذا فرحت بعودته ؛ إنه الآن ابني أكثر من قبل...

ـ اصمت يا آديلايدو ، دعك من هذه السماجات...

فاجأتهما خطوات ليستر ميد . فهو لم يأت منذ زمن طويل . خرجت دونيا روسيليا لاستقباله . دخل وعانق العجوز ولينو . وبعد ذلك جلسوا متحلقين حول كرسي المصاب بالروماتيزم ، قبالة المشهد الذي يظهر من ممر البيت في «سميرأميس» . وحسب قول ميد ، فإنه لا بد من انتقال لينو للعيش في العاصمة .

ـ وكيف سيستطيع العيش هناك ، حيث كل شيء يكلف غالياً... ـ تلعثمت دونيا روسيليا بعد لحظة صمت .

ـ لديه رصيد لذلك .

ـ وماذا سيشتغل ؟ تجرأ لوثيرو على قول ذلك ، لأن اقتراحات ليستر ميد كانت أوامر في الغالب . وكان أديلايدو يفكر : لم يساعدنا في أمر

حورية البحر وها هو يأتي الآن ويريد أخذه منا .

ـ سيشتغل في ما يريده ؛ ولكن المهم ألا يترك جيتارته ، وهناك سيجد الطريقة ليتعلم العزف بصورة نظامية .

العجوز لوثيرو الذي كان يستعد لأن يقول إنه لن يسمح بذهاب ابنه ، أحس بالزهو . وزهو الأب هو أقوى أنواع الزهو . بقيت دونيا روسيليا صامتة ، عميقة ، وقد أغمضت عينيها تقريباً حتى لا تُرى أفكارها : الحورية مخبأة في جيتارة لينو ، ويأتي هذا السيد القديس ليبقيه مع الجيتارة .

ـ يجب أن تعلمه دونيا ليلاند أولاً بعض الموسيقى هنا ـ قالت دونيا روسيليا بصوت متقطع ـ : آديلايدو مريض ، ومن دون الأبناء يموت الإنسان بسرعة . فالأبناء هم أحب شيء إلى الإنسان ، ومن دونهم يشعر بأنه زائد عن اللزوم في الحياة ، وهذا أشبه بدعوة إلى الموت . الأبناء هم من يمنحون أحدنا حرارة الحياة يا مستر ميد...

ـ أجل ، يمكن لليلاند أن تبدأ بتعليمه النوتة ؛ ولكن من المناسب أن يذهب .

الفصل الرابع عشر

والسيور ، مثل حيات بلا نهاية ، تنقل سحر الحركة إلى الآلات ، وكل هذا يديره محرك قوته حصان ونصف .

ـ سأموت يا روسيليا ، سيموت آديلايدو لوثيرو دون أن يعرف الحقيقة! ففي كل هذا الذي ترويته لي عن جمعية الشباب مع المجنون كوسي (فليستر ميد لم يكن بالنسبة إلى العجوز لوثيرو سوى مكيدة) ، هناك سر مخبأ . أنا أعرف ما أقول يا روسيليا . هناك سر مخبأ . لا يمكنني ، أنا الذي أعرف المسألة ، أن أقنع نفسي بأنه يمكن للدخل القليل الذي يكسبه عشرة أشخاص أن يتيح لهم تحقيق كل ما صنعوه . حتى إقامة هذه المطحنة . هناك سر خفي .

ـ كل شيء وأخشاب الطوف ، كل شيء والأفراس الولودة .

ـ لا يا روسيليا ، هذا الرجل عقد حلفاً مع الشيطان . تذكري كيف تعرفنا عليه . كان يبيع... ماذا كان يبيع ؟ ... لا شيء... كل ما هنالك كانت ضحكته الراعدة التي تثقب الآذان عن بعد... يا ـ ها ،ها ،ها!... وكان ينام ها ،ها... حيث يباغته الليل ، ويأكل . . لا ؛ فهذا يضحكني أنا أيضاً ، فقد كان يمضي الوقت صائماً .

أُحضرت فرقة موسيقى طُبول من القرية لتعزف في المطحنة . وكان البعض قد بدؤوا يرقصون في فناء ترابي فوق حصيرة من إبر الصنوبر . احتضن ميد ليلاند بين ذراعيه . رقصة فالس . كانت تتنفس السعادة لكونها محبوبة من هذا الرجل . وكانت سعادتها أعظم من سعادة أي امرأة أخرى أحست بأنها محبوبة ، لأنها كانت تحس بأنها محبوبة من كائن استثنائي . لقد كانت تلتصق به ، تريده أن يقربها من قلبه . وشدها ليستر إليه برقة ، وكأنها خطيبته التي يراقصها للمرة الأولى . لقد أحبها لأنها انتبهت إليه

عندما كان مجرد كوسي وحسب ، ذلك البائع الدمث لـ «كل ما لا بد منه للخياطة» ، الذي كان يعلن عن بضاعته بقهقهة طويلة ، مجلجلة ، ومأساوية بصورة رهيبة ، ولم يستطع مقاومة الاغراء بتقبيلها ووضع شفتيه على شعر زوجته ، فوق أذنها ، لكي يسند بعد ذلك فمه إلى الخصلة العطرة ، الحريرية ، الفاترة ، إلى ذلك الذهب الذي له بريق ورقة الموز . وتحتها كانت عظام ذلك الرأس المعبود . وأحست هي بأنها جميلة جداً تحت تلك القبّلة ورغبت في أن يراها الجميع هكذا ، مرتدية قبلة من زوجها .

ـ إنهم لا ينفقون يا آديلايدو ، أقول لك إنهم لا ينفقون! ومن الذي لا يستطيع أن يجمع نقوداً ويرفع رأسه بهذه الطريقة . كل ما يكسبونه يخبئونه ، ومن هذا ، من التوفير يُخرجون ما لا بد منه وحسب .

ـ لا تقولي هذا لي أنا . فالطاحونة ليست ببيزوين ؛ الأفراس لم تكلفه قشرة بيضة ؛ أراضي آل فوبيه وآل خارين ؛ والقدرة على الشحن دوماً في السكة الحديد التي لا تشحن شيئاً لأحد... كل هذا مكلف ، مكلف يا روسيليا ، اللهم إلا إذا كان قد باع روحه للشيطان ، فأصبح الشيطان يعطيه ويعطيه إلى أن يحين يومه...

فدمدمت دونيا روسيليا :

ـ أجل ، هنالك شيء... ؛ ولكن آخر وآخر من يمكنه التكلم في ذلك هو نحن ؛ علينا أن نرى كيف يحب أبناءنا وكيف حسن أحوالهم ، وكيف يهتم بهم ، تذكر كيف أعاد خوانتشو إلى زوجته وأبنائه .

ـ هذا ما أريده ، هذا ما أريده! قبل أن أسلم روحي إلى الله...

ـ دعك من هذا الكلام ، فأنت لا تحتضر...

ـ بل دعيني أتكلم يا امرأة . قبل نهايتي ، أريد أن يعترف لي أبنائي ويدهم على الصليب بأنهم لن يعقدوا أبداً حلفاً مع الشيطان .

ـ اطلب منهم أن يفعلوا ذلك...

ـ أيمكنني أن أفعل ذلك اليوم بالذات يا روسيليا ؟

ـ إنهم في الحفلة اليوم ولن نزعجهم بدعوتهم من أجل شهادات محزنة . فكر بأحفادك ، وهم أطفال رائعون ، ودعك من الحديث عن الشيطان .

ـ وماذا إذا كان ما يملكونه وما ينفقونه مسروقاً ، ومضى أبنائي يوماً إلى السجن لأنهم لصوص .

ـ سيثبت أنهم غير مذنبين .

ـ سيثبت... ولكن بينما يجرى التحقق ، وباعتبارهم متواطئين...

ـ إنك تحملني على التفكير وأنا لا أريد التفكير ؛ فإذا كان الأمر هكذا ، فمن الأفضل أن يعقدوا حلفاً مع الشيطان .

ـ يا امرأة!

ـ لا شيء من الأمرين إذن ؛ ولكنك أنت من تجعلني أفكر ؛ ليس هناك ما هو أسوأ من اللسان ، فلسان المسنين هو سم أو حلاوة!

ـ من يستطيع إخراجنا من الشكوك هو مستر روس ؛ أنا أعرفه كثيراً وهو يمر من هنا في بعض الأحيان ، ولكنه لا يقول لي وداعاً على ما أظن لأنني أبقى منحن على الدوام فقط وأبدو مثل نبتة فلوريبوندو ذاوية ؛ أريد أن أرفع رأسي فيشق علي ذلك كثيراً .

ـ اسأله... فعندما وقعت مشكلة لينو جاء ليرانا ، واهتم بالأمر .

ـ سأسأله... فنحن الآباء يجب علينا أن نهتم بأبنائنا حتى ولو كانوا أفظاظاً كباراً . على ألا يكونوا لصوصاً مسجونين ولا بائعي روحهم للشيطان... يجب أن يعملوا بنظافة مثلما عمل أبوهم ، وأن يكونوا أحراراً في أرضهم ، يبيعون ثمارهم الخاصة التي ينتجونها!

ـ ولكن هذا كله قد تحقق ، ولا يمكن لنا التذمر .

ـ لقد تحقق ، ولكن... لا تجبريني على الكلام يا روسيليا . صحيح أنه تحقق ، ولكن من يدري إذا ما كان كل ذلك مسروقاً أو متفقاً عليه مع الشيطان ، ولست أردي أي الأمرين أسوأ...

في تلك الليلة كان الحقل مفعماً بنقاط مضيئة ذات لون أخضر ، كما لو أن حقل الموز ، وسط حرارة السماء ، يطلق عيوناً على شكل حباحب . ومن «سميرأميس» كان المسنان يريان بريق مكان الحفلة وراء ستارة عظيمة من الأشجار التي تتسلق نصف الرابية ، لتستقر بعد ذلك ما بين المنحدر الذي تقوم فيه الطاحونة وبيت «سميرأميس» الذي يظهر في الأعلى .

ـ أسمع! ـ قالت العجوز روسيليا بعد وقت طويل ـ ، لا بد أن أحدهم قادم .

ـ لا يمكن أن يكون في مثل هذه الساعة سوى الدكتور... إذا كان هو ، فسأسأله يا روسيليا . لا يمكنني أن أموت والشك ينهشني .

بشاشة الجالينوسي أبهجت الزوجين لوثيرو . وبينما العجوز يطلق الزفرات ، كان الجالينوسي يجسه ملامساً ، بحركات عنكبوت ، أضلاع صدره في جهة القلب . ثم رسم نصف دائرة بإصبعيه المفتوحين مثل فرجار . ورسم نصفها الآخر في الحال ، ووضع هناك أذنه فوق منديل من الحرير .

ولكنه بدا كما لو أنه يسمع خارج لوثيرو أكثر مما يسمع ما في داخله ، لأنه رفع رأسه وسأل :

ـ أتوجد طبول قريبة ؟

ـ في افتتاح طاحونة دقيق الموز ـ قالت دونيا روسيليا ، بينما كان زوجها يزرر قميصه ، أو أنه بكلمة أصح كان يجمع أطراف القميص ، لأن أصابعه كانت تتشابك كلما أراد أن يدخل أحد تلك الأزرار الصدفية في عروته .

ـ اسمع يا دكتور ؛ أنا من تقول عني دوماً : العجوز الخرف ؛ ولكنني شديد الفضول إلى حد أنني كنت أفكر بأمر افتتاح هذه الطاحونة ، وبما إذا لم يكن هناك سر وراء ذلك...

ـ لا بد أن أبناءك يعرفون...

ـ إنهم لا يعرفون شيئاً ؛ وأنا أريد أن أفتح عيونهم ؛ فكل هذا الذي يحدث للمستر ميد غريب وغامض...

تنحنحت دونيا روسيليا متصنعة السعال بحسرة ، لكي تنبه العجوز لوثيرو إلى أنه يتجاوز الحدود .

ورد الطبيب :

ـ ولكن... ما أعرفه أنا هو أن «التروبيكال للموز المغفلة» ، أرسلت إلى هنا ثلاثة من أفضل تحريي الولايات ولم يتوصلوا إلى أي شيء حول سر ليستر ميد . هل هو مغامر ؟ أهو تقني في جمعية التعاونيات ؟ أم أنه صاحب رؤى ؟ المؤكد يا دون آديلايدو هو أنه اكتسب ودّ واحترام الجميع .

وهتفت دونيا روسيليا :

- إنه خدوم جداً!...

- أنا أرى أنه قد عقد حلفاً مع الشيطان .

- الشيء الوحيد المعروف هو أنه كان على الدوام بين مزارعي الموز ، هنا وفي بلدان أخرى .

- تفضل بالجلوس يا دكتور...

- لا يا سيدتي ، سأذهب... قبل أيام تحدثت معه وعرض علي مفتاح سر نظامه الاقتصادي . فهنود سان خاثينتو ينزلون إلى الساحل الآخر ، ويعملون في مزارع الموز ، ويعودون جميعهم إلى بيوتهم أثرياء ؛ أما الكريوليون فيأتون ورؤوسهم ملأى بالأحلام والبطولة ولكنهم لا يتمكنون حتى من العودة... وإذا ما رجعوا فإنهم يكونون مجرد نفاية اجتماعية... إنه اقتصاد هنود سان خاثينتو ، فكروا في هذا وليس في الشيطان!

انتهى الطبيب من قول هذا ، وأومأ لدونيا روسيليا لكي ترافقه بضع خطوات . رافقته العجوز ورجعت بقدمين مثقلتين ، وكأنهما كيسا رمل على الأرض . كان لوثيرو قد أغمض عينيه ، وبدا مثل قناع عجوز متضمخ بقطرات العرق . ولكنه ما زال يتنفس . . يتنفس بنعومة . وضعت العجوز يدها على رأسه بحنان . وهناك بجانبه لم يعد يظهر أي شيء . إنه الليل ، الظل ، ملكوت الموت الذي سيدخله العجوز عندما تنفد حيوية قلبه . أغمضت عينيها لتوقف الدموع التي كانت كحبات ذرة سمينة تحت اليد الحجرية . كان من المحزن رؤية إنقضاء حياة ، الإحساس قرب العجوز المسكين بكل بطلان الدنيا ، بكل بطلان الأشياء . تكومت إلى جانبه . فتحت شفتيها لتقول ، في الوقت الذي كانت تبحث فيه عن يده ، وكانت بحاجة لأن تحمله حتى النهاية لكي تقول : رباه!

ـ اقتصاد هنود سان خاثينتو!... دمدم بذلك العجوز لوثيرو كلمة كلمة .

الأزمة الأخيرة كانت طويلة . وقد أخذوه محمولاً في أحد الأيام لرؤية الطاحونة . لم يكن قد رأى من قبل دقيق موز . كله للتصدير . أمسك بيده حفنة بيضاء من المسحوق الذهبي . تحسسها . طلب أن يضعوا على شفتيه قليلاً منه ، فكانت قبلة أكثر مما هي تذوقاً . دقيق موز . دقيق إله المنطقة المدارية . دقيق من أجل خبز قربان الديانة الجديدة . ديانة الإنسان . ثم أروه بعد ذلك العلب مختلفة الأحجام ، حسب وزنها من أجل التصدير ، واللصاقات التي توضع عليها .

الفصل الخامس عشر

بقيت زوجة باستيانثيتو كوخوبول تعنى ببيت الزوجين ميد . سيتغيبان بضعة أسابيع . يمكن الآن انتهاز الفرصة للتفتيش حتى تحت الأحجار . ولكنني لم أعد أستطيع النهوض ، لم أعد قادراً على الحركة... العجوز آديلايدو لوثيرو ، وعلى الرغم من «اقتصاد هنود سان خاثينتو» لم يكن يتوقف عن الرجوع إلى تقليب شكوكه . وفي أثناء ذلك ، دخلوا في أحد الأيام إلى الغرفة ، في «سميرأميس» ، فوجدوه مثل خنفس يغطيه الذباب ، وكان ميتاً . تلا ذلك السهر على الجثمان . وأيام الحداد التسعة . ولم تتحمل دونيا روسيليا الحداد . فالحداد حارق في الساحل على حد قولها ، وأي حداد أكبر من الشيخوخة . الشيخوخة هي حداد الحياة . مواقد حر نيسان وأيار الهائلة . ومع أن المطر يبدأ بالهطول في هذه الفترة ، إلا أنه لم تسقط قطرة واحدة هذه السنة . وأخيراً ، جاء المطر . ولكنه كان مطراً يبدو وكأنه محمول على أجنحة طيور . يهطل وابل غزير منه فتجففه الشمس بالكامل ، محولة الأرض إلى قطعة آجر غير مشوية . ليس مطراً من ذاك الذي يجلس المرء ليرى هطوله ، ثم ينام وهو يهطل ، ويستيقظ وهو يهطل ، ويأتي الغروب ثانية وهو ما يزال يهطل .

ومن أجل أن تمحو من ذهنها قليلاً صورة جسد آديلايدو لوثيرو الذي صار في البرد ، بعيداً عن البيت ، كانت دونيا روسيليا تنزل إلى منزل آل ميد . إنه بناء غريب ، مشيد من جذوع أشجار ، يسمونه في لغتهم «بنغالو» ، تحيط به حدائق لم تكن دونيا روسيليا تراها حدائق ، وإنما سطوح عشب أخضر معتنى بها جيداً . وكانت زوجة باستيانثيتو شديدة اللطف معها . فهي تقدم لها الشيكولاته فور وصولها بوجهها الكئيب . . وجه الأرملة والأم ، وبملابسها المعتادة لكل يوم . تلك الشيكولاتة الأجنبية لذيذة المذاق . أما شيكولاتة البلاد فهي سيئة جداً ، إنهم يصنعونها بكثير من السكر ولا شيء من الكاكاو . لقد أخبرها أحد أبنائها بأن ليستر ميد قد اشترى قبل سفره أراض يفكر في أن يكثف فيها زراعة الكاكاو . فزراعة الكاكاو هذه تدر ذهباً أكثر من البن ومن الموز . لم أتخيل يوماً أن يصبح أولادي أغنياء هكذا ، تفكر العجوز روسيليا بذلك بينما هي تتناول رشفات من فنجان الشيكولاتة الساخنة وسط المنطقة الساحلية ، في الساعة الثانية بعد الظهر . لقد طلبتْ من الله أن يكون أبناؤها محبين للشغل ، ولكن ليس أغنياء . فالثروة تجلب مصائب كثيرة ، إزعاجات كثيرة . من يعش يرَا الأغنياء تقسو قلوبهم . وأي نكبة أكبر من قسوة القلب . ولكن الحظ هو الحظ ، وقد ولدوا ليملكوا ، مثلما هناك آخرون يقضون حياتهم في معاناة الأمراض والعلل .

لا تتذكر ليلاند فوستر أنها خرجت من منطقة مزارع شركة «تروبيكال للموز المغفلة» مذ جاءت إليها في إجازة مع زوجها الأول . بل إنها لم تذهب إلى العاصمة ، فما بالك بالذهاب إلى أميركا الشمالية . لقد أعدت حقائبها في إحدى المرات ، منذ وقت طويل ، ولكن ليستر رجع في أثناء ذلك ولم تغادر . كان السفر في القطار يثير أعصابها . وقد عرض عليها ميد أن

يأخذها في السيارة إلى العاصمة ، ويمكنه بذلك أن يترك السيارة في ورشة تصليح لفحصها وطلائها ، فيجدانها جديدة عند عودتهما .

المفاجأة التي ستصيب أصدقاءهما ، بغيابهما عن المزراع ، عندما يعلمون أنهما قد سافرا . وخصوصاً هي ، لأن ميد هو «جواب آفاق» . وهي المرة الأولى التي ستسافر فيها لساعات طويلة بالطائرة . لم يكن لديها وقت لأكثر من شراء ثوب لائق إلى حد ما ، وقبعة ، وحقيبة يد ، وحذاء ، والقيام بجولة سريعة في المدينة التي كان نورها الساطع يُشعرها بأنها في عالم آخر ، في أعلى طبقات الهواء .

ولكن ، ها هي ذي في عالم آخر بعد بضع ساعات من الطيران . إنها أجواء الحديد النتن لمدينة نيويورك . كم من السنوات مضت على غيابها عن نيويورك . هزت رأسها قبالة المرآة الضخمة في غرفتها الأميرية . إنها في منزل أصدقاءِ لميد ، في أجمل منطقة في ضواحي نيويورك . عندما وصلت ليلاند إلى صالة الطعام ، كان ميد ينتظرها وهو يقرأ الصحف وبعض الرسائل . مرّت هي من غرفة المكتبة وتناولت من بين أعمال شكسبير مسرحية «ترويض الشرسة» . ذهبُ شعرها الأخضر ، وعيناها مثل لوزتين من قشرة خبز محمص ، جمالها الأبيض ، كل شيء فيها كان يضحك عندما قالت لميد وهي تدخل صالة الطعام :ـ من الأفضل أن أعيد قراءة شكسبير ؛ لا أريد أن يصيبني ما أصاب بيريللان...

ـ أنا من يصيبني الآن ما أصاب بيريللان . لقد اتصل بي الآن محامياي .

ـ هل ورثت ثروة ما ؟

ـ الشيء المؤكد هو أنك ستستخدمين السيارة الأخرى...

ـ أي سيارة أخرى يا سيدي الدوق ؟

ـ السيارة التي خصصها لك هؤلاء الناس...

ـ أي ناس تعني وأنا لا أرى أحداً هنا ؟ فأنا لم أر منذ وصولي سوى الصور .

ـ أصحاب البيت هم أصدقاء لي يديرون ممتلكاتهم من مكان في أوربا .

كان المحاميان ينتظران ليستر ميد . والمحاميان هما شقيقان توأمان . حين يكونان معاً يصعب التمييز بينهما ، وحين ينفصلان يصبح من المستحيل تحديد هوية كل منهما . ولهذا أحس ميد بسعادة كبيرة حين تمكن وهو يصافحهما أن يقول ألفريد لمن يدعى ألفريد وربيرت لمن يدعى روبيرت . إنهما المحاميان الشهيران ألفريد وروبيرت دوزويل .

بعد تبادل التحيات ، احتل ميد مقعداً وراء طاولة المكتب ، وهي طاولة كبيرة مصممة لشخصين . . شخصان هما شخص واحد ، شخصان متشابهان جسدياً ومتوافقان في عملهما وفي ذوقهما وفي كل شيء .

قال روبيرت دوزويل :

ـ مساهمونا متلهفون لمعرفة نتائج تجربتك . يمكننا أن ندعو إلى اجتماع مساء هذا اليوم بالذات .

وبينما ألفريد يتكلم... لا ، لقد كان روبيرت هو المتكلم . بينما روبيرت يتكلم ، أخرج ألفريد دفتراً وتهيأ للكتابة .

وأجاب ميد :

ـ يبدو لي من المناسب أن نجتمع هذا المساء ؛ أريد أن أعرف فقط في أي ساعة سيكون الاجتماع .

فقال ألفريد دوزويل بينما هو يكتب :

- سيكون في الساعة الرابعة .

- مفهوم...

- ولكن ، انتظر يا سيد ستونر... - وأحس ميد بشيء من المفاجأة حين سمع من يناديه باسمه الحقيقي - ، سنتصل بواشنطن ، لأن المساهمين في مجموعتنا يرغبون في حضور شخصية من وزارة الخارجية أثناء تقديم تقريرك .

- وأنا سأتصل في أثناء ذلك بزوجتي ؛ ربما هي لم تخرج من البيت بعد ، فأتمكن من إطلاعها على الأمر الجديد .

- سيكون الاجتماع في الرابعة مساء يا سيد ستونر... - قال أحد المحاميين ؛ ولكن ليستر لم يعرف هذه المرة من هو المتكلم ، ألفريد أم روبيرت .

اصطبغ التقرير بلمسة خفيفة من الفكاهة ، على الرغم من أنه كان شديد المرارة . فليستر ستونر الذي كان يرتدي بدلة بلون النحاس العتيق ، بدأ يتكلم في الساعة الرابعة ودقيقة واحدة مساء . وكان المساهمون يجلسون على مقاعد منخفضة . وكان بين الحضور شخصية من وزارة الخارجية ، جاء من واشنطن . إنه رجل صارم ، يغطي رأسه شعر أبيض ، وعلى وجهه شعر ذئب بحر .

وانتهى ستونر إلى القول :

- بعد أن عرفتم الآن ما هي أساليب شركة «تروبيكال للموز المغفلة» التي يشرفني الانتماء إليها ، إذا كان بالإمكان إطلاق صفة الشرف على

مكانة المهربين والنخاسين والمستعبِدين التي نحوزها بسبب السياسة المتبعة ، فقد صار تصحيح المسار السيئ مسؤوليتكم . لا يمكن مواصلة هذا النهج في المناطق المدارية الأمريكية إذا كنا لا نريد أن نخسر سمعتنا وصفقاتنا نهائياً . إن الممارسة العملية تثبت أنه إذا ما ذهبنا إلى هناك بأيد نظيفة من الرشاوى ، وتعاونا من أجل رفاهية تلك الشعوب ، دون أن نضحي بسنت واحد من أرباحنا الحالية التي ربما تزداد ، سينظرون إلينا كأصدقاء وليس كأعداء . إننا غير نزيهين ولا نحترم قوانين البلدان التي نعمل فيها . وهم لا يكرهوننا لأننا أمريكيون شماليون ، وإنما لأننا أمريكيون سيئون . من العار أن نسحق كل يوم آمال الناس الذين زرعوا أرضهم ليعيشوا بسلام . هؤلاء الناس يشنون الحرب علينا لأننا ذهبنا إليهم بصرخة الحرب . لم نعرف كيف نتعامل معهم على صعيد الشرعية واللياقة التي تستدعيها الصناعة والتجارة النزيهتان . إننا نعتبر كل شيء شرعي لأننا نملك قوة الدولار . ولكنني أعتقد ، وأؤكد ، وألح على أنه إذا ما أتتنا ظروف دولية غير مواتية في أحد الأيام ، فإن حقد هذه الشعوب سيأتينا مضاعفاً أضعاف أقراط الموز التي يرفضها مراقبونا كل يوم .

تناول ليستر ستونر رشفة ماء ، وتابع تقريره :

ـ هؤلاء الناس بدؤوا يتعبون منا ونحن نتعب منهم . والتهديد بأننا سننتقل بإمكانياتنا إلى مكان آخر ، لم يعد يهزهم . فأمورهم معنا سيئة ، ولا يمكن لها أن تسوء أكثر إذا ما ذهبنا . ثم إن الجغرافية تكذبنا . فإلى أين يمكننا الذهاب بمؤسساتنا الزراعية مع البقاء قريبين من وطننا ؟ لا وجود لأي مكان . الصحافة التي تدافع عنا فقدت مصداقيتها ، ومحامونا هم رجال شرطة في خدمتنا أكثر مما هم رجال قضاء في خدمة القانون . إننا نستعبد

البعض بنظام مبيعاتنا ، ونشتري آخرين بهباتنا ، ونقوض الاقتصاديات المحلية بجشعنا الاحتكاري ونحاول أن نغطي كل ذلك بمنافع الحضارة التي حملناها في أجهزة تحرم الإنسان من كرامة الموت بالملاريا مثلاً ، لنبحث لهم عن موت بطيء ، بعضهم بالويسكي والصودا ، وآخرون بالروم وخمرة القصب ؛ وحرمنا أنفسنا كرامة الدفاع كرجال عما يمكننا الدفاع عنه بمكالمة هاتفية مع ممثليتنا الدبلوماسية .

شرب ستونر بقية كأس الماء ؛ كان يشعر بشفتيه تلتهبان ، وواصل تقريره :

ـ صلب القضية هو في استبدال من يسيّرون الشركة اليوم وفق سياسة التضحية بكل شيء في سبيل الربح ، بسلطات أخرى تتصرف بقدرتنا المالية الهائلة لتوفر لنا سيطرة مستقرة على ما هو آخذ بالتسرب من أيدينا يوماً بعد يوم . إنني أطالب بتغيرات مناسبة لإنقاذ المستقبل ، دون تقليص المنافع . أنتم لم تفكروا يوماً في إحداث هذا التغيير في السياسة ، ولم يفكر المساهمون الآخرون بذلك أيضاً ، لأنكم لستم في وضع يتيح لكم معرفة ما يجري هناك . فلنجد إذن ، وبأسرع ما يمكن ، أنصاراً جدداً بين من يجهلون حقيقة الأحداث ، وعندما نصبح أغلبية...

انطلقت السيارة الطويلة الفارهة على أحد الشوارع العريضة المؤدية من مركز مدينة نيويورك إلى الريف . وكانت ليلاند إلى جوار زوجها الذي يقود السيارة بسرعة ، فمالت بجسدها إلى جهة الباب ، والتفتت بوجهها لتراه جيداً ، ثم قالت له بعد النظرة المتحدية :

ـ أظن أنه يتوجب علي أن أتكلم بإخلاص ، وأنه يجب أن تعرف ما أفكر فيه... أجل... من الأفضل أن تعرف... لقد انهارت ركيزة التمثال التي كنتُ

قد وضعتك فوقها ، ركيزة التمثال... أنت منافق عظيم إلى حد أنني لم أعد أعرف كيف يمكنني أن أتحملك يوماً آخر ، دقيقة أخرى... في مزارع الموز كنت تنام أحياناً على الأرض ، مع الشباب... لم تكن تنفق هناك شيئاً زائداً عن الحاجة... زائد عن الحاجة ؟ ... بل حتى الضروريات... لا شيء رفاهي... زعلتَ من مكاريو بسبب تلك التفاهة الحريرية التي اشتراها من متجر الشركة لزوجته... وكل ذلك لكي تظهر في عيون أولئك الناس المساكين الجاهلين على غير حقيقتك... أيها المنافق...

كان تألق المدينة ينتشر في المدى مثل ذيل مذنب ضخم . وحيال صمت زوجها الذي لم تتحرك عضلة واحدة في وجهه على الرغم من كلماتها العدوانية ، ولم ترتفع عيناه الخضراوان في قرنيتيهما البيضاوين عن شريط الطريق الرمادي ، احتفظت ليلاند بالصمت وهي تكبح دموعها .

بعد مرور وقت بدا طويلاً ، قال ليسْتر دون أن يلتفت إليها :

ـ هل يمكن معرفة أيهما تفضلين ؟ زاهد المزارع أم رجل نيويورك الدنيوي ؟

ـ يا لك من مستهتر!

عاد ليستر إلى الصمت ، ولم يعد بإمكانها كبح نفسها لوقت أطول . انحدرت على خديها قطرات دمع كبيرة وغزيرة . بكت دون أن تقوم بأي حركة ، وكأنها جزء من الآلية الدقيقة لتلك السيارة الطويلة الصامتة . ولم يبد عليها أنها تبكي إلا عندما رفعت منديل الدنتلا إلى أنفها لتنف فيه .

ـ بعض النفقات التي قد تبدو ترفاً ، ليست كذلك حين تكون ضرورة من أجل الحصول على قرض مثل الذي طلبته من المصرفيين . قرض طويل

الأجل يتيح لنا إقامة صناعات تعتمد على الموز وعلى محاصيل تلك المنطقة الأخرى .

رفعت ليلاند رأسها . وكان في عمق عينيها المخضلتين بالدمع نقطتا ضوء ، وقالت بما يشبه الهمس :

ـ سامحني يا ليستر ، إنني حمقاء بائسة ، والمدينة أفقدتني توازني ، لقد آلمني عدم اللقاء مع نيويورك التي... التي هي نيويورك إحدانا... تلك التي تظن إحدانا أنها نيويورك ، أو التي حلمت بأنها نيويورك... لقد كان اللقاء بمدينة تبدو وكأنها خلقت لتستغل كل القوى البشرية حتى الغثيان... لتلتهمنا جميعاً... مدينة عملاقة قبيحة ، دون معنى... ـ والتصقت به : ـ أنت رائع يا حبي! إنك تؤدي على أحسن وجه دورك كدنيوي وكناسك ، وكمصرفي في السيتي وكمزارع في المنطقة المدارية ، ولست أعرف في أي دور تكون أفضل ؛ فأنت في نظري الأفضل في كل الأدوار ، لأنك حقيقي فيها جمعها ، ولهذا تألمت كثيراً منذ لحظات... يا حبي... لأنني ظننت أنك ستحطم الصورة الجميلة للرجل القادر على عمل كل شيء يريده بصدق...

ـ سنذهب من هنا ؛ فأنا أيضاً أرغب في الذهاب ؛ إنني أسيرٌ يعدّ الأيام المتبقية للهرب من الأسر . عندما أفكر بأن هناك بحاراً ، وجبالاً ، وبراكين ، وبحيرات ، وأنهاراً هائلة لها لون الثمار السائلة ، وأنه يوجد هنا بالمقابل آلاف الناس المحبوسين ، منذ مولدهم حتى مماتهم ، في بيوت ومكاتب نتنة ، رمادية...

أعاد المحاميان التوأمان عرض وجههما المزدوج على ميد ، أو ستونر كما يسميانه . إنهما الشخص نفسه أمام مرآتين اثنتين . ألفريد وربيرت ، وروبيرت والفريد ، عندما جاء لوداعهما ولتوقيع بعض الأوراق المهمة .

وبتوقيعه وحده حصل على قرض بنصف مليون دولار . ثم وقع على وصيته . ستكون وريثته الوحيدة هي زوجته ، ليلاند فوستر ستونر ، وفي حال التعذر تحوّل كل أملاكه إلى جمعية «ميد ـ كوخوبول ـ لوثيرو ـ آيوك غايتان» .

عندما دخلت ليلاند إلى مكتب المحاميين ، نهضا واقفين .

ـ إنني محملة بالمشتريات... عشية السفر تمضي إحدانا محملة بكل ما كانت قد نسيته . . أشياء تشترى في اللحظة الأخيرة... ـ وبعد هذا الاعتذار توجهت إلى زوجها : ـ ما زلنا ضمن الوقت ، أليس كذلك ؟

حياها الأخوان دوزويل بالانحناء وبتقبيل يدها ، ثم صافحا يد ليستر ميد ، أو ليستر ستونر بالنسبة إليهما ، وبعد لحظة من ذلك أُغلق باب المكتب الآلي وراء الزوجين المغادرين ، دون ضجة ، مثلما كان قد انفتح من قبل .

ـ لا أعرف كيف تتدبر الأمر لتتفاهم مع محاميك . كيف تمييز أحدهما من الآخر ؟

ـ لهذا السبب لا التقي بهما إلا عندما يكونان معاً ؛ فحين أتصل بهما هاتفياً لتحديد موعد ، أنبههما دوماً إلى أنني أود اللقاء مع كليهما ، وما زلت حتى الآن صاحب الرقم القياسي بين زبائنهما في التمكن من تحية كل منهما باسمه بمجرد الدخول إلى المكتب .

ـ يخيل إليّ أن الصباح لن يطلع ، وأنني لن أغادر غداً . يمكنني أن أعيش هنا لو أنني مليونيرة فقط...

ـ ولكنك صرت مليونيرة...

ـ سأبقى هنا إذن...

ـ إنك وريثة أحد أقوى المساهمين في شركة «تروبيكال للموز المغفلة» ، وإيراداتك الشهرية لا يمكن أن تقل عن... ضعي الرقم الذي تشائين ، ابتداء من مئة ألف دولار وما فوق...

ـ سأكون . . سأكون مليونيرة لأن جمعية «ميد ـ كوخوبول ـ لوثيرو ـ آيوك غايتان» ستحتوي «التروبيكالتانيرا» . وآمل عندئذ أن تكون أسهمنا هي الأقوى .

ـ الشيء الوحيد المتبقي قبل ذهابنا هو أن تعيدي كتاب شكسبير إلى موضعه . فما زال هناك متسع من الوقت... ـ وسُمعت ضحكة ليستر وهو يكرر : «ما زال هناك متسع من الوقت» ، لدى تقدم السيارة عبر حديقة منزل إقامتهما الوارفة .

ـ يبدو أن أصدقاءك قد رجعوا إلى البيت . أرى أنها مفاجأة لطيفة . فأنا لم أكن أرغب في الذهاب دون التعرف عليهم . كان علينا أن نحضر في وقت أبكر ، منذ أن غادرنا مكتب المحاميين ، لنتمكن من البقاء مع أصدقائك وقتاً أطول .

كل هذه الكلمات كانت تقولها ليلاند بتسرع وهما ينزلان من السيارة .

اقتربت سيدات يرتدين فساتين «السواريه» ورجال ببدلات السموكنغ للترحيب بهما . والغريب هو أنهم لم يكونوا يدعونهما باسم ميد وإنما ستونر . وظنت ليلاند بأنهم يستقبلونهم بترحاب بسبب ذلك الخطأ ، فسارعت إلى الطلب من زوجها أن يوضح لهم بأنهما ليسا الزوجين ستونر ، وإنما هما الزوجان ميد .

ولكن تشوشها ازداد حين وجدت المحاميين التوأمين بين الحاضرين . ولم ترق لها الحفلة بسبب الخطأ المـزعج الذي وقع فيه مضيفوها حسب ظنها ، بل وصل بها الأمر إلى إساءة الظن بزوجها . فالنساء مهيئات لإساءة الظن بأزواجهن إذا ما حاول هؤلاء التظاهر بأنهم أشخاص آخرون . وفيما بعد ، عندما عرفت الحقيقة ، سيطر عليها إحساس بالغم . فقد تبينت فجأة أنها صارت مليونيرة مثلما قال زوجها قبل ساعات بطريقة بدت لها مازحة . ولكن كأس الشمبانيا الأولى كانت كافية لتبديد الغمامة بالضحك . ضحكتْ مع ألفريد وروبيرت دوزويل من الحرج الذي كانت تشعر به للتمييز بينهما ؛ وضحكت مع أكثر المساهمين عبوساً في «تروبيكال للموز المغفلة» ، ممن كانوا يتبعون ستونر في هدفه من أجل تعديل السياسة المالية للشركة ؛ وضحكت مع السيدات اللواتي هنأنها ورأين أنها فاتنة ؛ وجعلت موظف وزارة الخارجية المهم يبتسم حين روت له أن زوجها كان يتظاهر بأنه كوسي . «كل ما لا بد منه من أجل الخياطة» ، وأطلقت ليلاند تلك القهقهة «يا- ها ، ها ، ها ، ها ، ها» التي تحتفظ بها في مسمعيها مثل دفقة مياه مرشة دافئة .

اقتادها ليستر إلى الشرفة . هل أسكرها كأس الشمبانيا ؟... هل أسكرتها البهجة ؟

لم ترد على زوجها ، وإنما طوقت عنقه بكلتا ذراعيها ، وقبلته ثم قالت له :

- إنني سكرانة بك...

عزفت فرقة موسيقية المقطوعات التي تفضلها ليلاند . وفيما بعد ، عندما رجعا إلى الشرفة بعد أن رقصا ، لم تعد ليلاند تضحك .

- إنني أبكي... - تمتمت ، وكان وجهها مبللاً بالدمع .

بقيا وحدهما . وتلاشى الضيوف حيث يختفي الناس الغرباء ، مهما كانت درجة صداقتهم ، عندما تأتي هذه اللحظات التي لا تكون على ما يرام إلا ببقاء زوجي الجنة منفردين . اختفى أولئك المدعوون الذين تساوي أسهمهم في الشركة وزنها ذهباً . ذلك الشيخ ذو النظرة الفضولية تحت حاجبيه الشائبين ، بسالفيه الطويلين وذقنه الصغيرة ، ويديه السمينتين اللتين يضعهما دوماً فوق بطنه ، وهو الزعيم الرئيسي لخطة تغيير السياسة المالية لشركة «تروبيكال للموز المغفلة» ، ليس التغيير كما يريد زملاؤه ، وإنما بعمق ، بتحويل أعمالها إلى شأن اجتماعي .

وكانت الموسيقى تُسمع في الصمت ، ليس لأنها مازالت تُعزف ، وإنما لأن أنغامها مازالت في الذاكرة . أفلتت ليلاند من يدي ستونر وهربت إلى الحديقة .

وتمكن ليستر من سؤالها :

- إلى أين أنت ذاهبة ؟...

- إلى حيث ينتظرني ميد الفقير!

- إنه لا ينتظرك في الحديقة ، وإنما هنا ، في مسرحية شكسبير!...

أحست ليلاند بإحباط دورها التاريخي .

- بيريللان - عادت تقول له - دعك من الحلم يا بيريللان - وفركت يديها بوجهه ، بعينيه ، مداعبة إياه - ، أو نحلم بأنها الحقيقة!

لم يكن المدعوون قد ذهبوا . وركزت انتباهها على العجوز ذي السالفين واللحية الصغيرة الذي كان يستمع إلى مساهم آخر ، وهو يهودي

ينتهي رأسه بقمة مدببة ، يشرح له كيف انطلق ستونر إلى تلك المغامرة في مزارع الموز ، لضيقه من حياة المليونير التي كان يعيشها .

وشيئاً فشيئاً راحت ليلاند تستعيد وعيها . كانت قد ضحكت ، وكانت قد بكت ، وكانت قد خرجت راكضة إلى الحديقة . المدعوون يحيطون بها ، والمحاميان التوأمان ، وتحمل في يدها خاتماً لا تكتفي بالنظر إليه ، بل تلمسه . لم يكن زمردة . كان قطعة من إحدى عيني ليستر ميد . فهو مازال بالنسبة إليها ليستر ميد .

وبدأ الضيوف يغادرون . وفي هذه المرة ، كانت أكثر اتزاناً ، تمد إليهم يدها ليقبلوها . وكانوا ما يزالوا يغادرون ، يخرجون...

ـ أجل يا حبي ، ليستر ستونر سيبقى في نيويورك ، في هذا البيت ، ومن سيعود معكِ إلى المزارع هو ليستر ميد . أتريدين أن أخبرك أمراً ؟

ـ قل كل ما تريده يا حبي...

ـ أنا أفضّلُ ليستر ميد ؛ لأن ليستر ستونر هو مليونير بلا قلب ؛ إنه المليونير الذي لا يمنح نفسه ترف التخلي عن كونه وغداً ، وغد الوولدورف أستوريا ، اليخت ، خيول السباق ، النساء المشتريات... مليونير الباكارا والروليت ، عرق الناس المستغَلين... مليونير التوافقات السياسية للحفاظ على حكومات تخدمه في بلدان يعمل فيها بنهم إخطبوط... أنا أفضل ليستر ميد ، المليونير الذي ينظم تعاونيات مزارعين ، والذي أنشأ طاحونة صغيرة لدقيق الموز والذي ، على الرغم من كونه مليونيراً ، وجد الحب ، مثل قبلة من الرب على الجبهة .

ـ أجل يا حبي ، ليستر ستونر سيبقى في نيويورك ، في هذا البيت ،

وسيرجع مجنوني الذي كان يضحك في المزارع ، مليونيري الذي يرجع الآن كمجرد عامل بسيط...

- لقد كان يثير حفيظتي أن أعرف حجم أملاكي دون أن أعرف كيف أنفقها ، لأنه لم يكن هناك ما يثير فيّ أدنى حماسة ، فاتفقت مع محاميي ومع بعض المساهمين لأنفذ على نفقتي الخاصة هذا العمل في تحري الظروف التي تعمل فيها شركتنا في البلدان المدارية ؛ ولسوء الحظ... لا ، ليس سوء حظ... بل لحسن الطالع أنني لم أعد أستطيع العيش هنا ؛ إنها حالة الصياد الذي وقع في الشرك...

- ووقع تماماً بالزواج...

- هيا إلى الفراش ، لأنه لا بد من الخروج باكراً في الغد...

- ولكن لا بد قبل ذلك من إعادة «ترويض الشرسة» إلى خزانته ، لكي يبقى كل شيء في مكانه .

الفصل السادس عشر

شمس عارية ، شمس رهيبة جعلت العناكب تطل من بين الصخور ، ليس عنكبوتاً واحداً ، بل مئات العناكب ، ليس مئات بل آلاف العناكب ، خرجت في فوران لا ينتهي من الأرض حتى لا تحترق فيها . الأهالي يتوقفون لينظروا إلى السماء ، جلودهم جافة ، أنفاسهم جافة ، متعرقين ، مختنقين . ينظرون إلى ظلام السماء الأزرق . الحيوانات منهوكة من الحر والعطش ، تتقوقع على نفسها مثل ليفة . والأشجار في المحرقة الهائلة صار لها شكل ألسنة لهب دون اشتعال ، وحقول الموز تمتص كل ما في الأرض من رطوبة لتروي عطشها . أخرج التشاما قدري الجير المحضرتين مسبقاً ومضى إلى المقبرة . كان وحده في كل الاتساع الفسيح والمرئي الممتد إلى حيث ينحني الأفق . خطوة خطوة يمضي وحده مع قدري الجير . وفي المقبرة كانت الأرض تتململ . يجب استغلال ظهيرة التاسع من آذار . دخل المقبرة هو وحده . وحيداً إلى حد أنه كان يمكن للموتى غير المدفونين جيداً أن يمسكوه بأيديهم التي من نار باردة ، لأن الأرض كانت مثل فرن ، وحتى أجساد الأموات صارت بحرارة الأحياء . مقبرة عظام ساخنة ، ذباب أخضر ومائل إلى الحمرة يصدر أزيز مراوح ، يطير فوق خضرة لها لون الشَعر الهرم .

هو وحده . وحيداً إلى حد يمكن للموتى معه أن يكلموه . قصير القامة ، ملتفاً بثوب له لون لحاء شجرة ، أسمال متعطشة إلى المطر ، في خيوطها تراكمت غمامات غبار إلى أن حولتها إلى كرتون وجعلتها خشنة ، نباتية . السترة التي بلا كتفيات ، مغلقة حتى الرقبة . ومن جانبي الوجه ، يظهر على خديه ، على شكل لحية ، قرح قاتم متفحم . يبذل جهداً كبيراً ليفتح عينيه المدفونتين ما بين التجاعيد ، فالجفون هي تجعدات وحسب ، والجبهة تجعدات ، والأذنان أشبه بتجعدات ، واليدان تجعدات بأصابع ، والقدمان أصابع بتجعدات .

ـ سوغوسان ، سوغوسان ، سوغوسان...

هذا ما كان يقوله التشاما لدى دخوله المقبرة . القدران اللتان تحتويان ماء الجير كانتا تلطخان الطريق ، تلطخان قدميه . قطرات ولطخات بيضاء ...

خلّف وراءه قبور المدخل ، سوغوسان ، سوغوسان ، سوغوسان... وخَلّف القبور الأخرى ، تلك التي وراء القبور الأمامية . سوغوسان ، سوغوسان ، سوغوسان... وخلّف وراءه القبور التي وراء تلك التي تجاوزها . سوغوسان ، سوغوسان ، سوغوسان .

بدأ قناع تجعداته يبدل حزنه إلى سعادة . رفع رأسه المغطى بقبعة لها شكل الفطر ، شكل مظلة ضفدع ، لكي يتمكن من رؤية شيء ما ، لأنه لا يستطيع فتح جفونه كثيراً ليرى جيداً . رفع رأسه بمشقة ، وانسل نحو الأرض المغطاة بالحصى ، حيث ترك قدري ماء الجير على الأرض ، وجلس القرفصاء طويلاً منتظراً من يدري أي شيء .

إشارة ما...

سوغوسان ، سوغوسان ، سوغوسان...

أغمضت عينا التشاما ، تهدل جفناه ، ولكنه لم يكن نائماً . رعشة مفاجئة جعلته ينهض متكهرباً . ومن أحد القبور الحديثة ، ترابه ما زال طازجاً ، وصليبه الخشبي جديداً وطلاء كتابته واضحاً ، أخرج ميتاً . وبضربة سكين رهيبة فصل رأسه وألقاه في أحد قدري الجير . ثم قفل راجعاً بعد ذلك من الطريق نفسه . وحيداً ، سوغوسان ، سوغوسان ، سوغوسان ، وحيداً ومعه قدرا ماء الجير ، إحداهما للتمويه ، وفي الأخرى رأس هيرمينيخلدو بواك .

وعند وصوله إلى بيته ، أخرج التشاما ريتو بيراخ من قدر ماء الجير رأس الميت النتن ، الثقيل ، الأبيض بالكلس البارد ، وبين الشفتين الداكنتين كانت تظهر الأسنان القوية والكبيرة . ثم ألقاه في القدر من جديد . سيرحل إلى البحر عند انقضاء هذا القمر الذي لم يحمل ماءً ، وسيترك في البيت رأس بواك ، موجهاً إلى حيث تطلع الشمس على فرشة من ريش باشق .

لم يخلع قبعته ، وإنما سقف كوخه الذي كان مثل قبعة قش فوق قبعته التي لها شكل فطر . مشى خطوتين خطوتين ، ثلاثاً ثلاثاً ، خمساً خمساً ، عشراً عشراً حتى البحر . دعائم الكوخ أضلاعه ، ذراعاه ، ساقاه... أحجار أساس الكوخ قدماه . وجاء بعد ذلك ، أتى من البحر ضد كل الأشياء متحولاً إلى فتات .

الهواء حمل كوخاً... ، هكذا قال الناس ، واختبؤوا جميعاً ، لأن الريح كانت تهب بقوة ، وكانت الريح الإعصارية المدمرة تزداد أكثر فأكثر...

كان هيرمينيخلدو قد مات لأن قلبه توقف حين لم يجد من يصارعه .

لهذا السبب مات! ولم يجد من يصارعه ، لأنه عندما مضى مصمماً على قتل مدير الشركة ، قال له أحدهم : ستقتل هذا المدير فيأتون بمدير غيره ، تقتل الآخر فيرسلون واحداً آخر!...

غرس أظفاره في لحم يديه . . يدي الرجل الشغيل ، دون أن يعرف ما عليه عمله . لا بد من الكتابة إلى شيكاغو . فأناس هناك المشهورون هم أصحاب الكلمة الأخيرة . ولم يكن هيرمينيخلدو بواك يعرف أين هي شيكاغو ، فلو كان يعرف أين هي لوصل إليها ولو مشياً على الأقدام ، لكي ينجو من الإفلاس الذي لم ينج منه في نهاية المطاف . ويسأل : من هم أولئك الناس . الجميع كما يبدو يعرفون من هم ، ولكن دون أي شيء محدد . شيكاغو . أناس هناك . الأسياد .

في اليوم الذي بقي فيه مع ثماره ، مع أقراط موزه الكبيرة التي يزيد طول كل قرط منها على طول رجل متوسط القامة ، دون أن يشتروها منه ، بكى واكتفى بالقول :

ـ غرينغو أبناء عاهرة ، إذا كانوا يملكون هذا الشيء غير المرئي الذي يسحقنا والذي لا يمكن مصارعته ولو بقتل النفس ، فنحن أيضاً... ، ها! سأخصي نفسي إذا لم أنتقم!...

وذهب لمقابلة التشاما ريتو بيراخ ، لكي يواجه التشاما هذه الإرادة غير المحددة ، هذه القوة المنفلتة التي تدمرهم ، فطلب منه التشاما حياته ، وقدمها هو ، هيرمينيخلدو بواك إليه ، وطلب منه التشاما رأسه ، وأعطاه هو ، هيرمينيخلدو بواك كل شيء مقابل الثأر .

طلب منه هيرمينيخلدو بواك قوة لا تُبقي شيئاً قائماً . ريحاً تهب من أسفل . ريحاً متواصلة ، قوية ، أشد قوة ، أشد قوة وأكثر انخفاضاً ، تقتلع

حقول موز التروبيكالتانيرا من جذورها ، تنتزعها إلى الأبد . الريح التي تغرس أسنانها في الأرض ، الريح القذرة ، الكونية ، المالحة التي تنبش كل شيء ، حتى الموتى . طلب هيرمينيخلدو بواك منه ذلك بتقديم موته بالقلب وبتسليم رأسه إلى ريتو أكون بيراخ . هل ستتبدل هيئة كل شيء ؟ ستتبدل . ستتحرك خطوط السكة الحديد كأنها الثعابين . ولن يبقى شيء في مكانه . المقاومة النباتية البائسة للعناصر المنفلتة ضمن ما هو طبيعي ، سيقهرها عنصر واحد منفلت من عقاله ضمن ما هو فوق طبيعي وسحري من إرادة الإنسان التدميرية ، قوة البهيمية البحرية والضرب المتواصل في الجذور ، في الركائز ، في قوائم الحيوانات ، في أقدام الأهالي المذعورين . طلب منه هيرمينيخلدو بواك . وسيأتي الانتقام الإعصاري للزلزال الهوائي ، للزلزال البحري الجاف ، سيأتي استجابة لطلب هيرمينيخلدو بواك من ريتو بيراخ الذي تتحكم أصابعه بالأنفاس السائلة والصخرية لهوراكان وكابراكان .

في تلك الليلة . في ذلك اليوم التالي . في تلك الليلة الثانية . في ذلك اليوم الثاني . في تلك الليلة الثالثة . في ذلك اليوم الثالث . عربات القطارات التي كانت على سكك الحديد بدأت تتحرك دون إرادتها ، تطفر عن الخطوط الحديدية ، بينما المواشي التي كانت تجأر في الزرائب خرجت من هناك متزاحمة عندما وصلتها القاطرات الخارجة عن الخط والمنفلتة على غير هدى . وشيئاً فشيئاً راحت البيوت تنفصل عن ركائزها مع ازدياد قوة هبوب الريح . ورؤيت أوعية استخراج الماء تمر مثل نجوم دون نور ، مبعثرة أبراج الحديد ، مجتثة أعمدة التلغراف ولم يبق شيء من مزارع الموز منتصباً ، كل شيء مسحوق على الأرض ، متحول إلى بؤس نباتي بلا حراك .

معدن الإعصار الأبيض في يدي التشاما ريتو بيراخ كان يعصف بنزق

مثل مسحوق سيوف . أول صدّ قامت به أشجار الموز لكي لا تسقط ، كان مجرد دفع ، لأن البحر كله تحول إلى زوبعة هواء وانقض عليها ، وعندئذ انفلتت من جذورها ، تكسرت جذوعها ، وتهاوت سريعاً ، ولم تعد تقاوم ، فالريح ستمر بسرعة لتكنس كل ما تكنسه من بيوت ، وحيوانات ، وقطارات ، مثلما تكنس الزبالة .

رؤساء الشركة ، ونواب الرؤساء ، ومديرو المناطق ، ونواب المديرون ، وال... وجميعهم ، جميع ممثلي أناس هناك المشهورين ، أولئك الذين لا وجه لهم ولا جسد ، وإنما إرادة لا تلين... جميعهم صاروا يتقلبون مثل فئران شقراء ، ترتدي الأبيض ، بنظارات حسيري بصر بانسين في بيوتهم المزعزعة والموشكة أن تُستأصل وتُكنس . جميعهم كانوا يحاولون البحث عن وجه الآخر الذي يعارض مقاصدهم ، الذي يواجههم بعناصر متفوقة ، الذي يلغيهم على الرغم من أنظمتهم الاحتياطية لمواجهة الأسباب المحتملة للخسائر .

الهواء الجاف ، الساخن ، نار الماء تقريباً ، لم يكن يطيح بكل ما يعترض سبيله وحسب ، وإنما كان يجففه كذلك ، يتركه مثل نسالة القنب ، يفرغ أشجار الموز المحطمة من ماهيتها ، وكأن أياماً كثيرة ، أياماً كثيرة جداً قد مضت عليها وهي ملقاة هناك تحت الشمس .

سوغوسان ، سوغوسان ، سوغوسان...

رجع التشاما إلى المقبرة ومعه رأس هيرمينيخلدو بواك ودفنه . كانت الصلبان قد طفرت مفتتة عندما مر الإعصار على القبور . ومن القرية التي تغذي المقبرة بموتاها لم يكد يبقى سوى الركام ، ولكن بدمار كبير ، الركام المهيب ، الكئيب ، كومة البيوت المهملة التي بدون أي سقف ، وأخرى دون

جدران الواجهة ، وكأن بطونها قد شُقت ، وتركت أحشاءها من الأثاث في العراء ، فوق الأزقة الخاوية التي كانت تُرى فيها واجهات محلات ودكاكين وحانات ، تنتشر جثث القطط والكلاب والدجاج وطفل ما .

سوغوسان ، سوغوسان ، سوغوسان...

الخوف سيطر على كل الأشياء الجامدة وسط الريح التي تعصف مدفوعة ، ودافعة كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ، إلى أي مكان ، على ألا يبقى أي شيء في مكانه ، وما يقاوم كانت مقاومته تكلف دماراً وآلاماً فظيعة للمواد الحية ، حتى أن الطبيعة نفسها بدت مهزومة ومسايرة للإعصار في اللعب ، لإنقاذ الأشجار الضخمة التي تنتصب مرنة ، وقد تحولت كل فروعها إلى فتات الزوبعة .

ـ ليلاند!...

كان ليستر يكرر الاسم بآلية وهو يتقدم نحو بيته وسط الريح .

ـ ليلاند!...

ـ ليلاند!...

من تحت الجلد ، من أعصاب وأوردة وعضلات وعظام الرقبة كانت تتلوى فيه الرغبة في إطلاق قهقهته الكئيبة ، وكأنه يعلن « كل ما لا بد منه للخياطة! » ، وكان عليه أن يرفع يده المتشنجة ليقطع تلك الرغبة في الضحك ، في الضحك ، في الضحك .

ـ ليلاند!...

ـ ليلاند!...

ـ ليلاند!...

كان الإعصار يوشك أن يقلبه من قدميه اللتين كانتا تضعفان على أرض المـزروعات المـغضّنة تحت عـصف الريـح ، ولم يعـد بإمكانـه التقـدم ولو متـمسكاً بجذوع الأشجار . راح يحبو ، منبطحاً على وجهه ، على قوائمه الأربع ، أو يزحف أحياناً مثل أفعى ، لكي يسمح له الإعصار الذي لم يكن يترك كتلة صلبة في مكانها ، بالوصول إلى بيته .

ـ ليلاند!...

ـ ليلاند!...

كانـت قهقهـة الأزمنة الأخرى ، الـ يا-ها ،ها ،ها ،ها! تأتيه مثل قيء ضحك ودم ، وحين يحس بها منثورة بين أسنانه يبتلعها ، يعيدها ، مبللة في ماء متحول إلى ريح ، في بحر متحول إلى ريح ، في نور متحول إلى ريح ، في أشجار متحولة إلى ريح ، في أحجار متحولة إلى ريح تهب بقسوة مع رائحة وحش أقيانوسي ، زائغ ، متغطرس ، خليط من صراخ عناصر هادرة وأنين مخلوق أرضي بميل كامل إلى الموت . شجيرات الموز يخفيها ، يكنسها ، يحملها عالياً ، ليطوح بها بعيداً جداً ، إلى أماكن لا يمكن تصورها . طاولات ، كراس ، أسرّة ، كل شيء محطم ومنثور هنا وهناك على امتداد كيلومترات ، فوق الأشجار ، تحت الجسور ، ما بين مياه الأنهار المصفوعة والصاخبة ، ليس بسبب ارتفاع منسوبها ، وإنما بسبب مرور ومرور الريح الأفعوانية .

ـ ليلاند!...

ـ ليلاند!...

مضت القهقهة وحدها عندما رأى زوجته تصل إلى البيت وسط العاصفة ، شعرها مشعث ، ملابسها تكاد تُنتزع عنها ، ما بين الحصان والعربة .

- ليلاند!...

سقط فوقها كجزء من العاصفة الهوجاء . تلمسها . تلمسها . رأى أنها موجودة . رأى أن الريح لم تحملها لتسحقها . لتسحقها ، لتطوح بها ، خامدة ، ميتة أو خائرة ، مثلما كان كثيرون في أماكن مختلفة ، جثثاً غير مبالية بمرور الإعصار .

- ليلاند!...

لم تكن ترد عليه ، خرساء من الرعب ، موحلة التفكير في أنه آخر يوم في حياتها ، ولكن دون تفكير بذلك ، شاعرة بأن ذلك مثل قصاص فظ ، مثل شيء لا يمكن تجنبه ، حاضر هناك ، هناك معها ، هناك مع كل ما يحدث وما سيأتي فيما بعد...

ما كاد الحصان يخرج من الحظيرة الحجرية التي وراء البيت ، حيث يملكان دجاجاً ، وعربة ، وزريبة ، حتى لم يعد يتوقف . كانت العربة نيزكاً وليستر ستونر (الخطر طرق أذنيها باسمه الحقيقي) ، مثلما في أفضل أيامه كطالب ، عندما قاد في الجامعة عربة رومانية . وكان يرتدي زي الرومان في حفلة مزاح تنكرية .

تصفيق آلاف المتفرجين هو هنا آلاف الأوراق المهتزة ، أغصان آلاف الألسنة المتذوقة بالتبادل مرارة ضراوة كونها أغصاناً ملتصقة وليست تلك المنفلتة ، الطائرة مثل أشياء فضائية . بدأت عجلتا العربة تضعفان . وفي لحظة كان هناك إحساس بأنها تمضي بعجلة واحدة فقط ، لأن الثانية قد

أفلتت . ولحسن الحظ أن العربة المخلعة لم تنهر ، وفي أثناء ذلك يمكن التقدم ، الهرب ، قطع الطريق نحو الأهالي ، الوصول ولو إلى بيت لوثيرو . وكانت هي ، هي كلها متشبثة بليستر ، متحولة إلى كائن واحد معه ، رأسها منصهر في ظهره ، وراء ظهره ، لتترك له مجالاً للتصرف بالأعنة ، ولكن ذراعها حول خصره مثل حبل مشدود ، للتأكد أكثر . إذا ما سقطا ، يسقطان معاً ؛ وإذا ما أصابهما شيء ، معاً ؛ وإذا ما جاءهما الموت ، معاً . مسمعيهما ممتلئان بهذا العالم المتحرك ، هبة اثر هبة ، بمئات آلاف جذوع أشجار الموز الطائرة كما لو أن أوراقها قد تحولت في لحظة معينة إلى أجنحة نسور خضراء لتحملهم وسط الغبار الذي يمنع الرؤية لأبعد من بضعة أمتار . الطريق ينزلق في انحدار صغير ، ولدى اصطدام العربة بحجر هناك تدحرجت حتى منتصف الطريق ، وبقيا هما بعد ارتطامة رهيبة على الأرض ، مع المقاعد الجلدية وكل شيء ، هو ممسك بطرف الأعنة وهي محشورة ما بين ظهر ليستر والأرض ، كشط فظيع في وجهها ، من الجبهة وحتى الأذن ، انتزع جلدها ، مع أنها لم تكن تشعر بالألم وإنما بالخوف ، ليس الخوف من الانتهاء الفوري لكل شيء : فالآمال قليلة جداً بالنجاة الآن حيث بدأت أحجار كبيرة تتدحرج ، تمر فوقهما مثل عوالم صامتة... الحصان إلى أسفل قليلاً ، سحقته شجرة ضخمة اقتلعتها صخرة منفلتة كانت تتدحرج نحو الهاوية . لقد سقط الحيوان المسكين جاثياً بعنف وقد تكسرت قوائمه الأربع في وقت واحد ، وتحول إلى بقعة وحيدة من دم وحصان وأنين .

كان ليستر يعرف طبيعة الأرض ، ولكنه في وسط الكارثة وجزعه مما يمكن أن يحدث لليلاند ، كان مشوشاً . لو أنه وحده لعرف إلى أين يتوجه زاحفاً ؛ ولكنه وهو معها...

نهض قليلاً عن الأرض ، حيث كان مطروحاً ، لكي لا تقلبه الريح ، حيث كانا مطروحين ومتشبثين بقوة بالجذور ، واستطاع أن يرى أنه غير بعيد عن الكهوف التي يسمونها «غامبوسينو» ، على بعد نصف فرسخ من بيت لوثيرو .

«الظاهرة تشمل منطقة واسعة...» هذا ما يقوله معهد الأرصاد الجوية . لو عرف بذلك التشاما ، لو عرفت بذلك جمجمة هيرمينيخلدو بواك التي أعيدت إلى المقبرة ، لضحكت بكل أسنانها من الغرينغيين ، من سلطتهم ، من آلاتهم ، من أناس هناك المشهورين ، من تلك الرؤوس السرية التي تحكمهم ، وهي للحقيقة ليست رأساً واحداً ، ولا رأسين ، ولا ثلاثة رؤوس ، وإنما رؤوس كل المساهمين في رأس البابا الأخضر . هيرمينيخلدو بواك ، بجمجمته البيضاء ، يضحك من الاثنتي عشرة مليون شجرة موز التي قوضتها الريح القوية ، وطوحت بها من الأراضي الرطبة حيث كانت تبدو مفروضة مثل أوتاد لعبة البولينغ .

في المنخفض الصغير الذي تشكله الأرض ، حيث وقعا ، يمكن التقدم دون الانقلاب أرضاً ، ومضيا أحدهما في اثر الآخر منحنيين ، منحنيين جداً حتى لا يعرضا رأسهما للريح ، وكان مشيهما مجانبة أكثر مما هو مواجهة ، بخطوات قصيرة مترنحة ، كخطوات السكارى .

عند الوصول إلى كهوف «غامبوسينو» ، غابت ليلاند عن الوعي وفقدت كل امارات الحياة باستثناء أنين خافت بين شفتيها . وكان بياضها كشمع جليدي تحت شعرها الذهبي المخضوضر وسط جو عكر مثل ماء الملح . كان ليستر قد أحضر إحدى وسائد العربة ، وفوق تلك المزق من النسالة والجلد وضع راس زوجته ، بينما راح يبحث عن منديل ليمسح خيط

الدم الذي كان يسيل على رقبتها وراء الأذن . ظلال الأشجار الشبحية ، الأشجار غير الموجودة ، ولكنها وجدت هناك يوماً ، بدأت تنحني وتدخل الكهوف مثل حيوانات عملاقة . كان ليستر يعرف ذلك . فقد كانت ساراخوبالدا ترويه للجميع . عندما تحدث عاصفة ، ستظهر ظلال الأشجار التي قطعوها منذ سنوات في التحطيب ، وستدخل مثل أشباح إلى كهوف «غامبوسينو» ، ومن تجده داخلاً ستسحب منه كل ما هو حي تحت جلده وتحوله إلى دمية من جلد فوق العظم . فتح ليستر عينيه الخضراوين وكأنه يرى وحشاً يهجم عليهما ، وخنق في حنجرته القهقهة التي كانت تصعد من صدره مثل قطار جبلي ، وصرخ :

ـ ليلاند! ليلاند!...

ظلال الأشجار العملاقة ، أشجار الابنوس ، والمهاغوني ، الأكاجو ، والسِبُّوتة ، والغواياكو التي لم تعد موجودة ، تواصل الانحناء بصورة خارقة والدخول إلى الكهوف بحركات حيوانات ، بحركات أمواج بحر كثيفة .

ـ ليلاند ، فلنخرج من هنا ، الظلال تدخل ـ وأشار بإصبعه المتصلب ـ ، انظري إليها كيف تنحني ، انظري كيف تتقدم ، انظري كيف تتمدد ، انظري كيف تحاصرنا ، انظري... انها ستمسك بنا وإذا هي لم تقلبنا فإنها ستُفرغنا من الداخل ولن يجدوا منا غداً سوى دميتين من جلد وعظم!

هربا من الكهف بعنف مزقت معه ليلاند فستانها ، فبقي أكثر من نصف ساقها مكشوفاً ؛ وواصلا الهرب إلى حيث بيت آل لوثيرو ، ما بين الجذوع الطويلة التي يرتعش في قممها بريق النهار البعيد على مستوى الأرض ؛ واصلا الهرب ونظراتهما تائهة في ما لا مهرب منه ، تحت الأحجار الهائلة التي تذروها الرياح الإعصارية مثل القمامة .

وتمكنا من الوصول ، دون أنفاس ، دون أقدام ، مثل بشر آليين ، إلى فراغ محصن بالغابة القريبة من بيت لوثيرو ، وهناك توقفا . الغبار الساخن الذي يتصاعد من الأرض لم يكن يسمح بالرؤية . ولكن ما كان يمر قريباً منهما ، ويمتهنهما ، ويكاد يصفعهما ، كان يمكن تقديره في نوع من ومضات الضمير . شاحنة بدت كأنها سقف بيت كانت تطير مع عمود ما زالت تتدلى منه الأسلاك ، إنه عمود أو يد تقول : «أنظروا ، فأنا لم أفلت خطوط التلغراف» ، تتبعها مواش ، عشرات البهائم التي كانت جلوداً صلبة من كثرة الصفع ، قوائمها متصلبة ، أذيالها تتجرجر ، وقطعة كبيرة من بناء تحمل اسم مدرسة الذكور ومقاعد وسبورات تشير إلى أنها هي أيضاً خرجت في فسحة ، كل شيء مبعثر ما بين آلاف جذوع أشجار الموز التي لا تبدو منتزعة من الأرض وإنما تنزل مطراً من السماء...

ـ ليلاند ، فلنتوقف ، هنا يجب أن ننتظر انتهاء كل شيء ، لأن كل شيء قد انتهى . لقد كنتُ أعرف ذلك...

الريح تصفر ما بين الأشجار التي كانا يستندان إليها ، محاطين بسيل الدمار . مظلة حديقة مع قطعة مقعد نزلت متواثبة مثل طائر ضخم ممزق ، وكانت تمر هبات من بقايا كراس ملونة ، وأدوات مطبخ وبقايا غرف نوم ، تفقد قدرتها على الحركة عندما تصطدم بالأرض ، ولو للحظة فقط ، لأن الريح القوية كانت تحملها بعد ذلك ، لتلقي بها إلى حيث الأشياء التي لم تعد تنفع في شيء . كانت تلك هي مظلة بيت تيري دازين . ومرت حزمة بشرية ، مرت مثل يهوذا ما يومئ بحركات حيوان واقع في المصيدة . لم يعرفا من هو . لقد سمعت قريباً منهما صرخة امرأة . وبعد ذلك لا شيء . عاد كل شيء إلى الصمت المهمهم الذي يتراقص فيه الإعصار . دجاجات مع

كل شيء وأقنان دجاج ؛ أبراج حمام مع عيون كثيرة أعماها الرعب ؛ وخزائن تُفلت ملابسها مثل الأحشاء ، ومرايا تتفتت فيها وجوه الكارثة ؛ وحصائر مثل قصاصات ورق تدور حسب أهواء الرياح...

ولم يريا المزيد . كان ليستر يكرر وهو يحبس أنفاس إنهاكه القلق :

ـ فلنتوقف يا ليلاند ، هنا يجب أن ننتظر انتهاء كل شيء ، لأن كل شيء قد انتهى . لقد كنتُ أعرف ذلك...

خيول ، وخيول ، وخيول تمر راكضة ومثيرة سحباً من الغبار تختلط مضطربة بضوء ماء الملح الذي يعكر الجو . ويُعرف أنها تمر من تصاعد الغبار ومن أشكالها البهيمية التي تجري طليقة ، لأن الإعصار كان يصفر ليمحو حتى صدى وقع حوافرها ، بينما كان مدّ بترولي يتيح الافتراض بأن مستودعات بنزين قد تطايرت .

ليلاند التي كان بياضها بعدم حساسية الحليب ، لم تكن تحرك تقاطيعها إلا عندما تبذل مجهوداً لتبتلع لعابها الجاف والكثيف ، أو عندما يتراكم عليها الألم ، الألم ، الألم غير المحدد وغير القابل للتحديد . لا يمكن عمل أي شيء . من كان يصدق كل ذلك . كانت ، وهي معفرة بالتراب من رأسها حتى قدميها ، تحاول إشعار زوجها بأنهما معاً ، بأنها رفيقته النهائية في الاعصار ، ولكنها تفعل ذلك دون تفكير ، دون كلام ، بالالتصاق به وهو يكرر :

ـ فلنتوقف يا ليلاند ، هنا يجب أن ننتظر انتهاء كل شيء ، لأن كل شيء قد انتهى . لقد كنتُ أعرف ذلك ؛ كنت أعرف أن ظلاماً عظيماً ينتظرنا . ظلام عظيم ، زمن بلا زمن ، إعصار جلد ضفدع بحري ، إعصار انتقامي رهيب... هكذا... انتقامي رهيب... عقدة أشد القوى بدائية ، لأن هذا

في نهـاية المطاف ، هذا كله هو ريح ، ريح وحـسب ، ريح تمـر ، ريح تلعلع ، ريح لا تتوقف عن المرور...

ظهره ، الأشجار ، الليل الذي بلا نجوم ، بلا نور ، والمخيم مثل كتلة ظلام .

ـ كنت أعرف يا ليلاند ، كنت أعرف أن ظلمة عظيمة تنتظرنا...

لم يعد كل منهما ينظر إلى الآخر . ما عادا يتبادلان النظر . كلهما مسامع . هكذا كانا . مسامع وحسب . بل وليس هذا ، وليس مسامع . فما الفائدة ؟... لسماع أنهما في بحيرة هائلة تتلوى لتتكلم دون أن تنطق سوى الصوت المرتعش نفسه ، في لغة هائلة لبحر حارق متحول إلى ريح تحرق ، تسـوط ، تكنس ، تجفف ، تقـتلع ، تسـحب ، تذرو كل شيء تمـر عليـه بقوتها .

ـ فلنتـوقف يا ليـلاند ، هنا يجب أن ننتظر انتـهاء كل شيء ، لأن كل شيء قـد انتـهى . لقـد كنتُ أعرف ذلك... ، كنت أعـرف أن ظلامـاً عظيـمـاً ينتظرنا .

كل شيء كان يذوب في حضيض واحد تحت أقدامهمـا ، ثقب إنهاك أحست بنفسـها تنزلق فيه بعد أن لـم تعد قادرة على البقاء واقفة ، ظهرها المستند إلى الشجرة كان مثل كل جسدها المشلول رعباً ؛ كانت تسقط من جسدها ، هي ، من جسدها ؛ وكان جسدها ما يزال يتحمل البقاء متعلقاً باتساع شجرة ، أما هي فكانت تسقط خامدة ، مثل أي واحد من الحيوانات المـسكينة التي كانـت تتحطم لتـهرب ، مكبلة بالمـوت الذي ينتظرها هناك بالذات ، هناك... أجل ، انزلقت هي من جسدها وسقطت وقد صارت إنهاكاً ، صارت إنهـاكاً وحسب ، ولا شيء سوى الإنـهاك ؛ ولكنها حين وصلت إلى

قدميها ، جذبت البقية إلى أسفل ، المادة ، وصارت هي الجسد وهي الإنهاك شيئاً واحداً جامداً ، مستسلمة نهائياً لما يشاءه الله...

ـ ليلاند!... ليلاند!... ليلاند!...

كان ميد يناديها ويهزها دون رحمة ، كما لو أن الإعصار قد تغلغل في جسده هو أيضاً . يداه الساخنتان تعتصرانها ، تريدان لمس قلبها تحت ثديها المكور ، وكان من المؤلم الإحساس بأنه لا يداعبها كما في السابق ، وإنما يعتصرها ليبحث تحت الصدر عما لا يستطيع الإحساس به ، لأنه لا يستطيع إبقاء يده ساكنة... إلى أن أحس أخيراً ، أجل ، أجل ، أجل...

ـ ليلاند!... ـ دنا ليقبلها ، صك أسنانه بأسنانها وكرر بصوت خافت ، وبسرية تقريباً : ـ ... كنت أعرف ، كنت أعرف أن ظلمة هائلة تنتظرنا...

سيسهر بجانبها . أعد لها وسادة من الأغصان ، وأمسكها من خصرها بحذر ليمددها بصورة أفضل ، لأنها كانت قد انهارت مكومة ، مثل فرع شجرة .

ـ ليلاند... ـ كان يتمسك بها بعينين مغمضتين ـ ... ليلاند... ، ربما غداً... ـ حرك يديه ليبعد غصناً أسود لم يحركه الإعصار ، غصن أوراق حداد كان قد سقط على جبهته... ولكن يده لم تكن موجودة... يده... كانت قد راحت ، كانت قد راحت مع الغصن... عندما حركها... عندما راح هو يبقى حيث هو ، دون يد... دون أي واحدة من اليدين : مبتوراً ومُنتزعاً عن قدميه اللتين بقيتا هناك بعدياً مثل فردتي حذاء متعبتين .

الخاتمة

ـ هنا تعارفا وهنا يبقيان!...

قرار دونا روسيليا ، أرملة لوثير المتشحة بالسواد ، بعينيها الباكيتين ، وأنفها المحمر من كثرة النف ، وشفتيها المحروقتين بالجو العاصف الذي عاشته لساعات من الغم ، لم يترك مجالاً للموظف الذي يمارس مهام العمدة والقاضي بأن يقترح شيئاً آخر .

ـ هنا تعارفا وهنا يبقيان!...

الحمالتان ، وهما نعشان من أوراق طازجة ، اللتان حملوا عليهما الجسدين ، بقيتا في الفناء المحاط بكلاب جائعة تتشمم دون مبالاة ، بحثاً عن طعام . شرعت دونيا روسيليا بالعمل ، فسجتهما على سرير أخرجته من الغرفة الرئيسية . ولعدم وجود مكان آخر ، فقد وُضع الاثنان على السرير نفسه ، أحدهما إلى جانب الآخر ، متحدين في الموت ، مثلجين كما لو أن وجهيهما وأيديهما معروضة تحت القمر على قمة شديدة الارتفاع . وكان الشباب ، أبناؤها ، يتنقلون لمساعدة الناس . كم من الأشياء حملتها الريح القوية إلى البحر . كم من الكائنات البرية تطفو الآن ما بين أسماك القرش ، تائهة في المياه التي عادت بعد انقضاء العاصفة لتصبح هاويات زمرد ، أذيال

حوريات بحر مبللة بالزبد ، شبق الشمس ، احتفال حقول موز بلورية .

تكلم أحدهم عن الأشياء التي هناك في الأسفل . ولكن ، أي أشياء تلك ؟ ليس هناك سوى الأماكن . فالريح قد حملت كل شيء . ومن المكان الذي كان ينتصب فيه منزل آل ميد لم يبق سوى المكان المهجور ، المكنوس ، كما لو أن مكنسة غضب قد كنست كل تلك الفتنة .

كان آل لوثيرو وكوخوبول وآيوك غايتان حاضرين أمام الجثتين ، دون أن يعرفوا كيف يتحركون ، في جو مكفهر ، مشبع بالرطوبة ، وما يزال متوعداً .

طلبت دونيا روسيليا حفر الأرض بجانب قبر زوجها ، في أرض المقبرة ، حيث كانت في أحد القبور جمجمة هيرمينخيلدو بواك البيضاء بالجير ، تضحك بكل أسنانها البارزة ، تحيط بها الضحكات الصفراء الثلاث : ضحكة ريتو كنت بيراخ ، وضحكة ريتو أكون بيراخ ، وضحكة ريتو سأكون بيراخ . وعاد العمدة إلى المطالبة بالجثمانين . فهناك مكان محجوز لهما في مقبرة أجنبية .

أسرة لوثيرو كلها ، وأسرتا كوخوبول وآيوك غايتان ، كانوا جاهزين للجنازة ، فرافقوا جثتي ليستر ميد (فهم عرفوه بهذا الاسم) ، وليلاند فوستر ، على الحمالة نفسها التي أحضروهما بها إلى «سميرأميس» ، حملوهما إلى القطار ملفوفين بملاءتين بيضاوين . ومن إحدى الحزمتين كانت تظهر خصلة شعر ذات لون أخضر ذهبي . ومضى القطار بطيئاً ، متدحرجاً دون ضجة كبيرة ، عبر مقبرة أشجار موز مطروحة أرضاً ، مقطعة ، محطمة .

مدينة غواتيمالا دي أسونثيون ،
كانون الثاني ـ نيسان ١٩٥٠

ميغل آنخل أستورياس

نوبل ١٩٦٧



- ولد ميغيل آنخل استورياس في ١٩ تشرين الأول ١٨٩٩ في مدينة غواتيمالا .
- وقبل أن يكمل الرابعة من عمره ، انتقل مع أسرته إلى منطقة باراباث السفلى بعد أن تعرض أبوه لمضايقة وتهديد دكتاتورية إسترادا كابريرا ، وتعرف ميغيل الصغير هناك على سكان بلاده الأصليين عن قرب .
- بعد سقوط الدكتاتور مانويل إسترادا كابريرا عام ١٩٢٠ ، يؤسس ميغيل آنخل استورياس جمعية الطلاب الجامعيين ، ويبدأ الكتابة في عدد من المجلات .
- ينهي دراسة الحقوق بأطروحة حول « مشكلة الهندي الاجتماعية » .
- يسافر في عام ١٩٢٤ إلى لندن ، ومنها إلى باريس حيث يمضي عدة سنوات .
- وفي عام ١٩٢٨ ينهي كتابة مجموعته القصصية « أساطير من غواتيمالا » ورواية « الهاخادتيو » . وتنشر ترجمة « أساطير من غواتيمالا » مع مقدمة لبول فاليري يبدي فيها حماسه لتلك القصص الشعرية .
- في عام ١٩٣٢ زار استورياس مصر وفلسطين ، وأنهى كتابة روايته الشهيرة « السيد الرئيس » .
- وفي عام ١٩٤٩ ينشر رواية « بشر من ذرة » وينهي القسم الأول من ثلاثية « روايات الموز » وهي « الريح القوية » و« البابا الأخضر » و« عيون المدفونين » .
- تلقى في عام ١٩٦٦ جائزة لينين للسلام ، وفي عام ١٩٦٧ جائزة نوبل للآداب .
- توفي في مدريد يوم التاسع من حزيران ١٩٧٤ ، ودفن بناء على وصيته في مقبرة الأب لاشيز في باريس .

ISBN 2-84305-168-1